عصام منصور



رواية

الرواق للنشر والتوزيع


عصام منصور
النحَّاس
رواية
الرواق للنشر والتوزيع

النحّاس
عصام منصور
الغلاف: أحمد مراد
التصحيح اللغوي: أحمد عبد المجيد
رقم الإيداع: ١٩٦٩٢ / ٢٠١٣
الترقيم الدولي: ٥ - ٣٩ - ٥١٥٣ - ٩٧٧ - ٩٧٨



١٨٦ عمارات امتداد رمسيس ٢ أمام أرض المعارض مدينة نصر
هاتف: ٠٢٢٠٨١٢٠٠٦
rewaq2011@gmail.com
facebook.com/Rewaq.Publishing

إهداء إلى..

روح الأميرعمر طوسون المتواثبة تشوقًا، وهي تكتشف مدينة مينوتيس الغارقة

عقل الدكتور يوسف زيدان الذي غرق في جهد مشبوب، وهو يرسم صراع هيبا مع عزازيل

قلب الصديق حسن الجندي الذي شاركني الألم والجهد، في ميادين تحرير ثورتنا

شكر خاص

لأمي، بالإضافة لأخي وقارئي الأول (عمر)، على دعمهما

وللزميلة الشاعرة نهاد زكي، على مشاركتها

(الدستور الأكرم المعظم المشير الأفخم المحترم، ناظم مناظم الأمم، مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب، متمم مهام الأنام بالرأي الصائب، ممهد بنيان الدولة والإقبال، مشيد أركان السعادة والإجلال، مرتب مراتب خلافته الكبرى، مكمل ناموس سلطنته العظمى، المحفوف بصفوف عواطف الملك الأعلى، وزيري سمير المعالي (سعيد) باشا والي أيالة مصر، الحائز لرتبة الصدارة الجليلة وللنشان المجيدي الهمايوني الأول، أدام الله تعالى إجلاله، وضاعف بالتأييد اقتداره وإقباله).. جزء من بداية الفرمان الهمايوني من السلطان (عبد المجيد) لوالي مصر (سعيد) باشا.

تمهيد

الحمد لله الذي جعل باب الجنة منخفضًا، لا يُدخل إلا سجودًا، وخلق (آدم) بعد أجناس عديدة، ووضع خليله (إبراهيم) في السماء السابعة البعيدة، وقدر لزوجته (هاجر) المصرية، أن تكون جدة العرب الودودة، وعلّم ميلاد (عيسى المسيح)، بسقوط أصنام الأرض المشيدة، وأوحى لـ (محمد) الخاتم، بالصلاة إلى صخرة (بيت المقدس) ستة عشر شهرًا أكيدًا. ونسلم كثيرًا ونصلى على نبيه القرشي حفيد (إسماعيل)، المولود في عام الفيل، المرسل بوحي الله عبر (جبريل).

أَمَّا بَعْدُ، فالمذكرات والملاحظات الآتية تم أخذها من أوراق وتدوينات والدي رحمه الله وأسكنه فسيح جناته، وقد عولجت بإضافات بسيطة ما بين ترقيم وتقسيم وتطعيم، بأسلوب أدبي أو أخبار صحفية، فقط أوصى الوالد بعدم إفشاء ما كتب، إلا بعد تشييع جثمانه إلى مثواه الأخير، ويبدو أن غرابة ومرارة وقوة ما عاصره الوالد يدفعني لنشر قصته. أو ربما أفعل تأسيسًا وتجذيرًا وتأصيلاً لما واجهته أنا فيما بعد، وأواجهه الآن، وهو ما سأوصي أصدقائي بعدم نشره إلا بعد وفاتي بدوري، لا تقليدًا بل تدبيرًا واحترازًا لمساءلة المسائلين، وتتبع الفضوليين..

والله المستعان..

الابن

الثورة

أقول لكم: الحلم تمزق..

الحلم الذي كان ملء السمع والبصر، انقضت عليه ثلة من الذئاب الوحشية، ونحروه، وقطفوا جمجمته، ومثلوا بجثته..

الحلم الذي كان يتبسم فتتبسم زهرة الحياة، استعبدته آلهة وثنية قذرة. أنجاس. أستنكف أن أخاطبهم أو أنظر لهم..

الحلم الذي يشرق على الدنيا فيبثها ربيعها الضال، مزعته طغمة من الأوغاد الحقراء، وأضاعوه، وأضلوه سبيله..

كُتب على مخلوق من تراب أن يمزقه شياطين السحر، وكُتب على وطن من تراب أن يمزقه شياطين السياسة..

وأطلقت صرختي، وطرت نحو سحرة العالم القديم في مشهد عجيب، فرّ له صواب الجنود الروس والمصريين على السواء، وانقضضت عليهم بشيطاني الخاص الذي تعملق، كأنما يبثه غضبي قوة شريرة، وسطوة ماحقة مضاعفة، فتفرقوا بذعر لمرآه، واستدعى كبيرهم الحارس الأخير ذا الرمح والفأس. ليس لقتالي؛ لكن ليفر بين يديه العملاقتين على حساب الآخرين، بنذالة أحقر المخلوقين. هؤلاء الذين سقطوا في قبضتي، وذاقوا مني ويلاً رهيبًا فرّقهم بددًا ومزقهم إربًا إربًا. حتى عندما حاولوا الاختلاط بالروس في هلع مستثيرين عطفي، قضيت على الروس قضاءً مبرمًا، ومزَجت أشلاءهم ببقاياهم الفاسدة العفنة. حتى عندما حاولوا الاستعانة ببعض تمائم عالمهم البائد، كالاختفاء أو سرعة التحرك، لم تسعفهم سرعتهم أمام انقضاضي الرهيب الذي لا أعرف أنا نفسي أي جزء ضئيل من الثانية احتاجه، ليفنيهم في هذه المذبحة الشعواء..

ونظرت إلى السماء، لأجد كبير السحرة الشياطين يختفي مع حارسه وسط جبال السحب الكروية. وعندما حاولت اللحاق به، خانتني قدرة سوادي الحارس، الذي لا يملك قدرة تفوق الحراسة والذود، ولا يقدر على اختراق أجواز الفضاء خلف كبيرهم..

وعندما هبطت على الأرض في عنف، وعدت لطبيعتي المنكوبة، عاد إليّ أصدقائي، ولمسوني بحذر ـ فَرَقًا مني على الأرجح ـ و(مختار) يسألني بتردد:

ـ (محفوظ).. هل أنت بخير؟

وضحكت..

هالهم رد فعلي.. لكنني لم أره غريبًا لهذا الحد.. فالسؤال يُضحك فعلاً، فأي شيء هذا يوحي أنني بخير؟ أي شيء؟

وفي سعادة قال (إدريس) وهو يتحسس إصابة كتفه:

ـ لقد مهدت أمامنا الطريق يا صديقي، أخبرني، أهي بركات الدرويش صديقك الذي طالما حدثتنا عنه؟

وقال (مجاهد) بفخر:

ـ إننى أرى الإمدادات قادمة من بعيد، لقد أنقذتنا من هلاك محقق على يد الأورطة الروسية.. لقد أنقذت الوطن.

نعم أنقذت الوطن..

وقتلت من ملك روحي..

كان هذا آخر ما كان من عقلي قبل أن يذهب. لكن قبل أن يكون فيه آخر كان له أول. لكل آخر أول، ولكل علة معلول. وللوصول أصول ما بينها موصول. وهو فيما سيأتي قد أقول.

وهاكم قَصي للقصص.

* * *

عن (عبد الله بن عمرو) قال: قبط (مصر) أكرم الأعاجم كلها وأسمحهم يدًا وأفضلهم عنصرًا وأقربهم رحمًا بالعرب عامة وبقريش خاصة، ومن أراد أن ينظر إلى الفردوس أو ينظر إلى مثلها في الدنيا فلينظر إلى أرض (مصر) حين تخضر زروعها أو تنمو أثمارها. أخرجه ابن عبد الحكم.

* * *

الآن لا أأتدم سوى بالجبن والزيتون، وسائر الطعام ليس له في فمي أي مذاق..

أعرف الموت عندما يداهم اِمرأً، وأعرف أنني في فراش الاحتضار الحتمي، وقد عشت فوق الأرض ٥١ عامًا، ما بين طفولة عاثرة، وشباب حافل، وكهولة مريرة، ورغم ما رزقنيه الله تعالى من مال يكفي كي يمرّضني به التمارجية في الإسبتالية[1]، إلا أن الضيق من هذه الحياة، واليأس من صلاح أحوال البلاد والعباد، يجعلني في غير حماسة لهذا الاستشفاء المرفه، فقط أكتفي بالأعشاب، التي أحضرها لي الحاج (راضي) العطار..

أرقد على فراش من الخشب الزان، في غرفة كبيرة، مفروش على أرضيتها حصر (الحلفا)، وبقية المفروشات صوف غليظ من شغل (بولاق). التهوية جيدة، وكذلك شعاع الشمس الحميمي. أدس لقمة جبن أخرى بين شفتيّ، والجدران تنظر لي بوجوه كالحة، وأنظر لها بين الفينة والأخرى، غير عابئ برماديتها وشيخوختها، وفي أحيان كثيرة تنفر العصافير من الزقزقة في الشرفة، بسبب كثرة زيارات طائري الوفي النسر (رخ)، الذي يظنه الغالبية حمامة؛ لبياضه الشاهق، وقلة مكوثه، ولو تكلم لعرف الناس حقيقة جنسه، ولكنه كبقية الحيوانات العجماء..

في النهار أنصت لجلبة البائعين، وضوضاء الحركة بحي (الناصرية) المتنامي، وأحيانًا أُسلي وحدتي بالغناء على البضاعة، بالتوازي مع الباعة، حتى لا أخرج عن طوري. هذا ينادي «مدد، مدد يا إمبابي» فأعرف أنه بائع الترمس، وهذا يشدو «الله يهونها يا ليمون»، وهذا يصيح «يا مسلي الغلبان يا لب»، وهذا يهتف «جميز يا عنب» مدللاً على جميزه، أما من يقول «يا فرج» فهو رفاعي تسعى إليه ثعابين البيوت سعيًا، فيخلصنا من شرها. في الليل لا ينيّ ولدي الأوحد (محفوظ) عن تمريضي، والاطمئنان على أحوالي، دون الاكتفاء بطلات جاري وصديقي العجوز الحاج (راضي)، الذي يذكرني بحموي المحترم..

كنت قد أخبرت ولدي عنوان سُكنى أمه الحقيقية في (الإسكندرية)، خشية أن يكون قد نسى زيارته القديمة لها في صباه، وذلك بعدما وصل لسن مناسب يسمح له بتقصي أخبارها، لم تكن

هنالك مشكلة عندما عرف أنها (كاترينا)، جارية الحاج (رفاعي) تاجر العطور الكريم، فلقد بذلت جهدًا كبيرًا لتعليمه، وعدم الاكتفاء بمناهج تعليم الحكومة الجامدة، ويعرف حق المعرفة أن للمسلم حق الزواج من الكتابية، دون أن يكرهها على اعتناق دينه. لن يتجاهل أمر رسول الإسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ (فاستوصوا بقبطها خيرًا). هكذا سافر إلى مدينة (الإسكندر)، التي تجذب روح أي إنسان يزورها بلعنة سحرها، ولكن الأخبار لم تكن سارة..

ففي نفس اليوم الذي عرفت فيه أن شيخ النحاسين، شيخي وأبي الروحي بعد الدرويش التائه، وبعد أبي الذي ذهب في الطاعون، قد سلم روحه لبارئها بعدما عمر وبلغ من العمر عتيًا وتجاوز المائة، وصل (محفوظ) الصغير من (الإسكندرية)، ليعلنني نبأ زادني حزنًا، وجعل على المرض مرضًا، بجملة مقتضبة:

ـ عظم الله أجرك في الحاج (رفاعي) وأمي، لقد ذهبا في الكوليرا، التي كانت على أيام (إسماعيل).

آه..!

آهة طويلة هي تنهد بها قلبي، على من مات منذ زمن، دون أن أعرف حتى بموته، وعلى من مات منذ زمن، ويا ليتني لم أعرف بموته..

على الأهل والأصدقاء وحبيبة العمر..

حبيبة العمر الحقيقية، وليست (كاترينا)..

غير أن الوطن لم يبرح قلبي بعد، ورغم مآسيه وتضحياتي من أجله، إلا أن مكانته لم تتغير، ولم أعرف لها مثيلاً في المحبات المختلفات التي عرفتها، والملذات القليلات التي خبرتها..

لكن وا أسفاه على فردوس (مصر)، التي لم يهنأ لها بال منذ عهد أجدادنا الفراعين، ربما التقطت أنفاسها عندما أخذ بيدها آخر من اخترناه حقًا وصدقًا، عندما صادفت الألباني المولد مصري الهوية (محمد علي باشا)، لكنها ما لبثت أن عادت تسعى سعيها المحموم، وتلهث، وتئن خلف حريتها المهضومة، واستقلالها البعيد، ولم يفلح أبناء (محمد علي)، سواءً (إبراهيم) الفاتح، أو (عباس) و(سعيد) الجاهلان، أو (إسماعيل) المثابر، أو (توفيق) الخائن؛ في السير بسيرته..

مازالت الجدران تنظر لي بوجوه كالحة، وشروخها المقوسة ترسم ابتساماتها الخبيثة، ومازلت أتجاهلها حتى لا أشعرها بانتصارها عليّ زمنيًا، وعليه جذبت الغطاء على جسدى مجهول العلة، وبدأت أدخل في مرحلة نوم عصبي، وذلك كعادة المصريين في نوم القيلولة. في البداية يبدأ جهاز الرؤية لديك في الخمول مع المخ، ويتسرب وعيك فلا يتعلق سوى بخيط رفيع، بينما تحاول أنت الغوص في سدم الظلام الماتع، الذي يكون في أوله أمنية صعبة المنال. ظلام مبهم بكر، يحيط برؤى عينيك وعقلك، تسعى إليه أو يسعى إليك كي تكتنفك لذة النوم، فللنوم لذة خاصة وشهوة معينة، لا يتذوقها جيدًا إلا المجهدين والمتعبين والمرهقين في الأرض. تحاول التخلي عن خيط الوعي الناحل، الذي يبقيك على الرغم منك متصلاً بأهم الأحداث في العالم الخارجي، بلا جدوى، تطرده، تتركه، تقطعه، أو حتى تبعده، لكنه يظل لزجًا لجوجًا لحوحًا، كبعوضة في ليلة صيف ريفية رطبة، ومن موقعه في أذنيك تسمع بالفعل أصوات حركة، ورفع أشياء، ونفض أخرى في

الغرفة، تأتي في البدء غامضة، ثم سرعان ما يستفحل أمرها، وتتضح جدًا، حتى يصبح من العسير تجاهلها، هكذا أصحو وأطرد النعاس تمامًا لمرآها..

إنها (فرحانة) بنت الحاج (راضي) الراشدة، ها هي على الأرض بجوار سريري، تتطلع إليّ بنظرة لامعة صامتة على غير عادتها، بعد أن دخلت ورتبت الغرفة المغبشة من التراب، مرتدية ثوبًا قطنيًا مصبوغًا بالأصفر من نوع منتشر بكثرة، خاصة بعد إعادة (محمد علي باشا) زراعة القطن في البلاد، فسألتها باسمًا:

ـ يبدو أنكِ راغبة في قول شيء ما يا (فرحانة).. تبسّطي في الحديث، لا بأس.

ـ ما الذي يحدث في العالم؟!

ـ لا أقوى على القهقهة يا بنيتي.. يا له من سؤال!.. لكن ما الذي يجول بخاطرك البريء بالضبط؟

ـ كثيرًا ما أصغيت لأحاديثكما أنت ووالدى يا عماه، وأحيانًا مع سيدي وولدك.. وبدا لي عقلكم العظيم، كما لو أنه يحوي أخبارًا ومعارف جمة، فلما لا تخبرني عما يحدث في العالم الخارجي؟ أرجوك لن أثقل عليك.. دقائق فقط، وسأكون في غاية النباهة.

(فرحانة) فتاة ذكية حصيفة، حرمها الجهل من تعلم المفيد، شأنها شأن جل بنات (مصر)، ويذكرني جمالها بحسناء تركية رأيتها قديمًا اسمها (آيت)، كفلقة الإصباح، بخدودها الممتلئة، وصدرها البض، وشعرها النظيف، حتى إنني فكرت مليًا في تزويجها لولدي، لكني لم أبتّ بعد في الفكرة، لكنك يا (فرحانة) لا تعلمي من أمرك شيئًا بالفعل.. ومن سوء حظك أنك لجأت لمن تحير أمره وفاض به الكيل، فلا تقلبي عليّ الموجوع، فأنا كنت ومازلت جاهلاً أي مستقبل ينتظر هذا البلد، وأي حال سيؤول إليه الولد، واكتئابي وتشاؤمي الإجباريان، ملازمان لي حتى في أحلامي، التي تخلصت من كوابيسها القديمة الشريرة، كوابيس سأفصّل في ذكر شيء منها فيما بعد، غير أن بصيص ضوء، أشبه بنقطة أمل برزت في عتمة الحيرة، أعاد لي شيئًا عتيقًا اسمه تفاؤل ولو نسبي، بما يمكن أن تسترده البلاد.. بصيص جاء في وقته، خاصة بعد نفي (توفيق) السيد (جمال الدين الأفغاني) إلى (جدة)، وعزله (محمد عبده) من التدريس بـ (دار العلوم).. بصيص اسمه (أحمد عرابي باشا)..

انتزعتني من هنيهة شرودي، بإلحاح طفولي رائق، يحمل مزيجًا من الدلال وخفة الروح:

ـ أخبرني مثلاً لماذا جاء الخواجات[2]؟!

اعتدلت في فراش مرضي، وقد طردت نوم القيلولة الجذل، وتنهدت، وقلت لها محذرًا:

ـ عليكِ أولاً ألا تفشي شيئًا مما سأقول لصويحباتك، ولو من باب التسلية، وحتى لو حلفتيهن بعدم الإفشاء!

كنت أهدف لحمايتها في المقام الأول، حتى لا يتنامى لعلم أحدهم أنها تفهم في السياسة أو تجتمع بمن يفهمها، فأومأت بدماغها، وعينها تحمل نظرة صدق وإخلاص ووعد هائلة مطمئنة، فتنهدت مجددًا، وارتشفت أذناها الكلمات المتدفقة ملتهبة من ثغري، الكلمات التي حملت كل شجوني ومرارتي، وعاطفتي الثائرة، التي دومًا ما تساءلت، أما آن لها أن تهدأ حتى تستقيم الحياة؟:

ـ كان أملنا في إصلاح الحال قد حل بالعام الماضي، كما يحل الربيع على التلال الباردة.. ففي العام الماضي فقط ١٨٨١م، قامت الانتفاضة العرابية، بل ثورة العرابيين الشجعان، لتطالب الخديوي بإعلان الدستور، وقيام مجلس نيابي، معلنة صحوة الحركة الوطنية، من أجل مستقبل هذا الوطن.

ثم شرحت لها في عجالة تبعيتنا القديمة لسلاطين العثمانيين وولاتهم، قبل الباشا (محمد علي) رحمه الله وغفر له، وكذا معنى الدستور أبي القوانين، والمجالس النيابية صنو نواب الشعب، وأثناء ذلك حدث أن دخل زنبور بدين إلى الغرفة، فعبر النوافذ تدخل الشمس ويدخل الهواء، تدخل الحرية، لكن يدخل كذلك البعوض والزنابيركضريبة حتمية، فقامت تهشه برشاقة، وهي تحيلني إلى ما يموج به بحر ذكرياتي..

حسنًا.. لم تشهد حياتي الكثير منذ انتهاء حرب (القرم) الغريبة.. بعد فترة عاصفة حافلة، لم يكن يمر فيها يوم بلا كابوس في المنام، وآخر في الواقع، فقط كان العالم الخارجي يمور كالعادة بكثير من المصائب والبلايا، كحرب (المكسيك) من ١٨٦٣ حتى سنة ٦٧، وتجدد اشتعال الحرب التركية الروسية المسلسلة الكئيبة ١٨٧٧. كما حدث الاعتلاء الأسود لـ (توفيق) المشؤوم على عرش (مصر)، بعدها بسنتين، والذي صاحبه الأزمة الاقتصادية العالمية، ثم أيام وشهور رتيبة متشابهة هادئة على سطح الزمن، مائجة في باطن الذكريات، لا تنسى ما فات، لو كان بإمكاني لسودت منها من لفائف البوح إلى مد البصر..

وعندما فرغَت من مطاردتها المضحكة للحشرة، التي لن تجد في عروقي دمًا شابًا لتمتصه، عادت لقعدتها، فشككت للحظة أنها نست ما تبادلناه، أو فقدَت كل فهم لمعنى ما شرحته لعقلها الجديد، تمامًا كما يحدث لبعض التلاميذ مع مقدم الإجازة، بسبب نظام التعليم الفقير، لكن التماع الذكاء في عينيها العسليتين، طمأنني لحاجتها إلى نهل المزيد؛ فواصلت:

ـ أخيرًا في العام الماضي، وبعدما جن ليل طويل، ظنت فيه الدول الكبرى خاصة (إنجلترة)، أن شعوب الشرق، ومن بينها (مصر)، غير مؤهلة لحكم نفسها بنفسها، وإنشاء حياة نيابية دستورية أوروبية حديثة، تحفها الحرية الحضارية عن اليمين والديمقراطية المبتكرة عن اليسار، هب الثوار العرابيون، لمطالبة الخديوي بإعلان الدستور، وقيام مجلس نيابي على النسق الأوروبي، فدهش الإنجليز وبقية المستعمرين الطغاة من هذا المطلب العجيب والغريب، وقهقهوا تهكمًا، لأنهم يدركون سرًا وعلانية أن هذه الشعوب قد ألفت الاستبداد واستمرأته، ويصفقون مشجعين للخديوي الذي يجلد المصريين بالسياط الاستعبادية والاقتصادية المتنوعة، كأنهم يتفرجون على عرض ترفيهي، في مسرح نُصب في الشرق.

ارتسم المقت في عينيّ، وهو ما رأته جيدًا، فانعكس أسفًا على قسماتها الوسيمة، وأنا أفكر فيما قلته للتو، فهم بالفعل يدعون أوروبيًا للحرية والديمقراطية والدستورية، ويصيحون طربًا في بلاد المشرق محيين البهلوانات، الذين يجيدون التسبيح بحمد ولي النعم، أو كما يسمونه (سعادة صاحب الحضرة الخديوية الفخيمة)! يتباهون بتقدمهم الحضاري، ويتشدقون بمعارفهم وإنسانيتهم مقابل الشعوب الهمجية البربرية، ويوقرون في أنفسهم أن أمة طال اغتصابها تحت ستار زائف بالحماية، تحن بطبعها لعباءة المغتصب الفضفاضة أفضل من البقاء في العراء، حتى لو كان في العراء الحرية والاستقلال، وتنقية للإرادة السياسية..

تخيلت (بريطانيا العظمى) كامرأة فيكتورية عليها مظاهر الأبهة، ترتدي تلك الفساتين الضيقة عند الوسط، والتي تتسع وتنتفخ بعد ذلك وحتى القدمين، وتخيلتني أنهرها ثم أنهال عليها بالتقريع، كرمز للمستعمر، حتى قالت لي مشيرة بسبابة التحذير والتعليم:

ـ الاستعمار هو عمل وطني! نعم.. نحن نخدم بلادنا باستعبادكم من أجل مصالحنا العليا، وحتى لو رحلنا فنحن نزرع حكامًا مستبدين، كي يعملوا على وأد الروح الوطنية في شعوبكم، هذه الروح التي لو وئدت، لاستراح الحكام المحليون والمعادون معًا، ولو صَحَت وترعرعت، لأشفقنا منها، ولقلنا على نفوذنا العالمي السلام، فسوف تطالبون حينها بالتفوق الذي لابد أن يظل حكرًا لنا، حتى لو دعمنا الحكام الداخليين بكل شيء ممكن.. كل شيء.. طالما حافظنا على استبدادهم، وعلى حرصنا المشترك على جهل وتخلف شعوبكم، ذلك الجهل الذي ينتج لنا أشهى الثمار، بدءًا من الضعف الاقتصادي وحالة العوز الدائم لنا، انتهاءً بضعف الوعي بالرموز الوطنية والتنويرية، ملاذ الشعوب الأخير نحو الحضارة. نحو القوة.

كانت الحقيقة مؤلمة موجعة لكنها كأي حقيقة، فالقهر الداخلي مرادف أصيل للموات الخارجي، ولانخفاض صوتنا وكرامتنا وراية مجدنا بين الأمم، بينما الحرية تعني التطور والإبداع والابتكار، والتفوق في كل المجالات.. كل المجالات..

وعندما انتبهت من لجة أفكاري العميقة، تبخرت المرأة الفيكتورية المتغطرسة، وحلت محلها البنت الشعبية المتمرسة، التي كانت ناظرة في انتظار، فتابعت واستطردت:

ـ لكن المصري هو المصري على كر الدهور.. ما إن أتيحت الفرصة حتى أثبت للإنجليز وسواهم، أن كرامته فوق كل شيء، ورفض أن يواصل العرض الترفيهي، وحمل لافتة بحجم (مصر) كلها، كتب عليها (لا للاستعمار الخارجي، ولا للاحتلال الداخلي)، وصاح بعلو صوته:

ـ الشعب المصري ليس بقاصر مضلل لا يعرف مصلحته ويستحق فرض الوصاية عليه.. ليس كذلك ولو كره الكارهون.

هزها الحماس والتأييد، وبدا في إيماءة ملؤها العزم لرأسها، وضاقت عيناي وهما تتذكران التفاصيل الدقيقة، وهذا في شرحي بلهجة غشاها الاهتمام:

ـ فقط في العام الماضي، وعندما أصبح (عثمان رفقي باشا) الشركسي ناظرًا للجهادية[3] في وزارة (مصطفى رياض باشا)، واستبد بإدارته فلم يعد يرقي المصريين من العسكر العاملين في الآلايات[4]، بل واستبدل الأكفاء منهم بالطاعنين من شراكسة أبناء جنسه، قصُر الاجتماع على الشراكسة في منزل (خسرو باشا)، الذي كان يقول للعسكريين المصريين صلفًا، وبالنص:

ـ (إيه زنبيل لي هارفار).

أي (فلاحين شغالين بالمقاطف). كانوا يتذاكرون تاريخ دولة المماليك الغابرة، ويقولون إن الوقت قد حان لرد بضاعتنا. (مصر) بضاعة لهم..

تحمّست الفتاة اللطيفة، وقالت في غضبة رقيقة، لدرجة أنها لا يمكن اعتبارها غضبة تؤثر في ذبابة حتى:

ـ يحتاج لمن يكسر له أنفه المتكبر هذا!

ـ عندما جرت تلك الأمور يا (فرحانة)، تقدم أميرالاي (أحمد عرابي)، بعريضة لدولة رئيس النظار (رياض باشا) أمام ديوان الجهادية بقصر (النيل)، تطالب بالمساواة والديمقراطية.

كان الحق واضحًا والمطالبات منطقية تستند لأسس شرعية سابقة، ولكن الجديد في الأمر أنها المرة الأولى التي يطلبها أحدهم بجرأة، صراحة نهارًا جهارًا، بل وأن يكون هذا المُطالب من الجيش نفسه.

ـ الحق حق.. ومن لا يعجبه هذا فليشرب من بحر النيل، أليس كذلك يا عماه؟!

ـ هو ذاك يا (فرحانة).. لكن الخديوي (توفيق) انتصب في قصره (عابدين)، بعد اجتماع بالباشوات الأتراك والشراكسة، وأمر بتوقيف ثلاثة الأمراء آلايات، ومحاكمتهم عسكريًا، وتوقيع أقسى الجزاء عليهم على فسادهم حسب اتهامه، ويكون من أعضاء المجلس العسكري الفاسد، ناظر المدارس الحربية (أرفي) الفرنساوي، ورئيس أركان الحرب (أستون) الأمريكي! ليس هذا فحسب، بل إن الخديوي (توفيق) كان يؤمن بعدم أحقية العرابيين في مطالباتهم، ويبدو أنه يظن أن البلاد والعباد أملاك شخصية، فقد صرح بأن هذه البلاد قد آلت إليه بالوراثة من آبائه وأجداده، ومما زاد الطين بلّة، قوله عبارته الرهيبة لـ (عرابي باشا):

ـ وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا.

فما كان من الوطني الغيور، إلا أن رد عليه بما فتح به الله عليه، في هذا الموقف الشديد:

ـ لقد خلقنا الله أحرارًا ولم يخلقنا تراثًا وعقارًا، فوالله الذي لا إله إلا هو إننا لا نُورث ولا نُستعبد بعد اليوم.

وتطورت الأحوال بسرعة، فبعد حصار قشلاق (عابدين)، وتوسط قناصل الدول الأوروبية بين العرابيين وسراي الخديوية المحاصر، وعزل (رفقي باشا)، واختيار (محمود سامي باشا البارودي) ناظر الأوقاف مكانه، عزلت الحكومة (محمود سامي)، وعينت (داود باشا يكن) الجاهل الأحمق.

ضربت صدرها في انزعاج، كأنها تشاهد الأحداث الآن بعين الخيال، أو تأثرًا بطريقتي في القص، وقالت:

ـ أيا مصيبَتي! وما الذي جرى؟

ـ تجمَّع العرابيون وطالبوا للمرة الثانية بإسقاط الوزارة، وترتيب مجلس النواب، وإبلاغ الجيش للعدد المحدد بالفرمان السلطاني، فأصبح (شريف باشا) رئيسًا للوزارة، وعاد (محمود سامي باشا) ناظرًا للجهادية، واستقرت الأوضاع مدة، حتى أن (عبد العال حلمي) و(علي فهمي) رفيقا (عرابي) قد تشرفا برتبة الباشوية الرفيعة، بينما فضل (عرابي) البقاء كأمير آلاي طالما مازال في الجهادية درع (مصر) وسيفها..

وبعدما حل (أحمد عرابي) محل (محمود سامي) كناظر للجهادية، ورغم الاستقرار، إلا أن نذر الشر لاحت، وبدا أن الشيطان لا يريد إلا أن يُرخي سدوله على (مصر)..

ففي هذا العام الأسود وفى مايو الماضي، أبحرت أساطيل إنجليزية فرنسية مشتركة إلى ثغر (الإسكندرية)، في تحدٍ سافر لحماية الدولة العثمانية وحقوق الديار المصرية، وقدمت لائحة

مشتركة من دولتي (إنجلترة) و(فرنسا)، ظاهرها الخطر الذي يحيق بالأوروبيين وأموالهم في (مصر) وضرورة عزل ونفي (عرابي)، وباطنها الشعور بمدى خطورة وصول الوطنيين إلى الجيش المصري، وقُدمت نسخة للخديوي، رفضتها الحكومة وقبلها الخديوي، فأعلن مجلس النظار استقالاته، لكن الخديوي أعاد (عرابي) على رأس الجهادية؛ لحفظ الأمن العام بعد الهلع الذي سببه مقدم الإنجليز والفرنسيين المشئوم، وتعهد (عرابي) العظيم بحفظ الأمن العام، وحماية الرعايا الأوروبيين، لكن جاء يوم ١١ يونيو الفائت بالأمس القريب جدًا، ليندلع حادث (الإسكندرية) المدبر.

ـ هذا أتذكره.. قالوا يومها إنه حدث بين مالطي موالٍ للإنجليز، وأحد حمّارة المدينة من المصريين، لكن لماذا دبروه هؤلاء الملاعين؟!

ـ ذلك لتشويه صورة (عرابي) أمام (أوروبة) كلها يا (فرحانة)، خاصة بعد الشغب الذي أدى لمذبحة، وأعمال نهب مريبة شبه منظمة في الثغر، الذي زرته وأعرف كل شبر فيه، فلما أرسل (عرابي) الجيش إلى (الإسكندرية)، وبعد الحادث بشهر بالتمام والكمال، أرسل أميرال الأسطول الإنجليزي لقومندان عساكر (الإسكندرية) بغطرسة ما معناه:

ـ ينبغي تخريب وهدم القلاع والاستحكامات السكندرية بأيدي العساكر المصرية، لأنها تهدد العمارة[5] الإنجليزية، وإلا سندمر المدينة!

وهو ما عدّه الخديوي والمندوب العثماني وجميع النظار إعلان حرب واضح، فاتفقوا على رفض الطلب والاستعداد لصد العدوان الغاشم، وعند إشراق يوم ١٢ يوليو ضُربت المدينة التي قاست الكثير والكثير على مر تاريخها، وانتشب القتال بين (مصر) و(إنجلترة) فعليًا، وهرع الناس بالفرار في رعب ما بعده رعب، بسبب قذائف السفن الإنجليزية، بينما وقفت نظيرتها الفرنساوية تحرسها متأملة في برود، دون أن تحرك ساكنة..

و تحت وطأة القوة المفرطة، تراجع العرابيون والجيش المصري الذي كان يستعد للولادة واستعادة قوته الأسطورية، حتى (كفر الدوار)، وسط مقاومة عنيفة، محاولاً صد غرور القوة الإنجليزي، وجبروتها الاستعماري المعروف، وزحفها البري المنظم، الذي بات واقعًا كابوسيًا.

شعرت بألم ضرسي وقد عاد، فطلبت منها إحضار قطعة قرنفل مما أحضره لي الحاج (راضي)، حتى أضعه أسفله فيذوي الألم، ففعلَت، وأنا أجتر ذلك الكابوس المحرّم ملتقطًا أنفاسي، بعد هذا السرد الذي يلخص أهوال..

نعم.. الإنجليز دخلوا (مصر)..

وأنا الجندي المخلص الذي وضع حياته رهنًا تحت إمرة إشارة واحدة من الوطن يومًا، عاش حتى شاهد تألم الوطن تحت دهس المستعمر، تمامًا كما يتألم ضرسي الآن تحت دهس السنين والأعوام..

راح الألم، فعدت لبقية زيتونتي التي لم أكملها، فالتهمتها وامتصصتها جيدًا، وأنا أتخلص من نواتها، واستطردت للفتاة الأريبة:

ـ أتذكر الخديو الخائن، وما حدث عندما أُرسل القطار الخديوي سريعًا، لنقله من قلب الجحيم ومن معه من النظّار، وكيف أبى.. وقفل راجعًا للارتماء في أحضان الإنجليز، معلنًا دخوله في معيتهم، والاستظلال بسطوتهم هو وعائلته ومن معه، بل وأصدر أمرًا بناءً على طلب الإنجليز بإلغاء الجيش.. هكذا بمنتهى البساطة باع حركة الكفاح الوطني الوليدة على يد الثورة العرابية، وكشف

عن عدم مصريته بسهولة، وربما بشهوة كشهوة السرقة.. سرقة أحلامنا وسرقة ثقتنا في شيء اسمه ولي الأمر، وهو يسلم البلاد والعباد للإنجليز، مفضلاً إنقاذ عرشه على أي شيء آخر.

ـ وماذا عن سلطان المسلمين؟

ساءني توصيفه بهذا الوصف، لكنني أحجمت عن إبداء رأيي شديد الدقة بالنسبة لها في هذه المسألة، حتى لا أربك عقيدتها تجاه ولي الأمر الديني، واكتفيت بسرد ما وقع من أحداث ردًا على سؤالها، كي لا تتشتت:

ـ حتى السلطان استسلم لضغط الإنجليز، وأعلن في أغسطس مرسومًا بعصيان (عرابي) ومن معه، واعتباره خارجًا عن طوع ولي الأمر، يسعى لتأليف دولة عربية!

ألا سحقًا لولي أمر لا يدري من أمره شيئًا، وليس بولي أمر على الوطن والعباد حقًا.. كذا تمتمت بصوت غير مفهوم، ثم أردفت:

ـ وأتم الله أمرًا كان مفعولاً، وحدثت الهزيمة المحتومة والخذلان الكبير في (التل الكبير) يوم ١٣ سبتمبر، الرقم الذي يتشاءم منه الغربيون، رغم المقاومة العنيفة والمعارك البطولية أمام خصم محترف، واستسلم (عرابي) الذي كان يحارب (بريطانيا العظمى) وحده، دون دعم من الخديو أو من الدولة العثمانية، ونُفي (عرابي) العظيم ومن معه إلى جزيرة (سيلان)، نفيًا أبديًا كما تعرفين.

لكن لا راد لقضاء الله وقدره..

الباقي هي تعرفه بالتأكيد، ككل أهل المحروسة جاهلهم وعالمهم، فلم أستمر بعد أن أصبت بإرهاق حقيقي وصداع مفاجئ، فشكرتني كثيرًا وهي تحضر لي أوراقي وقلمي قبل مغادرتها، وكذلك عصا من خشب الأرز، أضرب بها الأرض إن احتجت لشيء، فيسمعونني من أسفل ومن أعلى. الجميع يعرف أن في هذا الشهر الذي أكتب فيه هذه الأحداث سبتمبر ١٨٨٢، دخلت العساكر الإنجليزية (القاهرة)، كما دخلتها من قبل العساكر الفرنسية، ومن قبلهم العساكر العثمانية، وذلك بعدما انفتح أمامها الطريق، فقُضي بهذا على الحركة والثورة العرابية، واحتلت (إنجلترة) هذه البلاد احتلالاً عسكريًا دون جدال أو نقاش من غيرها من الدول الكبرى الأوروبية، ولا حتى من الدولة العثمانية ذاتها، التي بدأوا يسمونها (رجل أوروبا المريض)..

بينما كنت أنا رجل (الناصرية) المريض، وقد حار الحاج (راضي) الذي يسهر على تطبيبي، وزوجته الطيبة الوقور الحنون (سِتُّهم)، التي تحضر لي الطعام من حين لآخر، وابنتها اللطيفة السخية (فرحانة)، التي تخدمني كلما طلبت شيئًا، في نوع مرضي.. فكل وظائفي الحيوية تعمل جيدًا، لكني رغم ذلك أدنو من الموت، كل مؤشراتي النفسية تدل على هذا، وتفعل فعل الموت واستشفاف النهاية..

هل أموت معك يا (مصر)؟ لماذا يُكتب عليّ أنا الموت مرة واحدة، بينما مكتوب عليك الموت عشرات المرات؟

وماذا عنك يا (نيل مصر)؟

قال لي النيل بشجن:

ـ ما بي هو ما بك.. غير أنني لو مت لمات المصريون.. فأنا أموت في داخلي، لكني لا أجرؤ على الموت النهائي.. ربما أكل أهل (مصر) بعضهم بعضًا ذات يوم، لكنهم أبدًا باقون.. وهم في رباط إلى يوم الدين.

ـ لقد عاد بنا الزمن للوراء.. لزمن الاضمحلال.. بعدما كنا قوة عظمى أجراها الله على يد (محمد علي)، لأننا اخترناه حقًا ربما. ذقنا نوائب الدهر، وأصبحنا تحت تهديد السلاح الإنجليزاوي.. وربما غدًا الفرنساوي أو الروسياوي أو حتى الأمريكياوي.

ـ لا تمُت الآن يا (محفوظ).. لا تمُت الآن.

لكن يبدو أنه الاحتضار الأخير بالفعل..

احتضار الروح والنفس والماضي والحاضر والمستقبل و.. الوطن..

ربما لا يتحرك جسدي جيدًا، لكن يداي مازالتا تقاومان وتكتبان، مازالتا تقاومان وتكتبان، مازالتا تقاومان وتكتبان ما كان وما يكون، لن تعرف أبدًا ما سيكون، تمامًا كما حدث مع شياطين (سليمان) الخادمة، هكذا علمَت متأخرًا جدًا الحقيقة، وياله من تأخر، ويالها من حقيقة علمتها بدوري..

لكني كما علمت حقيقة ما، فعلى بعضهم أن يعرفوا بعضًا مما عرفت، ويعيشوا بعضًا مما عشت، على بعضهم أن يقرأ ربما فهم، وربما لم يفهم، لكنه سيدرك حقيقة ما بين الثنايا، حقيقة ما يساويه الوطن، وما يساويه الإنسان.. وما يعنيه ارتباطه بأي شيء..

تحسست ندبتي، وقادني الإرهاق بعدما غادرت (فرحانة) إلى مبادئ طريق الظلام الماتع إياه، ظلام النوم الذي يقبل عليك واعدًا بمشهيات الراحة، والذي كان ينقلب عندي قديمًا إلى ما هو أسوأ، بعد وعوده الفارغة..

في البدء تتوقف عيناك عن الحركة، وجفناك عن الارتفاع وتوتر الفتح والغلق، لحركة العين تأثير ميكانيكي مشوش للنوم وجالب لليقظة، رويدًا رويدًا تغادر نقطة كينونتك منطقة العين والمخ، وهي النقطة التي تتركز فيها مشاعرك الآنية، فعندما تدخل في قدمك شوكة تنتقل نقطة كينونتك بسرعة البرق للتركز في مكان الشوكة المؤلم، فلو كان جسدك ممتلئًا بالسحجات والكدمات حديثة الإصابة، لتغاضت مشاعرك عن آلامها، وتركزت بفضل نقطة الكينونة في الألم الجديد الأحدث، دومًا ما يعد الألم الأحدث في حياة الإنسان جالبًا لنعمة نسيان الآلام الأقدم. الآن نقطة الكينونة تغادر منطقة العين والمخ وتصعد لأكوان عليا.. عظيم! يبدو أنني في طريقي للنوم الحقيقي أخيرًا، ولعلي سأحظى بقيلولتي بعد لحيظات..

أسقط بالفعل في بحيرة الظلام الممتعة، وقد انفصلت كليًا عن العالم الخارجي على عقلي، وأتذكر الظلام اللذيذ سابقًا، عندما كان يتحول إلى ظلام الموت والكوابيس المرعبة. سألت الكثيرين عن إمكانية تكرر كوابيسهم، فكان أغربهم تكررًا، يزوره كابوس لمدة شهر كامل عن شنق الإنجليز له، بعد حادث تعرضه لهم أثناء دخولهم (القاهرة) ثم فراره، لكن أن تزورك الكوابيس لسنوات مثلما حدث معي، فكان هذا هو الغريب والعجيب.. الآن انتهى هذا العذاب بعد حرب (القرم)، وبعدما عدت إلى (الإسكندرية)، وتزوجت (كاترينا) القبطية..

بعد الاستيقاظ سأجد حتمًا ما أعرف أنني لواجده، وهو أن يديّ مازالتا تقاومان وتكتبان.. سأكتب حتى يقبض الله نفسي إليه. سأكتب عن حرب الشرق، وأصدقاء (المحروسة)، والسحرة الشياطين، و(ملك)..

(ملك جهان)..

* * *

1() الإسبتالية: مأخوذة من hospital أي المشفى. (الابن)
2() الخواجات في لهجة المصريين أي الأجانب، وقصدت (فرحانة) الإنجليز تحديدًا. (الابن)
3() وزير الحربية.
4() الكتائب. (الابن)
5() سفن الأسطول. (الابن)

جويليت الصاعقة

عن (عبد الله بن عمر) رضي الله عنهما قال: لما خلق الله تعالى آدم مثّل له الدنيا شرقها وغربها سهلها وجبلها وأنهارها وبحارها وبناءها وخرابها ومن يسكنها من الأمم ومن يملكها من الملوك، فلما رأى (مصر) رأى أرضًا سهلة ذات نهر جارٍ مادته من الجنة تنحدر فيه البركة وتمزجه الرحمة، ورأى جبلاً من جبالها مكسوًا أنوارًا لا يخلو من نظر الرب إليه بالرحمة، في سفحه أشجار مثمرة فروعها في الجنة تُسقى بالرحمة، فدعا آدم في (النيل) بالبركة ودعا في أرض (مصر) بالرحمة والبر والتقوى، وبارك في سهلها وجبلها سبع مرات.

* * *

لك يا مولانا (أبا العباس المرسي) أقول (شيء لله يا سيد). بالقرب من مسجدك يا مولاي يا سيد الثغر وحارسه بلا منازع، وبالتحديد بجوار مسجد تلميذك ومريدك سيدي (أبا عبد الله شرف الدين بن محمد بن سعيد بن حماد بن محسن البوصيري)، الذي نعرفه هنا باسم (الأباصيري)، كنت أسكن عند الحاج (رفاعي)، وكنت صيادًا في بحر (الإسكندرية). احتاج الصيد مني يومًا لترخيص بأمر شيخ الصيادين، واستتبع الترخيص إصدار هويّة..

هكذا شاء القدر أن يتم جمعي مع من جُمعوا للتجنيد الإجباري. بمجرد أن أصبح لي هويّة. استسلمت لإرادة المولى عز وجل، بل ولا أنكر أن بذرة نشوة غريبة تلقفتني، مع احتمالية القتال دفاعًا عن الوطن، الذي طالما راودني تقديم شيء لرفعته، ولكن الشيطان كان يجعلني أتساءل: وهل لو قامت حرب سأموت فيها؟ فكنت أثبط نفسي، لكن حسنًا فعلت باستسلامي، بعد تغير الوضع عما كان عليه أيام الباشا الكبير وتحسنه، حيث كان يتم جمع الماكثين بقسوة بالغة من القرى، ومن بين أحضان ذويهم الفلاحين البسطاء، وكانت طريقة جمعهم رقيقة للغاية، إذ كان الجنود ينقضون على قرية ما، فيجمعون ما بها من ذكور وينقلونهم إلى عاصمة المديرية مصفدين بالأغلال الحديدية، في مشهد تنخلع له القلوب وسط ولولة الأمهات والشقيقات والزوجات المحتشدات! فكنت أدخر كل هذا في نفسي وأتعزى بأنني على الأقل بعيد عن التنكيل السابق بالهاربين، أو أنني لم أتسرع فأبتر إصبعي أو أفقأ عيني، للإفلات من التجنيد كما يفعل الفلاحون بلا جدوى..

ظللت أفكر طيلة الوقت أثناء التجنيد والإعداد والتدريب طوال عام اثنين وخمسين وثمانمائة وألف، في حالة البلاد المتردية، والآخذة في التدهور بلا هوادة، وكيف أن الوالي (عباس باشا) حوّل حكم (مصر) لأملاك شخصية بحتة، يطلق فيها العنان لرغباته الخاصة، فرغم ما قام به من إنشاء نظام الحِسبة الذي ضبط الأسواق، وعنايته باستتباب الأمن في البلاد، إلا أن كراهيته لـ (إبراهيم باشا)، لأنه كان يجبره على البقاء في (الحجاز)، جعلته يهرّب أحد أبناء الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) من السجون المصرية، مغيرًا بهذا سياسة عقاب الوهابيين، وكذا كراهيته لعمه (سعيد باشا) ـ قائد الأسطول السابق ـ جعلته يُهمل البحرية والسفن بأكملها معرضًا السواحل للخطر، كما أنه من شدة سوء ظنه بأهله وشذوذه النفسي، حاول قتل عمته الأميرة (نازلي هانم) رغم وشيج القرابة، وبلغ من قسوته أن خاط بيده شفتيّ إحدى جواريه عندما رآها تشرب الدخان! وكان ينفي المغضوب عليهم إلى أقصى (السودان)، ذلك الإقليم الذي لم يفكر في زيارته أبدًا، فضلاً عن

إغلاق المدارس، وتراجع العمران، وسرقة الأوروبيين للآثار بانتظام، وبدء نفوذ الإنجليز بدلاً من الفرنسويين، وإدخال الأرنؤوط[6] في الجيش بالآلاف، واتخاذ حاشية خاصة من المماليك، والتقرب من الوهابيين..

كنت قد عرفت أحد أضلاع مثلث عذاباتي الدائم وهو ذلك الشيء الأسود الذي يتخذني عائلاً في أعماقي، الآن أدنو من معرفة الضلعين الثاني والثالث..

الحرب و(ملَك جَهان)..

لقد أشعل القيصر الروسي حرب (القِرَم) في العام التالي..

كان القيصر (نيكولاي الأول) خفيف الشعر أزرق العينان بارد الملامح، ذاته الذي عقد اتفاق التحالف العسكري مع الدولة التركية منذ عشرين عامًا، يحلم كأسلافه من قياصرة (الروسيا) طوال ثلاثة قرون بالسيطرة على البحر (الأسود) والوصول إلى المياه الدافئة، والإطاحة في الطريق بـ(الآستانة)[7] وتقويض نفوذ آل (عثمان).. هكذا ووراء تعصبه الديني الذي لا يتصور تقارب (إنجلترة) المسيحية مع العثمانيين المسلمين، حصل على موافقة الإنجليز في الهجوم على الدولة التركية، بينما الإنجليز في الخفاء يعدون مصيدة لتوجيه ضربة إلى الروس تحد من أطماعهم الاستعمارية، ولم تغب إمبراطورية (فرنسا) عن قلب الحدث، فقررت التحالف مع الموقف البريطاني في الوقت الحالي، بينما لحقت بهم (أوستيريا) ثم مملكة (سردينيا)[8] فيما بعد في الحرب بعشرة آلاف سرديني..

أما أنا فكنت أكره الجميع.. الدولة و(الروسيا) و(فرنسا) و(بريطانيا)..

كنت أراهم مجموعة من الوحوش الاستعمارية المتناحرة، التي تنتظر الفرصة لنقض التحالفات، وللهجوم الحربي على الفرائس، لتفريق الأعداء في سبيل مصالحها التوسعية والتجارية.. فقط كان الوحش التركي مصابًا قليلاً، والوحش الروسي متكبرًا قليلاً..

هكذا استغل القيصر نزاعًا في (فلسطين) بين الإغريق ـ الروم الأرثوذكس ـ المشمولين برعايته الروحية، وبين رهبان الأديرة ـ الكاثوليك ـ تحت رعاية (فرنسا)، عندما انتزع القسس الإغريق بعض أديرة الرهبان، الذين رفعوا شكواهم للسلطان (عبد المجيد الأول)، ومما سهل استغلال القيصر للنزاع نفخ (بريطانيا) الملكة و(فرنسا) الإمبراطور في الكير وتأجيجهما للنار، وذلك عندما حوّلتا النزاع الأرثوذكسي الكاثوليكي إلى نزاع بين الروس والعثمانيين، ورغم صدور فرمان سلطاني يراعي الإغريق ويُضيّع حجة الخلاف المذهبي على ذئاب السياسة، إلا أن القيصر أرسل الأمير (منتشيكوف) إلى (الآستانة) طالبًا الاعتراف بحمايته لكل الإغريق في أرجاء الإمبراطورية العثمانية، وتنحية الرهبان الكاثوليك، والحصول على مفتاح كنيسة القيامة في (القدس) وقبر (مريم العذراء) عليها السلام، بل واستقلال (الجبل الأسود) عن الأتراك في صلف حقيقي وفتنة طائفية متعمدة!

ولما رفضت حكومة (الباب العالي) الطلب، أرسل القيصر أميره بإنذار نهائي في مايو ١٨٥٣، فلما قوبل ثانية بالرفض، أمر القيصر جنوده المستعدين بالزحف واقتطاع إمارتي نهر (الطونة) الهامتين، (والاشيا) و(مولدافيا) غربي الدولة التركية والبحر (الأسود).. فجهزت الدولة الجيوش على جبهتي (الطونة) والقوقاز وأعلنت الحرب على (الروسيا) في أكتوبر من نفس العام عبر

فرمان همايوني، أمر فيه الوالي (عباس باشا) أن يأمر الناس بالدعاء للدولة السنية، وعدم الاعتداء على رعايا الأوروبيين بمن فيهم الروس..

والروس قوم صلاب وأهل نشاط وقوة صبر على المشاق، لكنهم أهل شهوات وميالون للقسوة، يصل عدد جيوشهم وقت الحرب إلى عشرين مليون جندي..

ومع اشتداد ألم ندبتي المتزامن مع برودة لم أشهد لها مثيلاً هذا الشتاء، حلّ بالتجارة المصرية كساد عظيم مع دق طبول الحرب، كما لو أن المتاجرة هى معشوقة السلام، وزاد فيضان خليلي (النيل) زيادة لم تر لها البلاد شبيهًا، كأنما يتنهد تنهيدة غضب أو يصرخ صرخة سخط..

لكنني كنت أعرف لغته..

كان (النيل) الذي دعا أبونا (آدم) له بالبركة، يهتف بحماس من أجل أن أنتصر في الحرب.. حرب الشرق..

لم أفهم دخلي بهذا فناجيته على البعد:

ـ لكن ما دخلي يا صديقي؟

ـ إنه شأنك يا بني.. إنه شأنك.

وفهمت مقصده عندما طلب السلطان من الوالي في فرمانه أن يرسل تجريدة من الجنود المصرية، على هيئة نجدة بحرية وأخرى برية لمساندة الدولة وقتال الروس، هكذا تخلى (عباس باشا) مؤقتًا عن رغبته غير الوطنية في جعل الجيش المصري من الأرنؤوط والأتراك الذين يحبذهم ويسلحهم بالمسدسات الأمريكية القوية، وتحوّل للأعداد الكبيرة الموفورة في المصريين، مستنفرًا جيشًا بلا رعاية صحية جيدة أو تأمين غذائي؛ سلحه بالبنادق الفرنسية القديمة، وقد سخط الناس خاصة مع جمع المشايخ الجائر للمجندين، واستفزهم إرسال المصريين لتلقي اللطمة الأولى من عدو روسي ضخم قاس لا يرحم، فأمروا بعدم الخوض في المسألة الشرقية وإغلاق الأفواه..

ولوهلة كنت مشتتًا أسخط مع الناس وكأنني لست في تلك التجريدة، حتى وجدت اسمي في كشوف طلائع النجدة البحرية، بحكم كوني صيادًا أجيد السباحة في السابق، راميًا بارعًا أجيد القراءة والكتابة كما تقول بياناتي حاليًا.. ومع مرآي لاسمي لم أستوعب للحظة أنه اسمي، كأني أقرأ اسم شخص آخر غريب..

أمين بلوك (محفوظ النحّاس)..

كنت أحد العساكر المائة والستين على متن السفينة الحربية (الصاعقة)، من طراز غولت أو جويليت، والجويليت مركب حربي من صاريين، وهو ضيق وطويل يتميز بسرعة سيره ويحمل ٢٢ مدفعًا صغيرًا، وكان أضخم أنواع السفن الحربية نوعًا يسمى (الغليون) أو (القباق) يحمل ١٣٦ مدفعًا كبيرًا وصغيرًا ومن الجنود ما يتجاوز الألف، وكنت في هذا الجويليت تحت قيادة الصاغقول أغاسي (طاهر قبودان).كنت (أمين بلوك) أي كاتب بلوك لتميزي عن الباقين بالقراءة والكتابة، ومرتبي لم يتجاوز ١٥ قرشًا، أما (صاغقول أغاسي) فتعني رئيس الجناح الأيمن برتبة رائد، وهو يعلو (اليوزباشي) الذي يقود مائة جندي، ويقل عن (البمباشي) الذي يقود ألفًا، وكان لباسي الجديد الذي كان على عيني أن تألفه، يتكون من طربوش أحمر دموي، وعطيف قصير ذي مشابك فوق الصدر، وسروال واسع إلى الركبة يعلوه حزام عريض على الوسط، وأسفل السروال حذاء تركي

قانٍ، وبينهما قلشين ـ لفافة ـ يشد على الساق، وهو لباس أهلي نوعًا، من الجوخ شتاءً، ومن القطن الأبيض المتين صيفًا، أما حمائل السيوف فمن جلد الجاموس، وتتميز كسوة الضباط عن الجنود بمزيد من اللون الأحمر والزركشة، أما الرتب فتعرف علاماتها بالأشرطة للجنود، والأهلة والنجوم للضباط بدءًا من الملازم..

على أنه قبل إعلان الحرب في أكتوبر أصدر الوالي أمره إلى (إبراهيم بك الألفي) محافظ (الإسكندرية) في أول يوليو، وكان يوم ٢٤ رمضان المبارك، لتعيين قبودانات ـ قباطنة ـ السفن المتجهة إلى الجبهة، فكان من بين السفن الأخرى سوى وابور (الصاعقة)، (النيل) و(جهاد آباد) و(دمياط) و(رشيد) وسبع أخرى، فكنا ٦٨٥٠ جنديًا بحريًا، وقائد عام الأسطول المصري كان أمير البحر الفريق (حسن باشا الإسكندراني) أحد مماليك (محمد علي باشا) المخلصين القدامى، أما الجيش البري فكان قوامه ١٧٩٢٢ من جنود وضباط الاحتياط بقيادة الذين خاضوا سعير ميدان الحرب في (سورية) منذ ٢٠ عامًا، على رأسهم الفريق (سليم فتحي باشا).. بينما كان القائد العام للجيش برمته في (مصر) منذ عهد (محمد علي باشا) هو (سليمان باشا الفرنساوي) أو (مسيو ساف) قبل إسلامه..

ثم انطلقنا في النصف الأخير من يوليو بعد أن أصبنا العيد في ثغر (الإسكندرية)، وإن لم يشكل هذا ميزة كبيرة، حيث كان عيدًا باردًا هادئًا ينذر بويل، اصطحب معه سرًا انتشار أساطير وخرافات مخيفة بين العساكر عن وحشية الروس الرهيبة، وإن حاولت عدم الاندماج في هذا التشاؤم المؤثر على دواخل نفس أي محارب، وذلك بتدوين ما يُطلب مني كأمين بلوك، مما أعفاني من أعمال أشق كانت على عاتق الجنود العاديين من الأميين، وكان غذاؤنا وتعييناتنا الرسمية مكونة من خبز ولحم وأرز وسمن وزيت وصابون، والصابون صلب لأنه صودي وليس بوتاسي رخو..

أبحرنا من (الإسكندرية) عبر بحر (الروم) وقد بدأت عادة تدوين مذكراتي، ربما حتى لا أنسى ارتباطي بالقراءة والكتابة، فبدأت تدوين طفولتي وما جرى في (المحروسة) من حوادث، وعندما وصلت لتدوين الأحداث الحالية توقفنا في (كريد) أو (كريت) للتزود بالمؤن، كنا بعيدًا جدًا الآن عن (قبرص) في الشرق.. أتذكر أنها سُميت هكذا نسبة للنحاس باللاتينية والذي كان يعدن بكثرة هناك، وفي (كريت) التي عرفها العرب بـ(إقريطش) والترك بـ(جزيت)؛ بدأت أفقد شهيتي تدريجيًا مع اقتراب كآبة رحى الحرب، بحيث أصبحت الوجبتان المعتادتان وجبة واحدة، والغريب أنها كانت مناسبة طيلة اليوم..

يقول (تميستكل) البطل اللاتيني القديم (البر لمن ملك البحر).. خالجت المقولة الفخمة خاطري عندما طلت علينا جزائر الأرخبيل شرق (اليونان)، وعندما جال بذهني كيف أن اليابسة مطوقة بعباب اليمّ المهول، اليمّ الذي لاحظ الأتراك كثرة زبده الأبيض فسموه بالبحر (الأبيض) وسماه الكتاب المقدس بالبحر (المتوسط)، بينما أفضل أنا اسمه العربي: (الرومي) أو (الروم). أثناء التوقف رأيت لأول مرة أكبر كمية جزر صغيرة وصخور يمكن أن أراها يومًا وسط هذا اليم العميم الذي لم نملكه كله بعد، ثم حدث شيء عجيب، حيث هاجمتنا النوارس وغربان البحر المزعجة بشراسة وجرأة غير اعتياديتين، بحيث إن قذفنا لها بما معنا ويمكن التخلي عنه لم يُجد

نفعًا، وذلك بعد أوامر اليوزباشي أول بعدم استهلاك الذخيرة وإطلاق البارود ولو مرة واحدة بغرض إفزاع تلك الطيور المثابرة حقًا، والتي كان هدفها الوحيد البيض المسلوق الذي نتناوله..

لم أكن أكره الطيور، فلسبب ما تذكرني بالملائكة، مع فارق السمو والعلو لتلك المخلوقات النورانية المكرمة، لكن الملائكة لا تسرق ولا تفعل الشر وهي تدعو لنا بالخير. يُروى أن بني (آدم) عُشر الجن، والجن وبنو (آدم) عُشر مخلوقات البر، وهؤلاء كلهم عُشر حيوانات البحر، وهؤلاء كلهم عُشر ملائكة الأرض الموكلين، وكل هؤلاء عُشر ملائكة السماء الدنيا، وكل هؤلاء عُشر ملائكة السماء الثانية، وعلى هذا الترتيب إلى ملائكة السماء السابعة، ثم الكل في مقابلة ملائكة الكرسي نزر قليل! أفلا تجد لك يا (محفوظ) في كل هذه الملائكة ملاكًا من الحفظة يقيك من الشرور المهلكة والخطوب المفتكة والمصائر الصاعقة؟

ثم وصلنا في مسيرنا إلى بوغاز (الدردنيل) ببحر (إيجة) وقتما بدأ تفشى بعض الأمراض بشكل محدود مع قلة الأطباء، وراح المرضى يتراصون بشكل محزن كئيب تحت السماء الرمادية، ثم وصلنا بحر (مرمرة) الرائق والذي زادت فيه أواصر صداقتي بـ(عبد القاسم) المتحمس، المربع الجسم والوجه، نحيل الشارب، مستدق العنق، أفطس الأنف، وأكثر من يمقت الصاغقول أغاسي (طاهر قبودان)، وبـ(إدريس) النوبي الأسمر الوسيم، دقيق الذقن، واسع الجبهة، غليظ الشفتين، نحيف البدن، خفيف الشارب، بديع الصوت والأفكار، وبـ(مجاهد) الفلاح العملاق، غليظ الملامح، أكرت الشعر، واسع الصدر، هائل الشارب، الذي يكن الولاء بالسليقة للسلطان ولا يعرفه إلا باسم خليفة رسول الله!

وبينما نتجاوز بحر (مرمرة) التركي، وقبل وصولنا ميناء (بيكوس) ببوغاز (البوسفور) ومن ثم الانضمام للسفن التركية لحراسة جزر الأرخبيل؛ اختلى رباعيتنا ذات ليلة صافية بمؤخر وابور البحر المعتبر (الجويليت صاعقة) بعد جولة تفتيشية صارمة لـ (طاهر قبودان) ومساعديه اليوزباشيان أول وثاني والطوبجي باشي، والدومنجي باشي (أحمد نظمت) ذي الأصل التركي وأقرب القيادات إلينا. وبصوت خفيض قال (عبد القاسم) بعد أن بصق في الماء:

ـ يبدو أن (طاهر قبودان) سيتلوى في نيران الجحيم كثيرًا بعدد المظالم التي أوقعها بالجنود، أعتقد أنني لو وصلت لموقف في الحرب، يحتم على أحدنا أن يضحي من أجل الآخر، سأزج به هو إلى الهلاك.

قلت باكتئاب نتج عن بدء فترة الكوابيس يومها:

ـ ألا لعنة الله على الحرب التي تجعل من الفلاح سفاكًا للدم.. قاتلاً.

قال (مجاهد) وهو ينظف بندقيته الفرنسية الضخمة مثله:

ـ لكنه شرف الدفاع عن الوطن، كنت أظنك محبًا لبلدك يا أخي (محفوظ).

تحسست ندبتي اللعينة:

ـ أي بلد هذا وأي وطن؟ أنا على استعداد لتقديم حياتي فداءً لـ (مصر)، لكن هل نقاتل في سبيل (مصر) أم في سبيل السلطان؟

لوح ببندقيته:

ـ وما السلطان الأعظم إلا خليفة رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبما أنه الخليفة فعلى المسلمين الطاعة.

ـ هذه قضية أخرى يا (مجاهد) لن يعجبك رأيي بشأنها، ولو عرفت شيئًا من تاريخ بعض الخلفاء الفاسقين لما انتابك الحماس بنفس الدرجة للسلطان، ولك أن تعرف أن الحضرة السلطانية تنغمس في المُلك والحكم والسياسة أكثر بكثير من الدين، لذا فلا أعتقد أنه خليفة حقيقي.. أفضل أن أكرر الدعاء المصري التقليدي الفطن: (يارب يامتجلي.. أهلك العثمانلي)!

ـ أستغفر الله العظيم!

هنا تدخل (إدريس) محاولاً ـ على نحو ساذج ـ تجميل موقفي، وكأنني أنا المخطئ الذي أحتاج للدفاع. في الحقيقة أظن أنني بدوت عاصيًا مارقًا في نظرهم.قال في كياسة:

ـ وها قد قرت عينك يا (مجاهد) بخدمة الخليفة، إن (محفوظ) له آراء سياسية قيّمة، ويبدو أن المحادثة غير طبيعية؛ لضيق (محفوظ) من شيء ما، أخبرني يا أخي تبدو غير مرتاح.. قلق.. هل يتعلق الأمر بحلم أول أول أمس الذي قصصته علينا؟

جرت كلمات (عبد القاسم) فضولية:

ـ وما هو؟ لم أكن موجودًا ولم أعرفه.

أجابه (إدريس) النوبي السمح:

ـ يعرف (محفوظ) درويشًا من مجاوري (الأزهر)، ويبدو أنه قد طُهّر وقُدّس حتى إنه ظهر في الحلم، وقد ضايقه ما رآه لأن الدرويش قال له: (تسير حثيثًا.. لفقد عزيزا، فادعو المغيثا.. تعد سالمًا) ويبدو أن الحلم قد عاوده.

قلت بهَم جاثم:

ـ ليته الحلم، على الأقل يؤانسني الدرويش الذي كفلني، لقد رأيت كابوسًا رهيبًا ما زالت أصابعي ترتجف له منذ استيقظت، تكرر مرتين بعد الحلم وقد حُفرت تفاصيله في ذهني حفرًا.

قال (مجاهد) بذات الفضول وهو ينفخ في ماسورة البندقية:

ـ ترى ما هو؟ خيرًا أخي.

ـ لا أعتقد أن عقلي سيطاوعني على تكرار تخيله، ولا أعتقد أن لساني لن يؤرقه إثارة خوفكم واكتئابكم بقصه.

قال (إدريس) بتوتر مسبق:

ـ يا إلهي! لهذا الحد؟

رفعت إليهم أصابعي ليروا بأنفسهم، فكأنها ذيول حيات الجرس التي قرأت عنها من فرط الارتجاف، وهذا رغم اعتدال وصفاء الجو، والواقع أنني لم أكن مبالغًا للغاية فيما قلت، فمن يحلم بأنه يُدخل رأسه في بطن أحد عبر سرته ملتهمًا أحشاءه حيًا، لا ينبغي أبدًا أن يخبره بما رأى أنه يفعله به..

لست أدري أي هول بهيم سألاقيه لكن مبشراته ثقيلة على الروح بالفعل، أعلم أنني أحمل شرًا مستطيرًا كأنه لعنة الشيطان، لكن حفظي لآيات القرآن والتزامي بتعاليم الإسلام الحنيف، يجعلانني

أتأكد بشعور يصل حد اليقين أنه ليس بسحر أو مس من الجان والأشباح، كما أنني أعرف يقينًا أن الحرب ستشتعل معاركها قريبًا جدًا، لكن ثقتي بالله وبنفسي صادقة وكبيرة، وسعيي أكيد وعزمي أمين للحرب من أجل (مصر) حتى ولو كانت حربًا غير مباشرة، فهي لصالح هذا الوطن، ولو أعلنت هواجسي وأفصحت بوضوح عن عدم اقتناعي بمغزاها.. وأعلم كذلك أن الأعمار بيد الله تعالى وحده، لكن ما يمر بي يشير إلى أن ما سأجابهه وقد أخسر بسببه سيجشمني غاليًا..

غاليًا جدًا..

عنّ لـ (إدريس) تغيير الموضوع الجديد، فقال:

ـ هل عرفتم ما فعله المارشال الروسي (باسكيفيتش) بعيدًا عن الخرافات التي يروجونها؟ أخبرني الباش ريس (مروان) أن المارشال العقرب أجبر (الموسكو) ـ الجنود الروس ـ على أن يحملوا خناجر صغيرة مسممة للانتحار إذا ما سقطوا أسرى أحياء، حتى لا يُسرّبوا أسرار (الروسيا).. أعتقد أن الموسكو سيجبنون عن ذبح أنفسهم.

ها هو بغيض آخر لا تنقطع الأخبار البغيضة التي تأتي عنه..

المارشال (باسكيفيتش) العقرب..

ورغم أننا جنود بحرية لابد أن نهتم بأخبار أمير البحر الروسي الأميرال (ناخيموف)، إلا أن أخبار (باسكيفيتش) القائد البري البغيض تتواتر أسرع حتى من أوامر (حسن باشا الإسكندراني) أمير البحر المصري الشجاع..

من الأحاديث التي أتذكر أننا خضناها كذلك، عندما قال (عبد القاسم) المحب للحياة بجذل، في ليلة تسبق هذه بما يقارب الأسبوع:

ـ ليت المرء يقابل في هذه النواحي جارية أوروبية حسناء، إنه احتمال وارد ويقال أن لهن سفورًا عجيبًا!

فردّ (إدريس) بهيام متذكرًا محبوبته السودانية الأصل:

ـ لسن أفضل من نسائنا الفضليات اللاتي لا يغادرن الحريم والديار.

فقلت له ببساطة:

ـ هل تعتقد أنه بهذا فقط سيكتسبن الفضيلة؟

قال ببساطة مماثلة:

ـ أعتقد هذا.. كل أمهاتنا وجداتنا وربائبنا كن محفوظات في البيوت.

تحسست ندبتي:

ـ أنا أعتقد أن العرب عمومًا لهم رأي متزمت تجاه النساء، ما رأيك يا (مجاهد)؟

قال (مجاهد) بثقة وحسم مطلقين، متكئًا على كعب بندقيته:

ـ أنا أرى أن خروج المرأة من منزلها يقرب من الرذيلة والكفر.

ـ هل رأيتم؟ هذا بالضبط ما أعنيه.. العرب يعتقدون أن المرأة هي فقط عورة لا ينبغي إلا أن تُغطى، غير هذا هي لا شيء آخر مهم.

بصق (عبد القاسم) في الماء، بينما لم أصرّح ببقية رأيي المهاجم لهذا الاعتقاد بالطبع، مكتفيًا بالمعنى الذي هو في بطن الشاعر..

في بوغاز (البوسفور) وأثناء توقف وابور (جويليت الصاعقة) للتزود بالمؤن والوقود وإجراء الصيانة الضرورية في الأول من أغسطس؛ ضبطني (طاهر قبودان) الربان إسلطوي السمج، ضخم الجسم رغم قصره، والذي يملك في إحدى كفيه ستة أصابع، وكشفني أسلم رجل البريد خطابًا إلى صديق المحروسة (شمس الدين برقوق) الذي سآتي على ذكر أيامنا وليالينا فيما بعد، وكان بيننا مراسلات، فأخذ الخطاب ونهر (البوستجي)، الذي فر هاربًا لينجو من التوبيخ، وصاح في شخصي بصلفه المعهود:

ـ أي حماقة أدت بك لاستخدام أحبار وأوراق بلوك الوابور كي ترسل بها الخطابات أيها الفلاح؟ هل جننت يا ذا الندبة؟

تماسكت في وقفة عسكرية متحاشيًا التقاء أعيننا وأنا أقول بهدوء:

ـ لم أكن أتصور أنني مستثنى من استخدام الأوراق سيدي القبودان.

مزق الخطاب، الذي أودعته تطورات رحلتي لصديق عمري آخر المماليك، بمنتهى البساطة، وهتف وهو يلقي البقايا في وجهي:

ـ ماذا؟ هل تعتقد أنك قادر على إنتاج أوراق عندما ينفد الرصيد ونحتاج لمراسلة عسكرية طارئة؟ هل يمكنك تحمل تخلف جويليت (الصاعقة) عن أداء واجبه على أكمل وجه من أجل بريدك العفن؟

ـ لا يا سيدي القبودان، وأعتذر عن عدم فهمي لكافة المحاذير، سيدي القبودان.

هنا التقت عينانا عندما واجهني مباشرة مقربًا عينيه الرماديتين الميتتين من وجهي، ورأت عيناه الشرستان المتغطرستان عينيّ الثابتتين القويتين، فاكتسته دهشة مستكبرة مستفظعة مستشنعة، ونثر رذاذه القذر في وجهي صارخًا:

ـ اذهب لابتياع مصائد للفئران من المدينة.

ـ ماذا أيها القبودان؟

ثم أشار إلى أذني بيده السداسية البغيضة:

ـ هل أنت أصم يا أمين البلوك ذا الندبة؟ أم تتظاهر بالصمم الأبله؟ رأيت فأرين لعينين في جوف (جويليت الصاعقة) وأريدك أن تغادرها لشراء المصائد، وتعود قبل الغروب وقت عود الإبحار.

ـ علم وسينفذ صاغقول أغاسي (طاهر قبودان).

يقول (نابليون بونابرت) الذي أنهى عصور (مصر) الوسطى بحملته، بادئًا عصرًا جديدًا:

ـ إن الإدارة الحسنة في (مصر) تكفل للنيل الغلبة على الصحراء، والإدارة المعتلة تكفل للصحراء الغلبة على النيل.

تراني أسأت الإدارة يا نيل؟

هكذا ابتعد وهو يسبني بأمي بتركية سوقية فجة، غير عالم ـ لا يعلم أي أحد في الواقع ـ أنني أجيدها جيدًا، وبقواعد الصرف كذلك..

نعت أمي الطاهرة بما لا يليق بشرفها وحسبها الذي يمتد إلى آل البيت..

كان نسخة من سطوة الوالي العَلوي صاحب القصور..

لكنه كان واليًا على (جويليت الصاعقة)، طاغية على طغمة من الفلاحين كما يسميهم محتقرًا، ويااليته علم كم حاز هؤلاء الفلاحون وأجدادهم من المجد والفخار، وكيف طردوا الغزاة وقاوموا من أجل طينهم الذي يحتقره السادة الأتراك، رغم أنهم لا يستطيعون الاستغناء عن نبته وعن محصوله، والآن ـ في الحرب ـ عن حرّاثيه وزرّاعه وفلاحيه المهضوم عرقهم، فقط.. أبدل فئوسهم بالبنادق..

وبينما يستغل أصدقائي (عبد القاسم) و(إدريس) و(مجاهد) جولتي في ميناء (بيكوس) من أجل المصائد المدّعاة، ليحولوها لجولة تجارية انتهازية مصغرة؛ لما عرفوه عن مهارتي في فترة تجارتي في (المحروسة) و(الإسكندرية)، وقد سلموني مالاً يقارب الكيسين لشراء بعض الاحتياجات والطعام المحسّن بدلاً من العدس والأرز؛ كنت أبتعد عن (جويليت الصاعقة) وفي عينيّ نظرة مقت هائلة للقبودان، ربما لم أرمق بها أحدًا مثله من قبل، مرددًا مقولة (عبد القاسم):

ـ أعتقد أنني لو وصلت لموقف في الحرب، يحتم على أحدنا أن يضحي من أجل الآخر، سأزج به هو إلى الهلاك.

وكانت تصاريف القدر أسرع من تخيلي، وربما أسرع من استيعابي وفهمي، حتى إنني حتى الآن لم أفهم لماذا وكيف حدث هذا الأمر العجيب في السوق..

فعندما دخلت السوق القريبة من رصيف ميناء (بيكوس)، كنت أفكر في طلب القبودان الذي لا يريد به سوى إذلال شأني تمامًا، وكنت أربط بين الفأر على (جويليت الصاعقة) وبين فأر آخر كانت لي معه في أيام طفولتي الأولى قصة كابوسية سأذكرها في حينها.. ثمة بائع مهلبية تركي يهتف بحماس:

ـ مهلّبيجي بيجي بيجي!

لكن بعد خطوات قليلة في السوق علق بصري بشجرة قديمة للغاية على جانب طريق السوق المزدحمة، كانت تميل ببطء فتفرق من حولها الباعة وهي تسقط ببطء شديد، غير ملاحظين أنها ستقطع في طريقها حتمًا ذلك الحبل المشدود بين عمودي خيمتين، وعندما بدأوا يتصايحون منبهين بعضهم إلى ذلك في أثناء سقوطها كان الوقت قد فات، فمزقت الحبل بقوة لتنهار إحدى الخيمتين التي فرّ من أسفلها بائع سكاكين وزبونة مذعورة، وتصورت أن الأمر سينتهي عند هذا الحد، لولا أن تدحرج من داخل الخيمة المنهارة عجلة للعرض، وُضعت فيها السكاكين بارزة الأنصال للخارج لتبهر الزبائن بحدة شفراتها، وكانت تتدحرج تجاهي وفهمت الجميع وهم يصيحون بي بالتركية أن أحترس حتى لا تصاب ساقيّ، والواقع أنني أسرعت وبمهارة في تفادي العجلة الكبيرة من قبل حتى أن يهتفوا لمتابعتي سلسة الحوادث تلك منذ البداية، لكني تراجعت لليسار الخالي بدلاً من اليمين ورائي، الذي كان به حانوت زجاجيات خشيت تكسيرها..

والمشكلة أن اليسار كان فم طريق جانبي صهل فيه فرَسان كبيران، وصاحبهما يحاول منعهما من ذلك الجندي المصري الذي تراجع بظهره فجأة وبرعونة في وجهيهما..

وبصدمة هائلة غاب الجندي عن الوعي ولم يدر ما يحدث حوله..

الجندي الذي هو أنا..

* * *

ألْق

وبخده ورد حماه بأسهم

عن قطفه باللحظ والإيماء

(أمين أفندي الزللي) مغازلاً في همزيته

6() الألبانيون مواطني محمد علي باشا.

7() (الآستانة): المدينة الوحيدة في العالم التي تقع في قارتين على مضيق (البوسفور) مطوقة مرفأ (القرن الذهبي)، كانت على مر التاريخ عاصمة للإمبراطورية البيزنطية المنشقة عن الإمبراطورية الرومانية، والإمبراطورية اللاتينية التي أسسها الصليبيون، والإمبراطورية العثمانية التركية الإسلامية. أسست تحت اسم (بيزنطة) قرابة عام ٦٦٠ ق. م. على يد مجموعة من الإغريق يقودهم الملك (بيزاس)، ثم سُميت بالـ (قسطنطينية) أي (مدينة قسطنطين) على يد الإمبراطور (قسطنطين الأول)، وظلت على هذا الاسم في عهد الإمبراطورية البيزنطية المسيحية حتى انهارت عام ١٤٥٣م في خاتمة العصور الوسطى، على يد السلطان (محمد الثاني) العثماني، وسُميت (إسلامبول) أي (مدينة الإسلام)، وفى العهد العثماني سُميت بعدة أسماء مثل (دار السعادة)، (الباب العالي)، (الآستانة) أي (عتبة السلطان). في عام ١٥١٧ قضت الدولة العثمانية على السلطنة المملوكية المصرية والخلافة العباسية، لتصبح (الآستانة) عاصمة الخلافة الإسلامية، وفيما بعد ستُسمى باسم يطلق عليها منذ القرن العاشر وهو (إسطنبول). (الابن)

8() مملكة (إيطاليا) بعد ذلك، تحديدًا عام ١٨٦١م. (الابن)

ملك جهان

عن (عبد الله بن سلام) قال: (مصر) أم البركات، تعم بركتها من حج بيت الله الحرام من أهل المشرق والمغرب، وإن الله تعالى يوحي إلى نيلها في كل عام مرتين.. وإن بلد (مصر) بلد معافاة وأهلها أهل عافية، وهي آمنة ممن يقصدها بسوء، من أرادها بسوء كبه الله على وجهه، ونهرها نهر العسل ومادته من الجنة، وكفى بالعسل طعامًا وشرابًا.

* * *

أيها الرحمن الرحيم. كان الكابوس هذه المرة طويلاً مرعبًا..

لقد التهمْتُ الكل..

كل من آبه لهم وأهتم بهم في هذه الحياة التي أصبحت لعنة مستمرة من الظلمات..

لماذا؟

لماذا لا آكل من أبغضهم؟ أكل الأحياء مقيت في جميع الأحوال، لكن سيبدو منطقيًا بمنطق الكوابيس أن يكون هؤلاء الملتهَمون من الأعداء على الأقل..

كان الكابوس دعوة صريحة للانتحار، قبل أن أكره نفسي الدميمة البشعة، وقبل أن يتحول ما فيه إلى حقيقة بشعة إلى أقصى حد..

التفكير ذاته فيما أحلم به يصيبني بالغثيان، وقد أفرغت جوفي أكثر من مرة كنت أصحو فيها عقب الكابوس بعد ذلك، فقد تكرر كثيرًا وكثيرًا.. ولولا أن الانتحار كفر محرم لما اكتفيت بمجرد ورود الخاطر، ولسعيت بدأب لإيجاد موت هادئ وسريع، وفكرت لو أنني انقسمت لاثنين، (محفوظ) وشخص آخر يعرف كل شيء عنه، لقتلته بلا تردد راحة له، فعلى الأقل عقوبة القتل أخف من الكفر..

غير أن الكابوس ـ للغرابة ـ امتنع عن مراودتي فترة من الزمن، هي ذات الفترة التي قابلت فيها (ملك جهان)، وكأنما استحيا أن يلوث روحي المغموسة في عبير روحها..

أو أُصيبَ بطرد طبيعي عندما فقد القدرة على محاربة البهاء عينه..

أو تلاشى تمامًا ذائبًا أمام السحر ذاته..

كانت أجمل أيام عمري كله، وواحة الجنّة وسط صحراء حياتي المتلاطمة الأمواج..

أيام يخجل فيها الشيطان من تدنيس محراب قلبي، الذي تفتح كزهرة (عباد شمس) أسرتها شمس أخرى لا تؤذي اسمها (ملك جهان)..

يبدو أن إصابة دماغي كانت جسيمة بحيث ظننت أنني في (الفردوس) الأعلى، وقد كافأني ربي سبحانه بحورية متوردة، عندما فتحت عينيّ لأجدها تطببني عند دماغي المشجوج بحدوة حصان، حصان ظللت ممتنًا له طوال عمري..

وكالمغيب الذي صحا من غيبوبة عقلية ليسقط في غيبوبة فردوسية، سألتها أول ما سألتها، وقد أضحى لساني لسانًا آخر، وانسل قلبي ليسكن في جسد آخر:

ـ ما اسمك أيتها الحورية؟

تبسم ثغرها عن بسمة لو اطلع عليها العثمانيون لأجلوا الحرب خجلاً، ولو رآها الروس لتنازلوا عن (والاشيا) و(مولدافيا) عن طيب خاطر. إكبارًا لجمال يسكن هذه الأرض التركية. بسمة اختلج لها قلبي اختلاجة ذكرتني بمكانه الأساسي، وخفقت لها روحي خفقة أعادتني مجددًا لموت مؤقت يسميه الحكماء الغيبوبة..

لقد كان إحساسًا تذوب له الكيانات، إحساس عجيب هو كأنه يوقظ فيك تذوق الجمال، أو الغوص في البراءة، أو الانفتاح على الطهر عينه. إحساس يجعلك أقرب وأكثر استعدادًا لتصور الملائكة الأبرار. إحساس يخيل إليك أنك كنت تنتظر طوال عمرك. يفسح المجال لحاسة السمع والرؤية على حساب شهوة الكلام. إحساس يذهب بك بعيدًا ويعطيك عمرًا جديدًا، فلا تريد بعده أن تبتعد عن معطية هذا الإحساس ثانية واحدة، أو أقل من الثانية لو اخترعوا يومًا شيئًا كهذا..

لم أكن أعرف فتيات أكثر من عدد أصابع يدي الواحدة، شقيقاتي الثلاثة؛ (زينب) كبرى الأخوات، البدينة طيبة المعشر، و(فاطمة) شديدة النحول كثيرة الضحك والنكات، و(جليلة) الطباخة الماهرة التي لا تفارقها روائح البصل والمطبخ، رحمهم الله جميعًا؛ ماتوا في أسبوع واحد مع أشقائي الأربعة الآخرين. والأمة الزنجية (زهرة) من (السودان) بسوق جلابة العبيد، والتي طلبتُ منها قليلاً من المساعدة في الوكالة في طفولتي، لكن العبيد أفسدوا محاولة عملي. وأخيرًا (كاترينا) الإسكندرانية جارية الحاج (رفاعي)، الذي عملت معه في مجال العطور، وكانت كفيفة لكنها لا تصطدم بأي شيء في المنزل، وتجيد كل الأعمال المنزلية ببراعة مدهشة.. غير أن صفات كالبدانة والنحول وفوحان رائحة البصل واللون الأسود وكف البصر، لم تكن في نظري تقبح الفتيات أو تجعلهن أقل درجة، الواقع أنني لم أكن أعرف من الأساس أن هذا يمكن أن يجعلني أمقت فتاة، لأن جميعهن كن طيبات ودودات لبقات بارعات في مكانهن الطبيعي، كما أن ندرتهن في حياتي وتواصل المحن والمصاعب كان يصرفني عن التفكير مليًا في هذا، لكن هذه المرة كان الأمر مختلفًا، وكان للجمال حضور وسحر ومغزى ومعنى وقانون وسيطرة ووطأة..

فجأة أصبحت شاعرًا خبيرًا في قياس وفهم الجمال الرباني، وعندما فتحت عينيّ في المرة الثانية ـ وكل هذا وأنا لا أعرف أصلها وجاهها ومكانتها ـ رأيتها على هذا القرب، بثوبها التركي الأنيق وتنورتها الواسعة، وياقتها المنتصبة في أناقة، وأكمامها الموشاة الرائعة، وكسوة رأسها من التُّل الأبيض الناصع، وضفيرتيها الكستنائيتين المربوطتين بشريطين ذهبيين..

كانت تمتلك جبهة شفافة بيضاء بياضًا لا شية فيه، وعينين كبحيرتين لؤلؤيتين سوداوين من سحر قديم، تحمل إليك مشاعر دافئة، ومرحًا طفوليًا، وصدقًا نبيلاً، لها رموش كثيفة الأهداب كسعف نخل يظلل اللؤلؤ الأسود، وتحت العيون الأخاذة ترتفع قبتا خديها الطريتان الورديتان بطبيعية، الناعمتان كحرير من فوقه حرير، يشق الحرير والكتل الطرية أنف صغير كنواة بلحة مستقيمة، ينتهي بأرنبة كالعنبة التي تشتهي أكلها، تبرز أسفل كل هذا شفتان بضتان مشققتان كشقي ثمرة فراولة، يخرج من بينهما صوت ناعم مرهف كلحن سماوي، عزفه ذات يوم (داوود) على أحد مزاميره..

شعرت حينئذ أن شيئًا ما يعمل في مخي، لا أدري ما اسمه أو إذا كان بالأساس هناك شيء كهذا، لكنه بدا لي كمركز حاسة الشم لكل روائح حياتي الزهرية الفواحة، وقد تمحور وبث فيّ روائح كل عطور ومسك وزعفران وطيب حانوت الحاج (رفاعي) الذكيّة بالذات، وكأنني أشم هذه العطور

والروائح المدهشة الطيبة المنعشة جملة واحدة، وفي وله متيم أصابته صاعقة العشق مبكرًا، وغشيته نسائم حب استقر بمكنون فؤاده ـ وكيف لا وهو يطالع من ليس لها شبيهة أخرى في الأرض، زمردة بشرية نادرة فريدة ـ سألتها بالتركية هذه المرة:

ـ ما اسمك يا حورية؟ أم أنني لست في جنة (عدن)؟

لم تبتسم هذه المرة لكنها قالت بكلمات باسمة، ووجه طلق بطبعه ضحوك الخلقة:

ـ لكنك لن تخبر تركيًا باسمي.

قلت بإخلاص فاق كل حد، وصدق أتيت به من بحيرة الصدق الكونية:

ـ لا أفعل والله.

ـ (ملك جهان).. هل تعرفني؟

فهمت.. إنها تختبر ذاكرتي، وقد بدا لي أن أتمادى وأدعي نسياني لكل شيء فيما عداها، على أمل أن يطول ربما أمد حضورها البديع، لكن سائل الصدق كان مايزال يخامرني، فأجبت:

ـ أظن أنك التي دهمتني بعربتها.

ـ فقط؟

ـ لو أنتِ هي فهذا ما أريدك أن تعرفيه.. لأنني لم أفقد ذاكرتي بعد.

تنهدَت في ارتياح غامر لم أفهمه وقتها، ثم منحتني سهم الابتسامة الذي عاد ينتهك قلبي بعنف، معجبة بذكائي وسرعة بديهتي فيما بدا، ثم نادت جاريتها بلهجة آمرة مسكرة لآذان الرجال:

ـ (آيت).

هنا بدأت أنتبه إلى المكان الذي أنا فيه لأول مرة. يصعب الالتفات بعيدًا عن عينيّ (ملك جهان) لتفقد أي شيء آخر، حتى لو كان هذا الشيء السلطان (عبد المجيد الثاني) شخصيًا! يصعب ترك النور للبحث عن دياجير الظلمة، يصعب ذلك بشدة حتى يبدو كأنه مستحيل، لكني أجبرت نفسي بقهر وانتزعت عينيّ انتزاعًا، فوجدتني في كوخ أنيق من خشب الأرز الممتاز نصف الخشن، تحيطه أشجار سامقة تميز منطقة (البوسفور) الرائعة، بينما أتمدد على فراش بسيط صغير من البلوط الأملس عليه حشية طرية مناسبة من القش، ولكن لا شيء يدل على هوية آسرتي سوى أنها تركية ثرية..

وبسمو ونبل يليقان بها طلبَت منها أن تقص عليّ قصة العرافة، فانتشلت ناظري بصعوبة من وجه (ملك جهان) انتشال الرماح من الأرض الصخرية، ونظرت للفتاة الجميلة المتمنطقة بنطاق موشى ظريف، والتي لم يفلح جمالها الطبيعي الأخاذ في التفوق على فتنة وسحر (ملك جهان)، من ثم قالت لي (آيت):

ـ ذات مرة التقت بِكر تركية بعرَّافة هندية في أحد الأسفار، ولقد طلبت منها الفتاة أن تحدد لها مواصفات حبيب المستقبل، فقالت لها العرافة: تلتقين بمصري تدوسينه بأقدام غير قدميك، يحمل حجابًا، له ندبة في عينه، وبداخله قوة كبيرة، تحبينه ويحبك ولا تتزوجان؛ لموت أحدكما قبل الآخر.

قلت محاولاً أن أكون لطيفًا مهذبًا:

ـ قصة ظريفة آنسة (آيت).

ـ لكن كما ترى؛ فالصفات تنطبق عليك، وكانت الفتاة هي تلك التي أمامك.

التفتّ إلى (ملك جهان) التي أشارت إلى حجاب الدرويش المعلق في عنقي، ثم الندبة بحاجبي وقالت:

ـ ذانِ الحجاب والندبة، بالنسبة للأقدام التى هى غير أقدامي فكانت سنابك الجوادين. أما المصري؛ فكان سؤالك الأول باللغة العربية التي تعرفها (آيت) يدل على انتمائك، تتبقى قوتك الكبيرة التي لم تكن جلية بدرجة كافية عندما صدمتك العربة.. لكن ياللخسارة سيموت أحدنا قبل الآخر.

انقبضت مع ذكر قوة الشر الفعلية ـ التي سأذكرها في حينها ـ بداخلي، ولوهلة لم أستوعب صدقها من عدمه، ظننت أنها دعابة تركية سمجة، لولا أن فكرت مليًا في احتمال تصديقها لنبوءة العرّافة، فاستدرجتها لنقطة مما سمعت متسائلاً:

ـ هل قالت العرّافة أن المصري سيحبك و.. ستحبينه؟

قالت (آيت) بلهفة:

ـ نعم.. هل تعتقد أن الصفات تنطبق عليك؟

بينما تضرج خدا (ملك جهان) بحمرة خجل واسعة الرقعة مع فهمها لما ألمح إليه، وعاد قلبي يخفق بلا رحمة مع هذه الحمرة الكرزية المتوردة المتلألئة، لكنها أسرعت تقول لتخفي خجلها، سبحان من أوجده:

ـ هيا أجبها.

قلت مبتسمًا بحب فياض:

ـ يبدو أن المصري سيقع في الحب بالفعل، لكن.. آه.. يبدو أنه سيموت أولاً، وعلى السائلة أن ترعاه حتى لا يقضي نحبه، وأن تكمل عطفها ورحمتها وتفضّلها في عملية إنقاذه حتى نهايتها.

قالت (ملك جهان) بخبث طفولي زادها براءة وعذوبة:

ـ حسنًا.. (آيت) هي السائلة.. طبّبيه يا (آيت).

ثم نهضت وهي تهمّ بانصراف مصطنع، شعرت معه بلوعة حقيقية أقرب إلى الجزع وأنا أستوقفها:

ـ لكنك صاحبة النبوءة.

شعرت بلوعتي بحاستها الطاهرة، فارتفع طرفا حاجبيها الداخليان بحنان أذابني، ثم ابتسمت بشفتيها الجميلتين وأسنانها البراقة، قائلة بدلال أنثوي مرح ماد له فراشي المسكين:

ـ حسنًا، سأطل عليك باستمرار يا... لكنك لم تخبرني باسمك حتى الآن أيها المصري؟

ـ (محفوظ).. اسمي (محفوظ النحّاس).

ومر يومان شعرت في ساعاتهما ودقائقهما بروحي ترفرف خارج جوانبي بسعادة، رغم شعوري أن هنالك شيئًا ما خطأ، أو شيئًا ما منسي على وجه الدقة..

لكن (ملك جهان) ملكت عليّ كل شيء، فكنت المولود الذي ليس وراءه ماضٍ أو ذكرى، المولود الذي وُلد للتو.. جديدًا نظيفًا مقبلاً على الحياة، وقد استبدل ببكائه ضحكات وردية مشرقة..

(ملك جهان)..

هذا اسمها..

تمنيت أن أخترع لغة تتكون من كلمة واحدة هي ذاك الاسم..

فلا أرتل إلا بها.. ولا أتلو إلا اسمها..

مر يومان من الهيام ازداد فيه حبي لها حتى غطى الآفاق، يومان غمرتني فيهما بنظرات حنان أغلى عندي وأثمن من الدنيا وما فيها، وحب بريء جعل حالي غير الحال ودنياي غير الدنيا، فلا أنام حتى لا أنسى رائحتها وصوتها، وإذا ما غلبني النوم لسويعات لا أحلم إلا بها، بجمالها الحالم ودعاباتها المرحة ولمساتها البريئة، كانت تملك عقلاً جميلاً، وروحًا فاتنة، وأخلاقًا شفافة، وكلمات صافية، وصوتًا منغمًا، وقلبًا كريمًا، ووجدانًا سمحًا..

في اليوم الأول شفي الجرح نهائيًا، لكني لم أكن راقدًا من أجل جرح دماغي، بل من أجل جرح آخر أصاب كل الشر والسواد اللذين أعرفهما جيدًا، وفتح لي عالمًا آخر رحت أنهل منه بشراهة.. عالم الحب الصادق الطاهر البريء العذري..

ورغم الطهر النوراني التام، إلا أننا للحظة كدنا أن نتذوق اللذة، كل نظراتنا في تلك اللحظة كانت تهتف بالكثير من الحب والشهوة والعشق، كدت أن أنساق لرغبتي ورغبتها، وكدت أن أخالف كل شيء من أجلها، كدت أن أهمّ بها وتهمّ بي، لكن أخلاقي وأخلاقها منعتني من المبادرة الذكورية، كانت الأخلاق سدًا منيعًا ضد هذه المتعة من متع الحياة، حتى إنني تساءلت متفلتًا من تحفظي، وببعض النزوع الأخرق نحو التفلسف: هل الأخلاق نفي للحياة؟ تأكدت أن الأخلاق ضد الدنيا.

في العصر كنت أتوسل لـ (آيت) كي تسر لي بشيء يتعلق بـ (ملك جهان)، وكانت تعجب وتضحك وتتظاهر بعدم الفهم، حتى رقت لحالي ورغبتي الصادقة وتوسلي الحقيقي، وأخبرتني أن (ملك جهان) سيدتها وسيدتي تحب التوت الأسود، وتحديدًا ذلك الذي يتعرض للشمس بأعلى الأشجار، والبعيد عن الحيوانات والطيور والحشرات، لكن التقاطه ينطوي على مخاطرة، فحزمت أمري وتسلقت الشجرة القريبة ذات العشرة أمتار، وقد أعطاني الله قوة مباغتة، وجلبت لها بعض التوت المشمس، وعندما زارتني في الكوخ تفاجأت عندما أعطيتها التوت، ونظرت لي بحب اختلج له قلبي اختلاجته الخاطفة المزلزلة، ثم ارتسمت في عينيها مسحة حزن عابرة، أسرعت تخفيها بضحكة مفتعلة، وهي تأكل البعض:

ـ أنت لم تسترد عافيتك وحسب، بل وازددت قوة ونشاطًا أيضًا حتى تحضر هذا التوت.. إنها (آيت) الثرثارة لا ريب.

لكني لم أنس لمحة الحزن فسألتها وأنا ألتقط يدها، واحتضنها بحنو بالغ بين كفيّ:

ـ لقد تذكرتِ شيئًا.. ما أحزنك؟

زمت شفتيها وبدت أنها لن تقول شيئًا، لكنها استسلمت أمام نظرة الرجاء والحب:

ـ كان هذا منذ زمن.. في أثناء تجوالي في المرج، وجدت عصفورًا كسير الجناح، كان جميلاً للغاية، برتقالي الرأس ومنطقة الصدر والبطن والذيل الدقيق، بينما يكسو جناحيه ريش أزرق براق، وكان يبكي بتغريد متقطع، ولا يقوى على الحركة، أخبرني (محمود أفندي) الحوذي يومئذ أن هذا النوع من الطيور الصغيرة يتغذى على التوت والبذور، فجلبت له بعض التوت فلم يأكله على الفور، فغنيت له وأنا أطببه وأجبر كسره، وتناولت من التوت مشجعة إياه، فأكل قطعة صغيرة جدًا، ففرحت وأكلت المزيد فأكل المزيد، ومنذ هذا اليوم وأنا آكل الطعم الحمضي الحلو، لكن المسكين رحل في اليوم التالي.. استيقظت لأتابع حالته فوجدته ساكنًا، منقلبًا على جانبه مثني الساقين منفرج الأصابع، غنيت له فلم يستيقظ.. فعرفت أنه مات.

لم أصدق أذنيّ! ليس من أحداث القصة القصيرة العادية، بل من قلب هذه القديسة غير العادي.. أي حنان هذا؟ في أي دنيا أنا؟ قلت بلا وعي:

ـ ليتني كنت العصفور حتى أحظى بهذا الحب.

فقالت بلا تردد:

ـ أبعد الله الشر عنك يا (محفوظ).

ثم شرعت تغني لي كما غنت للعصفور الكسير، فكان أحب إليّ أن أموت الآن وفورًا وأفنى إلى الأبد وسط هذه الألحان السماوية، يومًا ما حدثني الدرويش الصوفي عن معنى الفناء في الحب، الآن فقط أستوعبه بالكامل وأتمناه..

وفي اليوم الثاني وصلت لمرحلة لم أعد أفكر فيها في الغد، أصبح المستقبل شيئًا واهنًا شبحيًا لا يحمل إلا صورتها، وصلت لتمني بقاء اللحظة إلى الأبد، ياله من خاطر عجيب جدًا هذا، لكني قد تمنيت أن يتوقف الزمن ويبقى الوعي.. نعم.. لست أدري هل فكر (أفلاطون) و(أرسطو) و(نيوتن) يومًا في هذه الفلسفة الجنونية أم لا، لكن لم لا أفكر مجرد التفكير في هذا؟ ربما يجدون يومًا وسيلة عبقرية تُمكّن من إيقاف اللحظة، حتى أبقى إلى أبعد مدى بجوار من سلم لها قلبي مفتاح مدينته، وفتح لها كل بوابات أسواره الرمادية، ولوّن الأبراج بألوان النرجس والفيروز، وعطّر الشوارع بالعنبر وزيت الزيتون، ومهّد الثرى بأوراق الريحان وباقات ورد النسرين الصابح..

يقول (ابن حزم) كأنه يراني ويعرف حالي:

ـ ومن علامات الحب أنك تجد المحب يستدعي سماع اسم من يحب، ويستلذ الكلام في أخباره ويجعلها هجيراه، ولايرتاح لشيء ارتياحه لها.

لو كانت (ملك جهان) صحراء شاسعة فأنا تائه فيها سعيد بتيهه..

لو كانت (ملك جهان) محيطًا ضخمًا فأنا غريق في عبابه يتبسم..

لو كانت (ملك جهان) غابة وارفة فأنا سائح فيها يحتطب راضيًا..

لو كانت (ملك جهان) تلاً مخضرًا فأنا راعٍ فيه ينام ملء جفنيه..

لو كانت (ملك جهان) فضاءً سرمديًا فأنا أسبح وسط نجومه بلا كلل أو ملل..

هي عسل أبيب، وورد برمودة..

لا ريب أن ملاكًا ما من هذه الملائكة الكثيرة، التي سبق أن حدثتك عنها، يحمل نفس الاسم (ملك جهان)، ربما يكون أجمل لكنه على الأقل لن يمكنني محادثته، والإسرار له بحلو الكلام، والإنصات لعذب حواره، ربما لا يمكنه لمسي وتطبيبي كما تفعل هي بمهارة، وهي تشعر أن ما بي ذنب هي جنته..

إنها لا تعرف أن هذا ذنب جنته بالفعل، مع فارق أنها اقترفته عندما لقيتني وتركتني مريضًا بداء العشق، وأنا لا أقوى على داء العشق وداء الحب وداء القلب.. إن ذنبها الفعلي هو انتزاعها لشغاف قلبي بين أصابعها المرمرية، ولتتطهر من ذنبها لا يسعها إلا تشريفي بزيارة محراب روحي، والارتباط بمسار عمري..

وياله من عمر..!

ترى هل تصدق العرّافة وينقضي العمر دون أن أتزوجها؟ هل أموت الآن بسبب إصابة دماغي؟ وقبل معالجة إصابة قلبي الأسير؟

أم أموت في أوزار الحرب؟

الحرب!!

ياللهول!!

لقد تذكرت الآن فقط الحرب.. والبوغاز.. ووابور (جويليت الصاعقة)..

و في هلع ـ بعد اليومين ـ قلت لها وأنا أتحامل على نفسي وأغادر الفراش:

ـ (ملك جهان).. ما بي من سقم في قلبي وليس رأسي، وهاهو قد أنساني نفسي، أنا أحبك.. أحبك من قبل أن أولد.. لكن منذ يومين كنت قادمًا من سفينة حربية، ستشارك في حملة (الآستانة)، ولابد أنها قد أبحرت، وينبغي أن ألحق بها في التوقف التالي بجزر (الأرخبيل).

قالت بدهشة:

ـ منذ يومين؟ لكنك هنا ـ بعد حادث عربة السوق ـ منذ شهرين!

اتسع فمي في بهوت، وغمغمت ذاهلاً عما حولي:

ـ ماذا؟

كان قد مر شهران بالفعل في غيبوبتي المجزأة. فجوة زمنية بداخل ذلك الكوخ الذي لا يعلم أي إنسان بوجودي فيه سوى الفتاتان والحوذي. شهران. عرفت فيما بعد أن جويليت (الصاعقة) قد أبحر خلالهما بدوني بعد اتهامي بالخيانة والهرب من الخدمة، وهي تهمة تكفي لإعدامي بلا إبطاء. ولقد سعى الصاغقول أغاسي (طاهر قبودان) لإثبات التهمة عليّ، باعتبار أنه كلفني بمهمة عسكرية خالفتها عامدًا متعمدًا، بل وادّعى أنني سرقت أموال زملائي ليفقد بذلك وإلى الأبد علاقته باسمه.. (طاهر)..

ولقد انضمت السفن المصرية بما فيها سفينتي والفرقاطتان (رشيد) و(شير جهاد) ـ وهي من سفن (محمد علي) الأولى. شير بالفارسية تعني أسد ـ وبقية السفن إلى السفن التركية لحراسة جزر (الأرخبيل)، وكان الجيش المصري البري الذي أنزل من السفن قد عسكر بوادي (أنكيار سكيلاسيه) البديع منتصف أغسطس، في ذات الموقع الذي عسكر فيه الجيش الروسي، عندما كان

متحالفًا مع الأتراك ضد الجيش المصري، بقيادة (إبراهيم باشا). الآن بعد أن انقلبت الآية زار السلطان (عبد المجيد) المعسكر المصري بدلاً من المعسكر الروسي. ثم أبحرت السفن إلى الشمال حيث (فارنا) أقصى غرب (البحر الأسود)، وأقلت الجيوش من هناك إلى نهر (الطونة) على حدود (والاشيا)، والتي انقسمت إلى ثلاثة ألوية؛ في (سلسترة) حيث (طابية العرب) حصن المصريين، وفي (شوملا)، وفي (بابا داغ)، ولما لم تنسحب القوات الروسية من (والاشيا) و(مولدافيا) أعلنت الدولة الحرب على (الروسيا) ٤ أكتوبر ١٨٥٣ كما تقدم..

وبعد وهلة صمت مذهول أعقب تصريح (ملك جهان)، وفي مرارة بائنة، قلت بحب معذَّب لحبي المعذِّب، وأنا أرتدي سترتي العسكرية، التي كانت مع البندقية هي وبقية أشيائي تحت الفراش:

ـ سنلتقي ثانية يا (ملك جهان).

قالت (آيت) وهي تتراجع لآخر الكوخ:

ـ سيتأذى الحوذي إذا ما رآك أحد، وعرف أنه كان يتستر على وجودك ولم يبلغ عنك.

ـ فليذهب الحوذي إلى الجحيم.. لن أتخلى عن الوطن.. هذا إذا كنت منذ البداية أحارب في سبيل الوطن عينه.

مزقتني (ملك جهان) الملائكية بألف سيف وسيف، عندما مدت يدها الطرية الرقيقة قائلة بحزن:

ـ هل ستتركني؟

ارتسم الألم والعذاب على وجهي، وضاق حلقي بغصة كبيرة، وأنا ألتقط راحتها الممدودة نحوي بين كفيّ، وأجبتها بعينيّ فقط..

لم أكن بحاجة لحوار صوتي من أي نوع..

دومًا لم يكن الوجد بحاجة للغة لسانية ما، أو احتاج العشق ـ بإلحاح ـ لكلمات منطوقة عبر الشفاه، فقط العين يمكنها أن تبوح بألف حرف وحرف، تبوح بشعر النسيب في بث الهوى للحبيب..

فقط نظرتُ لها ونظرت لي..

قالت بعينيها المغرورقتين لن أنساك..

فقلت بقلب ينزف دموعه الخاصة سنلتقي..

منها: سأنتظرك..

مني: لن أتخلى عنك..

منها: سأشتاق إلى صوتك..

مني: سأشتاق إلى بسمتك..

لم أشعر بـ (آيت) وهي تنسحب لإحضار الحوذي مستغلة ظلام الليل، ولم أسمعها وهي تدعوني للذهاب معه، فهمتها دون أن أسمع نبراتها، وقد حال اتصال بصري ببصر محبوبتي بيني وبين العالم، حتى وأنا أغادر الكوخ غادرته بظهري، حتى لا أفارق عينيها لآخر لحظة..

أعطتني منديلها الوردي الشفاف قبل أن أبتعد عنها، وهمسَت آخر ما سمعت:

ـ (محفوظًا).. ستكون محفوظًا.

و ركضت بي جياد الأمس التي كنت أثني عليها. لكن الآن ما أقساها حيث تبعدني عن كل شيء، عن أشجار الحب السامقة.. وكوخ المُنى القابع.. وفراش الحياة الوطيء.. وعن (ملك جهان).. موسيقا الفرح.. ونبتة السعادة..

ونهر البسمات..

كان ابتعادًا جديدًا، لكنه أقسى ابتعاد إلى أقسى متاعب في أقصى الأرض..

* * *

ذِكر سانت جيرمين

عن (كعب) قال: في التوراة مكتوب (مصر) خزائن الله كلها، من أرادها بسوء قصمه الله.

* * *

القارئ الأول لسيرتي؛ ولدي (محفوظ)، سيندهش لا ريب، فرغم أنني حاولت السماح للحوذي الكهل (محمود أفندي) ـ كما ينادونه بالتركية ـ أن يعود لسيدته وسيدتي، على الأقل حتى لا أتذكر حبي الممزق لها، الذي كوّنته أيام قلائل، وذلك كلما نظرت إليه، إلا أنه كان يتشبث برفقتي وقد حصل على أمر حانٍ لا جدال فيه من سيدته، ألا يفارقني حتى أصل لإحدى سفن الأسطول، وهو يطمع في أن تنفذ (ملَك جهان) وعدها أن تعالج ابنته المريضة بالسل على يد أفضل الأطباء، وهكذا اصطحبني إلى سفينة بضائع تركية، ستنتقل إلى شرق البحر (الأسود)، ولعلها تلتقي بإحدى سفن أو فرقاطات الأسطول المنتشرة، ورحب بي قبودان السفينة التجارية وبسلاحي باعتباري أحد محاربي الإمبراطورية العثمانية، وعهد إليّ بالحراسة حتى نلتقي بإحدى سفن الأسطول، بعد تبادل حديث قصير مع (محمود أفندي) لم أسمعه مع اشتداد ريح (أكتوبر)، ولم أسأل عنه، وأنا أركز في الابتهال إلى الله سبحانه وتعالى كي نصادف جويليت (الصاعقة) نفسه..

لكن ما حدث خالف كل توقعي بهذا الشأن..

ذلك أنه بعد رفع أشرعة السفينة والإبحار، وكنت قد وجدت علم الوطن ضمن أقمشة ورايات السفينة المطوية المعدة للبيع، فاشتريته وكتبت عليه ـ وفي حضن الهلال الأبيض ـ (اذكر الله)؛ الكلمة التي كانت على باب داري القديمة العزيزة في (الأزبكية)، ورفعته تفاؤلاً على صارٍ من صواري السفينة وسط بقية الأعلام التركية، لم تمض ثلاث ليالٍ في عمق البحر (الأسود) حتى استحق البحر اسمه عن جدارة..

لقد اكفهرت السماء واكفهرت معها روحي المبتئسة، وبدأ نقل البضائع إلى جوف السفينة حتى لا تفسد إذا ما هطل المطر، فكان الرجال ينامون على سطحها وسط موجة برد قوية، بدأ معها ألم ندبة حاجبي الأيمن في التصاعد، وهي الندبة التي أصبت بها في طفولتي، وأخرجت من بنطالي طاقية كان صديقي (شمس الدين برقوق) قد أهدانيها، لبستها لإضفاء شيء من دفء قليل، و(محمود أفندي) يرتجف قائلاً:

ـ يبدو أن البرد سينخر عظامنا.

وقد كان عندما وبلت السماء وابلها..

لقد بدأ كلٌ من البرق الساطع والرعد القاصف في الوميض والدويّ، وهطلت أمطار مائلة بسبب الرياح المثلجة القوية، تخللتها أحزمة من البَرَد، وارتفعت الأمواج حتى بلغت قممها سطح السفينة، فكان بعضنا ينزحها والبعض الآخر يصنع بالأجساد حاجزًا كي لا تصل مياهها المالحة إلى البضائع فتتلفها، واستمرت الأمواج هادرة صاخبة ثائرة طيلة الليلة الأولى، وقد ألقت علينا وحوشًا مائية كثيرة، كنا نصطاد بعضها ونضع عليه الملح ونرد البعض الآخر، في حين يعضّنا البعض الثالث محاولاً استغلال الفرصة ليعكس الآية جاعلاً منا نحن الفرائس..

وفي النهار أراحتنا الأمواج عن ضرب أجناب وسطح السفينة، لكن المطر لم ينقطع وصرخت ندبتي التي تزعجها البرودة من الألم، وفشلت كل محاولات إشعال نار للتدفئة، فكنا نتراص مكوّنين كتلاً جسدية متلاحمة، ونغطي هذه الكتل بالوبر المكسو بالأردية الشمعية، في محاولة لبث الدفء قبل أن نتجمد في منتصف النهار، حتى أن خواطر سوداء كانت تداهمني عن سفينة شاردة تجمّد ركابها، بعدما وجدوها على أحد الشواطئ ووجدوني فيها متجمدًا، وقد تكسّر جسدي المتيبس من الارتطام العشوائي إلى ستة أجزاء..

وواصلت السفينة جريانها وهي تسري فوق الموج..

في الليلة الثانية للعاصفة بدأنا نشاطًا جديدًا مكثفًا في الكفاح ضد الأمواج المشرئبة العاتية، وأثناء الحركة والاحتكاكات فقدتُ حجاب الدرويش الذي أوصاني بحمله ليدرأ عني الشرور، فحزنت كثيرًا لكني كنت أتذكر نصيحته الأخيرة في الحلم (ادعُ المغيثا.. تعد سالما)، فكنت أبتهل للمولى أن ينجيني من هذه المحنة، وصليت قيام الليل ودعوت و(محمود أفندي) يؤمِّن. وعندما غلبني النوم بعد الإرهاق العنيف، عاد الكابوس يداهمني بعد توقف دام أكثر من شهرين، هذه المرة كان أبشع من كل المرات السابقة، وكأن وتيرة شيطانيته ولعنته تتزايد بلا رحمة، لقد كنت أعود لالتهام البشر أحياء، هذه المرة ضحيتي المقيدة بلا حول كانت (ملك جهان) ذاتها، وقد بدأت ببشاعة بالتهام ثدييها الناهدين، فاستيقظت صارخًا بكلمة واحدة طويلة.. (لاااااا)..

لم يهتم بي أحد في النهار الباهت الكئيب مع تقسيمنا لورديات بين الصحو والنوم، كانت الصاحية منها لا تنفك تزاول أعمال النزح والإبحار وتأمين البضائع استعدادًا لليلة الثالثة للعاصفة، مما زاد همي ومرارتي.. فقط (محمود أفندي) سألني عن صرختي فقلت له:

ـ إنني لست كما أبدو يا (محمود أفندي)، إن بي شرًا وسوادًا لو وُزع على العالم، لفاض عن حاجته.. إن الإنسان عقل ووجدان وروح وجسد، فإذا ما صح الجسد وتكدر الباقي فلا يمكن اعتبار الإنسان حينها حيًا.

عانقني مهدئًا فاستسلمت لحضنه الأبوي الذي ذكرني بحضن أبي رحمه الله، وحضن الدرويش الذي كفلني بعده، وأنا أفكر في بشر آخرين، يحيون في أراض خضراء ولهم أبناء من أصلابهم، هم لهم قرة أعين يلعبون معهم ولا يتركونهم لبراري الحياة الوحشية..

هل هناك أحد يحيا هكذا؟

بعيدًا عن الأمطار والأوبئة والبرد، وصلف الولاة وتعنت الرؤساء وكيل المؤامرات. بشر قد وجدوا نصفهم الثاني، ولا يعانون من لعنة لا تفسير لها؟

هل يمكن أن أصبح يومًا بلا ندبة تؤلمني في الشتاء؟

بلا حب شارد ليس له مثيل؟

بلا وطن ضائع؟

هل يمكن هذا حقًا؟

أم أن هذا يتطلب أن أكون ممثلاً في مسرحية أو طيفًا في حلم؟ وإن صرت ممثلاً فهل أظل معتقدًا أنني مجرد ممثل أم أشاهد نفسي كمتفرج؟ وإن غدوت طيفًا في حلم فمن سيكون الحالم بي؟

لكن دويّ الرعد المتفجر أعادني للشعور بالأمطار التي تعيقني حتى عن فتح عينيّ، وتجعل الرؤية مبللة غائمة كأنني في عمق اليمّ، وعندما نمنا نهارًا استعدادًا لمجهود الليل الأسود والموج الأسود، صدف أن ترحلت حتى آخر الصف البشري الذي سينام جماعيًا في وردية النوم، وأصبح موضعي على سقف غرفة مرتفعًا شبرًا عن أرضية سطح السفينة، فكان طرف الأغطية لا يصلني وإذا رفعته قسرًا انزلق عن هذا الشبر. فقال لي (محمود أفندي) ملتاعًا من تحت الأغطية:

ـ ماذا ستفعل يا ولدي؟ يمكنني أن أتبادل معك الراحة، وإلا ستمرضك الأمطار الباردة.

ـ كلا يا (محمود أفندي) أنا محارب، وأظنك لا ترضى لي هذا الضعف وأنا الذي سأفدي نفسي إذا تطلب الأمر من أجل الوطن.

وعلى ذكر الوطن تذكرت شيئًا ما، فقلت له:

ـ أخبرني أين العلم الذي علقته؟

ـ لقد مزقت العاصفة الأعلام، لكن القبودان طلب مني إنقاذ ما يمكن إنقاذه منها، عندما أصررت على أن أساعد في أي شيء، فلم أجد سوى علمك الذي ابتعته فطويته بجوف السفينة.. لماذا؟

لكنني لم أجبه وأنا أهرع إلى أسفل مخترقًا فريق الرجال الذين يمنعون الماء وينزحونه في وردية الصحو الخاصة بهم طوال الوقت، وعندما قفلت عائدًا للاستلقاء إلى جواره اندهش أيما اندهاش بغير فهم، وذلك عندما رآني تحت نور السماء النهاري الباهت الحزين، وقد لففت جسدي جيدًا بعلم (مصر) الطاهر، واستلقيت مبتسمًا، بل وذهبت بالفعل في النوم العميق، وسط زئير العاصفة الباردة العالي..

لقد تغطيت بدفء الوطن..

دفء (مصر)، خزائن الله كلها كما ذكر (كعب)..

* * *

وحلت الليلة الثالثة..

ورغم الصلاة والدعاء المخلصين واحتياطات الرجال المكدين، إلا أن العاصفة اشتدت وألقت بنا في دوامة مهلكة، وبسرعة ربطت بندقيتي على ظهري، ثم حشوت العلم بأشيائي وتمنطقت به وقد شددته جيدًا حول وسطي أسفل زي الجندية الأزرق الداكن، ومع تبعثر البضائع وتحطم السفينة وصواريها أيقنت الهلاك، فارتديت فوق زيي معطفًا من الفراء الثقيل طفا على الماء الصاعد من باطن السفينة مع بقايا البضائع والقعر المدمر تمامًا، وفعل (محمود أفندي) المثل، بل وتحفظ على حقيبة كبيرة، صرخ كي أسمعه ونحن نتمسك ببعض بقوة فوق بقايا السفينة:

ـ لابد أن نقفز في البحر.

ـ ماذا؟

ـ لابد أن نقفز في البحر.. وإلا سحبتنا الدوامة مع السفينة.

كان القرار جنونيًا ويبدو لي أنه يفتقر لأي حكمة لازمة. فقد رأيت القبودان يحارب مع قلة من البحارة لتوجيه الدفة بعيدًا عن الدوامة لآخر لحظة، وكأنما اتخذوا القرار بالهلاك غرقًا دون ترك الأمر، ورأيت بحارًا يحتضن صاريًا ظنًا منه أنه سينقذه قبل أن يبتلعه الظلام والموج العاتي، بينما

التقط كل تاجر وبحار ومسافر آخر شيئًا ليطفو عليه مثل حقيبة الحوذي، لكنهم كانوا يدورون حول أنفسهم بلا هدف، وقد بدا أنهم معرضون لفناء محقق، وفي أقصى طرف المشهد وكأنه ينقصنا هذا، كان وحش بحري يسبح ببطء قد قبض على أحد البحارة في فيه واتجه به نحو الظلام..

وصرخ (محمود أفندي) مجددًا، وهو يربط نفسه بي بحبل سميك:

ـ سنلتصق معًا كسباح واحد له أربعة أذرع وأربعة سيقان، ومهما حدث لا تتوقف عن السباحة.. هيا سنقفز ونسبح بأقصى سرعة فور أن نقفز، ربما نفلح في اجتياز الدوامة.. ربما.

وتمتمت بالشهادتين ثم قفزت مع الكهل..

وكمرضى بصرع أبدي رفسنا الماء بسرعة كالمجانين، ونحن نسبح سويًا بقوة سباحَين، وكل ذكريات بركة (الأزبكية) وبحر (إسكندرية) تنهمر في ذاكرتي حتى أتقي شر الغرق، غير أن البحر الأسود كان بالنسبة لهما كسقر بالنسبة للجنة..

غَشَتنا دياجير موج من فوقه موج، وغصنا في ظلمات مُدلهمة من فوقها ظلمات، وراحت عشرات الذكريات والوجوه والأحاديث تخترق عقلي. وطويلاً ضربت الماء وضربت الذكريات، وطويلاً جدًا سبحت على الوجوه وطفوت على الأحاديث، حتى كلّت ذراعاي وأنّت وطوت الماضي أجمعين، وحتى شعرت بألم يسري كالخدر في كتفي، وحتى لم أعد أشعر بحركة رفيقي المربوط بي، لكني واصلت شاعرًا أنني أجر جثة، وبدأت أنسى هل تركت نفسي للحظات بلا سباحة؟ ولماذا؟ هل غبت في تلك اللحظات عن الوعي أم عن الزمن؟

أسوأ شيء أن تموت دون أن تشعر.. كلا، أعتقد أنه أفضل شيء.. موتة هادئة بلا معاناة.. لكن ما الذي أقوله؟ هل بدأت أفكر في الموت؟

نحن لا نعيش من أجل ألا نموت، لكن ينبغي أن أبذل وسعي حتى لا أموت ويموت معي الحوذي الطيب..

إنه ينتظر شفاء ابنته..

والأهم أنه من طرف أميرتي (ملك جهان)..

لكنّ ذراعيّ خذلتاني حقًا، فاكتفيت بالطفو فوق الحقيبة الكبيرة التي كنا نضعها أسفلنا أثناء السباحة، حتى نشبه مركبًا بشريًا صغيرًا بأربعة مجاديف، ودفة مزدوجة..

وعند الفجر توقفت الأمطار أخيرًا بعد ثلاثة ليال من الانهمار، حتى فرغت السماء من المياه. قلبت الحوذي على ظهره ونحن نقترب من شاطئ مغطى بالثلوج، كان حيًا لحسن الحظ لكنه فاقد للوعي، يبدو أنه بذل مجهودًا يفوق طاقته في هذا العمر..

وفوق الثلوج استلقيت وأنا أقول للحوذي الفاقد الوعي، بأسنان تصطك وحروف تتخبط:

ـ يبدو أنها كانت أشد على اليابسة.. لقد اكتست الأرض بالثلوج.

كنت أرى الثلوج لأول مرة في حياتي، حيث لم أعتد السير على أرض بيضاء كنُدف القطن، لكن هذا لم يجذب انتباهي لما يكفي ذهني من التوقد، اطمأننت على عدم ضياع منديل الأحبة الوردي، وشرد عقلي في بعض من استلذاذ استعطاف ذكر الحب، ذلك الشعور الذي يشبه التماع عينيّ طفل رأى شهابًا لأول مرة، ذلك الشيء الأشبه برحلة في بحر، ينبغي أن تعرف أنها رحلة بلا نهاية

حتى لا تشك في انتهاء متعتها سريعًا، وغلبني سلطان النوم وفقدت وعيي في العراء والبرد وعلى وجهي ابتسامة لتذكّرها.. (ملك جهان).. يالنشوة مداعبة أحرف اسمها لطرف لساني، كما يفعل تذوق العسل الأبيض..

بعد فترة استيقظت على دفء لذيذ، سرى كالخدر في لحمي المتيبس وعظامي الميتة وشعري المتجمد، فوجدتني في كهف تنقل فتحته لي ضوء آخر النهار الأزرق الشاحب، و(محمود أفندي) يقلب حطبًا مشتعلاً بالقرب مني، وقد جفت الثياب والمعاطف ونقلني إلى هنا، فور أن استيقظ وفك الحبل الذي أنقذنا بعد عناية المغيث المتجلي، وبابتسامة كشفت عن أسنانه المكسورة الهرمة قال:

ـ لقد أنقذتنا يا بطل وسبحت بي بعد أن خارت قواي حتى شاطئ النجاة.

ـ بحركم هذا كان أسود بالفعل، لكنه لم يصمد فيما يبدو أمام سواد أشد أحمله معي.

ضحك بشدة حتى اهتزت كتفاه دون أن يفهم مغزى ما ألمح له، وتبادلنا بضعة أحاديث متناثرة تحفل بالحمد والشكر على النجاة وسط هذا الدفء، الذي بدا على هيئة نعمة مجسدة قد يدفع لها المضطر نصف عمره كي يهنأ بها، والعاصفة في الخارج تهدأ وتتحول من أمطار وثلوج إلى رياح زمهرير لم تتوقف غضبتها نهائيًا بعد، ما أحلى الدفء بعد البرد، إنه كالشبع وسد الرمق بعد الجوع..

ثم شددنا الرحال تحت وطأة الجوع الحقيقي في هذا الطقس، للبحث عن أقرب قرية أو معسكر أو أي تجمع بشري يتصاعد منه الدخان، وبالتالي النار التي تدل على الطبخ والمرق، وفي الطريق قال لي الحوذي بصدق للتسرية:

ـ أصارحك القول لو لم تكن تُكِن حبًا عظيمًا شعرنا به أنا و(آيت) تجاه سيدتي (ملك جهان) وسيمة الخلق والخُلق، لما أخبرتك بهويّتها التي أخفتها عنك.

لزمت الصمت وأنا أنظر له باهتمام، بينما نشق طريقنا وسط الليل والثلوج والعاصفة، وقد أعاد عليّ حديثه ـ بالتركية ـ عن محبوبتي كل شجوني. إذ إنني أحببتها وسأظل بغض النظر عن أي هويّة لها.. فتابع أمام صمتي الحيادي:

ـ الأميرة (ملك جهان) من حفيدات أحد السلاطين العثمانيين السابقين، وكانت منذ طفولتها تتميز بالنزق، فيئس أولي الأمر من إلزامها القصور لشدة نزقها، واضطروا إلى الإذعان لحبها الحرية وخروجها إلى حديقتها وكوخها، ولقد عاشت على نبوءة العرّافة الهندية وآمنت بها، وعندما لقيتك صدقتها أكثر، وعرفت أنك حبيبها الموعود.

فوجئت بشدة وأصابني الانفعال بالحنين، لكني أُصبت بحيرة أيضًا، أعقبتها بنظرة فاترة لملامحه الهادئة:

ـ هل تخبرني بهذا بعد إدراكك استحالة لقائي بها في هذه الحرب وهذه المشاق؟

ـ بل لأنني أشعر حقًا أنكما ستلتقيان مجددًا، وأنك ستكون مسئول عن أمنها وسلامتها.

وغلبنا الصمت بعد هذا الحوار المقتضب القصير، فأحسست بالوحشة من الصمت لكني لم أرغمه أو أجبر نفسي على الحوار ولو في أي اتجاه، وجعلت أفكر مهمومًا ونحن نقطع الطريق الساحلي.. هي أميرة انتخبتها آلهة الجمال، وأنا مجرد جندي فقير ملعون، فهل تظل على حبها لي حقًا؟ هل

روحي معلقة بنبوءة عرّافة هندية؟ إن الحب يشبه الحظ والحظ طلسم، والطلسم كالحرب تتوقف نهايتها على بدايات مجهولة، والبدايات تكتنفها أصنام تتعمد أن تصنع من أنفسها حواجز أمام الحقيقة لتخفيها.. لتئدها..

كنا نسير بمحاذاة الشاطئ بحثًا عن أي ضوء بعيد أو مكان نجد فيه ما يسد رمقنا من زاد وماء، وبينما تحوطني الأفكار وتبتلعني الشجون، انتصب هذا الشيء أمامنا وسط ظلام الليل البهيم بسواده الحالك، مطلقًا زمجرة وخوارًا مرعبين..

كان دبًا شيطانًا منتفش الشعر يطلق تنفسه بخارًا سريع التكاثف، بدا جائعًا لا يصبر على الفتك بنا، وقد وقف على قائمتيه الخلفيتين المخلبيتين متحديًا، فناهز طوله الأمتار الثلاثة، وبث في فؤادينا روعًا وارتياعًا..

وبينما انخرط (محمود أفندي) في تلاوة آيات أخيرة، سحبت أنا كجندي تمرس على مواجهة الأخطار؛ بندقيتي، وقلبي يدق بشدة لمرأى هذا الوحش لأول مرة، وصوبتها نحوه وهو يزوم متحفزًا، وأطلقت طلقة دوت في الليل.. وتراجع الدب في ذهول وهو يخور، فالطلقة لم تقتله، لكنه بدا أنه لأول مرة يواجه بشريًا بدوره، وبمقارنة سريعة بين قواه الكاسحة وذلك السلاح الذي أصابه آثر السلامة، ودار على عقبيه مبتعدًا في بطء مهيب، باحثًا عن مكان يلعق فيه جرحه الذي بدا جديدًا عليه..

ولثوانٍ ساعدت حرارة المواجهة على تدفئة عروقنا النابضة، قبل أن يعود البرد القارس للسعنا، فرفعنا ياقاتي معطفينا لنغطي رأسينا، وواصلنا السعي قبل أن يجهز علينا شاطئ البحر الأسود بدلاً من مائه..

لساعة من السير في المجهول، ووسط مزيج من صفير العاصفة وعواء ذئاب بعيدة قادمة من أعماق الأساطير، تبدأ في الشعور بالإجهاد الرهيب وبعدم نفع أي شيء وعدم جدوى البحث إلا عن موضع يصلح كقبر مناسب، تُرقد فيه جسدك المتعب في راحته الأخيرة، وإذا ما سبق هذا أهوال غرق محتم وأيام سوداء، فستعزو تفاؤل أي كائن كان إلى محض جنون مطبق، وستعتقد أن الكون خُلق ليطحن الآدميين طحنًا، وليس من أجل سلامتهم، أو أنه دولة عظمى تعتبر وجودك في حد ذاته إعلان حرب عليها!

تبدأ رويدًا رويدًا في الإلحاد ـ والعياذ بالله ـ وتظن أن الطبيعة هي القوة العظمى ليس فوقها خالق، أو تبدأ في الجنون، لكني فطنت حينها إلى أن هذا من حديث الشيطان، ربما تمثّل الشيطان في الدب أولاً، فلما لم يمكنه دحري ماديًا لجأ للوساوس والضلالات، وربما قيض إليّ شيطانًا لا يفارقني. الشيطان نجار والإنسان هو المسمار الذي يستخدمه، فيطرق عليه بشدة بمطرقته، حتى يجعله رابطًا بين كوارث الأرض التي هي الأخشاب، وقليلة هي المسامير التي تقصف قائلة (لا) له..

وفي اكتئاب لأول مرة أراه يتلبس سحنة (محمود أفندي) قال:

ـ سحقًا! لقد قُذف بنا إلى (بلغار).. أرض الكفرة!

كنت أعرف من دراستي لكتب الجغرافيين العرب، أن هنالك اثنتين (بلغار)، تلك التي عند بلاد الروس الشرقية على نهر (الفولجا) المذكورة في مخطوطة (ابن فضلان)، والأخرى شمال البحر الأسود المخيف، وهي التي خمنها الحوذي..

ودون أن أدفعه، قص عليّ ما عانته (ملك جهان) الحبيبة في السابق، وكيف أن العائلة كانت تضطهد نزوعها نحو الحرية، لأنه منافٍ لتقاليد الأمراء والحريم، حتى إنها كادت تهلك عندما أضربت عن الطعام، إثر إصرارها على الخروج دون رقابة، ورفضهم المتواصل لهذا، حتى رق قلب السلطان وأمر فرع العائلة الذي تحيا وسطه (ملك جهان)، أن يعاملها هي تحديدًا معاملة استثنائية، واضطر أن يقنعهم أنها مصابة بعلة في عقلها، حتى يشفقوا عليها ويتركوها لحال سبيلها في نطاق واسع لا رقابة داخلية فيه، يشمل حدائق سلطانية ومرجًا واسعًا وغابة، على ألا تتجاوزه إلى الخارج، وهو ما كان يكفيها مؤقتًا، لأنها كانت تصر أيضًا على التنكر وزيارة الأسواق، مثل اليوم الذي زرنا فيه سوق الميناء، وظهرتَ أنت فيه.. يوم الصدمة..

والآن نحن في صدمة أخرى.. صدمة البرد..

على أننا لم نواصل السير إلى الأبد ولم ينسنا الله والعياذ بالله، وسرعان ما رأينا شبحًا يمتطي جوادًا ويسحب آخر ويسير على البعد، فنادينا عليه، ولما اقترب منا صاح بالفرنسية لنسمعه في العاصفة:

ـ من أنتما؟

ولما كنت أجيد الفرنسية الفصحى أجبته:

ـ غريقان قذفتهما العاصفة إلى هنا، هلا ساعدتنا أيها النبيل؟

كان يبدو سيدًا فرنسيًا بثيابه الفاخرة من فراء السمور الثمينة ومجوهراته اللامعة وقراب سيفه المزخرف على أحسن ما يكون، حسب خبرتي عندما كنت أعمل نخَّاسا، وملامحه الفاخرة المعتزة وشاربه النحيل المعتنى به. بهدوء قال:

ـ يبدو أنكما حسنا الحظ ببقائكما حيين ولاصطحابي للجواد الإضافي، أنا الكونت (تزاروكي) الطبيب والخيميائي والنبيل.. يمكنكما كلاكما اعتلاء الجواد.

هكذا امتطينا جواده الإضافي الذي بدا أشبه بمعجزة في ظروف كهذه، وعرفنا بعد ترجمتي كلامه للحوذي التركي، أن السيد الفرنسي كان يجتاز الأراضي الهادئة، فدهمته العاصفة والحرب معًا، وبسبب الأولى استهلك مخزون الطعام بسرعة، لذا فسيضطر للانحراف عن مسار الرحلة لبيع الجواد الإضافي، وكان يبدله بالجواد الأول في رحلته الطويلة إلى (موسكو) قادمًا من غرب (مولدافيا)، وأخبرنا أنه سيبيعه في أرض (الظلمة) من أجل الطعام، ولم أشك في أنه هارب لاضطراره لقطع هذه الرحلة المخيفة، لكننا رافقناه من أجل ذات الهدف.. الطعام..

لم أتذكر أنني قرأت عن أرض الظلمة هذه، لكنني عندما ترجمت للتركي الطيب، بسمل وحوقل وتلا المعوذتين، فلما فرغ سألته:

ـ أهي تسمية محلية؟

بدا أنه ازداد غمًا وانقباضًا:

ـ لا يعرف أحد حاليًا من أطلق عليها هذا الاسم يا (محفوظ)، لكن تجارها هم السحرة الأغراب.

همس بكلمة (السحرة الأغراب) هذه كأنما يذكر لفظة (عفريت)، وذلك في غاية التخوف، كأن ذكرهم وحده كفيل بحلول اللعنات علينا، فاضطربت قليلاً لكني استعدت رباطة جأشي، وقافلتنا

الصغيرة تتجه لقرية بلغارية روسية.. ليس أرعب شيء من المخلوقات أنفسها، إنها أرعب من العواصف والحروب والموت جوعًا.. قلت له:

ـ لست أومن كثيرًا بأساطير (أوروبة)، لكني أومن في الواقع بالسحر.. فهل هم مسالمون؟

فوجئنا بضحكات الكونت (تزاروكي) الذي يقودنا مولينا ظهره، وهو يعلق بالتركية:

ـ المشكلة أنهم مسالمون.. مسالمون لدرجة مريبة يا.. يا (محفوظ).

ـ إذن فأنت تجيد التركية؟

ـ وعددًا آخر من اللغات يفوق ضعف ما لديك أيها التركي.

ـ لست تركيًا أيها النبيل.. أنا خليل النيل.

ـ حسنًا أيها المصري.. لكن ربما يسرني أن تعرف شيئًا لا قبل لك به، وذلك لما توسمته فيك من النجابة وسعة الذهن.. فأنا هو من يطلق عليه في هذه الأصقاع الكونت (سانت جيرمين).

قال (محمود أفندي) في ذهول:

ـ الخالد؟!

فارتفع حاجباي تعبيرًا عن دهشة ربما فاقت العاصفة في قوتها، والنبيل الفرنسي يجيبه:

ـ هو عينه.. وطالما سمعت بي فأنت هو التركي لا ريب، لكنني لست خالدًا تماما.. ليس معنى بقائي حيًا منذ خمسة آلاف عام أن أكون خالدًا!

ـ ما الذي يعنيه إذن؟

قالها الحوذي بأنفاس مبهورة، وعدلت أنا من وضع بندقيتي فلاحظها الكونت معلقًا وهو يتجاهل سؤاله:

ـ يبدو لي أنك جندي أيها المصري.. حذارِ من الروس بهذه الحرب. كنت جنرالاً في الجيش الروسي في حربه ضد (تركيا) عام ١٧٦٨، وحتى انتهت الحرب بعد ستة أعوام، ولقد تطورت تكتيكاتهم كثيرًا منذ ذلك العهد.. لكن لا تقلق.. أميل لاعتباري فرنسيًا بولنديًا إسبانيًا!

ساورني شك منطقي في ادعائه كله، وهو يتابع:

ـ على أي حال لحوادث عمري حديث طويل قد يستهلك ما بقي من عمريكما القصيرين، استعدا لأننا نقترب من معسكر (الكلاب)!

وصلنا بالفعل لمعسكر في (بلغار) سُمي هكذا لأنه مركز وسيلة نقل عجيبة للغاية، عبارة عن ألواح على عجلات صغار تجرها كلاب ضخمة، وهذا هو معسكر هذه الكلاب التي هي وسيلة الركوب الوحيدة إلى أرض الظلمة المثيرة لقلق مبهم.. وهناك حصلنا بصعوبة على تلك الكلاب، رغم أن الكونت (تزاروكي) تكفل بكرم كبير منه بدفع تكلفة إيجارها ذهابًا وعودة، مقابل أن نساعده في المقايضة بجزء من محتويات حقيبتنا الكبيرة، حيث إن (السحرة الشياطين) ـ هذه التسمية خاصة بمؤجري الكلاب ـ لا يقبلون الذهب أو الدنانير، فهم يدفعونها لكن لا يقبلون إلا البضائع، فوافقنا بالطبع على طلب النبيل المهذب، فليس معنى أنه يدّعي العمر خارق الطول أنه نصاب بالكليّة..

وانطلقت بنا الكلاب مع الفجر الجديد وتوقف العاصفة؛ برفقة بعض التجار البلغار والصرب الآخرين، وظهرت الشمس كهالة بيضاء خجلة يمكن النظر إليها مباشرة، ونهبت الكلاب ـ كل كلب يتبعه ثلاثة كلاب ـ مفازة جليدية لا شجر فيها ولا مدر ولا حجر لمدة ٤٠ يومًا، كنا نتوقف خلالها لتناول الطعام، فكان الأكل قبل أن يوضع للآدميين يوضع للكلاب، خاصة كبيرهم الذي تمرس في هذه الأرض، ولو لم نلتزم بهذه القاعدة التي اعتادتها الكلاب ـ الشبيهة بالذئاب ـ لعشرات السنين، لثارت علينا وعادت أدراجها إلى المعسكر دون المواصلة، فكنت أحتقر هذا النظام الذي عود الحيوانات على أن تأنف إذا ذاق آدمي الأكل قبلها، بل وتثور ثورتها!

أذكر أنه في الطريق سألت (سانت جيرمين) الخالد كما يُلقب، بحذر لا يخلو من تسلية:

ـ حسنًا، لنفترض أنك عاصرت العبرانيين، كيف لم يذعنوا لأنبيائهم رغم كل المعجزات التي أمطرت عليهم؟

قال ببساطة اعتبرتها خبثًا هائلاً أو مقدرة تمثيلية عالية:

ـ يقول سِفر (حزقيال) بالإصحاح الثالث أن: (كل بيت إسرائيل صِلاب الجباه وقُساة القلوب) أي حمقى! لقد حصلت على نسخة أصلية من السِفر في (أريحا) حديثة السماء!

ـ حسنًا، أي قس يمكنه حفظ هذا.

ـ بالضبط.. أنا قس وموسيقي أيضًا.

كان هذا ذكر (سانت جيرمين) العجيب.

* * *

حتى وصلنا لأرض الظلمة في ٢٣ نوفمبر ١٨٥٣..

كانت غابة مقبضة من أشجار طوال غصونها ملتوية تتناثر عليها رماد يشبه رماد البراكين، تحيط من كل جانب بتل ضبابي للسحرة الشياطين هؤلاء، والذين لم يرهم أحد من قبل، مما أثار ذاكرتي القوية، فقلت لدليلنا النبيل الكونت (تزاروكي):

ـ كيف هذا وبينهم وبين الآخرين تجارة وبيع وشراء؟

ـ آه أنت جديد بالكليّة.. نظام تجارتهم الذي لم يختل من عقود، يحتم على التاجر أن يضع بضاعته على التل، ويرحل إلى خارج أرض الظلمة، ثم يعود بعد فجرين من معسكره، فإذا رضي التاجر بما تركه له السحرة الشياطين من مال حصل عليه، وإن رفض وقد ثمّن بضاعته بما هو أكثر تركه، فإما يزيده أهل الظلمة أو يردوا له بضاعته.

وعلى التل الذي تحيطه الأشجار الهائلة ويتخلله الضباب الرمادي الكثيف القريب من الأرض، فيبدو المكان شبه مظلم بالفعل رغم أننا وصلنا منتصف النهار، وبسرعة المعتاد لهذا النوع المستتر العجيب من التجارة، شرع التجار في اقتطاع أعواد صغيرة من الأشجار، وكتب كل تاجر اسمه أو رمزه بهذه الأعواد في مكان بضاعته، ففعلنا المثل وقد ضممنا بضاعتنا لبضاعة الكونت الذي عقل معها الجواد حسب الصفقة، فكوّنت أكوام البضائع المعلمة صفًا منتظمًا عريضًا، يفصل بين كل كوم وآخر متران، شمل سطح التل الصغير كله.. ثم تركنا صف البضائع التي كانت في غالبيتها من فراء السمور الذي يفضله أهل الظلمة لأن القمل لا يعيش فيه، وعاد الكل أدراجه خارج أرض

الظلمة لمسيرة يومين، وبعد فجرين بالضبط انطلق كل تاجر عائدًا إلى موقع البيع المميز جيدًا له، وهناك بدأ صدام السحرة الشياطين معي بالذات..

وبدأ قتال لم أعرف أو أتخيل له مثيلاً في التاريخ كله..

* * *

القانون الرابع

عن (عقبة بن مسلم) يرفعه: أن الله يقول يوم القيامة لساكني (مصر) يعدّد عليهم النعم؛ أما أسكنتكم (مصر) فكنتم تشبعون من خبزها وتروون من مائها؟

* * *

شفرة حادة كانت تمزق أحشائي، وتدفعني.. لشد ما كانت تحرضني لذاك التسلل..

عندما عسكرنا فجرين خارج أرض الظلمة، ذهب الكل بعد الفجرين إلى أرض السحرة الشياطين، باستثناء بسيط جدًا..

باستثنائي..

كنت قد سبقتهم إلى هناك بيوم، حيث تسللت من المعسكر مع أول فجر، مدفوعًا بتلك الشفرة.. بفوران أو ثورة تعتمل في أعماقي التي جلبت عليّ كل سوء وشر..

فمنذ وطئت أرض الظلمة وهناك شيء يوعز إليّ أن أستعد لتناحر ما أو صراع خفي، وكنت أتمنى أن يخرج هذا الشر مني ويغادرني إلى الأبد فلا يعود بي إلى الموت والدم بعد ذلك، أو أموت أثناء الحرب أو أثناء ثورة من ثورات الشر، فأكفي نفسي والخلائق هذا السواد المرير الذي يأتي على حين غرة وبدون سبب مفهوم، مرة مزق فأرًا وأهال داري، ومرة تسبب في مجزرة رهيبة لمركب نيلي بالكامل، ومرة كنت أتعرض لهجوم كلب مسعور، فلم أدري إلا والكلب المسكين قد مُزق شر ممزق، حتى البعوض والنمل في الجو وعلى الأرض لحقوا به وصاروا هشيمًا تذروه الرياح، كأنها قوة إلهية مهولة جبارة، حتى إنني وقتها أشفقت على الكلب مثلما أشفقت على البشر، وتمنيت لو كان قد تمكن مني وعقرني بدلاً من أن أتسبب له في هذا المصير الملعون..

أحيانًا كان الخيال والخبال يأخذانني لتصور أنني نبي مرسل، وأن هذا ما هو إلا (ميكائيل) أو (جبرائيل) رئيس الملائكة يدافع عني، وكنت أعتقد أن قوة هائلة كهذه تناسب هذا المخلوق الذي لا يمكن تصور ضخامته المريعة كما قرأنا عنها، لكني كنت أنبو عن هذا الخاطر الشاذ، لما يحيط بالأمر من قداسة ونور أبعد ما يكون عن هذا الشر المظلم، كما أن الأنبياء خُتموا وانتهى الأمر، ولابد أن هذا التصور برمته من نفث شيطاني الذي لا يستحي من لمزه رغم ما أقاسيه، وكأنني بحاجة إلى شيطان عادي سوى شياطيني غير الاعتيادية..

ثم كنت أعتقد أحيانًا أنني ممسوس، وأن هذا شيطان من المردة، أو لعله (إبليس) الرجيم بنفسه، لكن المشكلة أنني أبعد ما أكون عن الخنوع والاستكانة لجن أو شيطان، لمواظبتي على الصلاة والذكر والاعتماد على الله تعالى، كما أن (الدرويش) الولي الصالح كان لواجد فيّ شيئًا من هذا، إلا أنه لم يعتقد مرة في أنني ممسوس..

الآن وبعد كل هذه المعاناة التي لم يلقها أحد في طفولته وصباه، أشعر بشدة أنني مقبل على وضع حد لما يعتريني، وأنني سألفظ هذا الشر الكامن في أرض السحرة الشياطين، وبشكل محموم لم أتمكن من النوم قرب الفجر الأول خارج أرض الظلمة، وأيقنت بإحساس قوي كاسح أننا لم نضل في العاصفة ونسافر كل هذه المسافة لأكثر من شهر كامل، وسط حرب تكتنف المنطقة كلها وتهدد

بابتلاعنا في أي زمن، ولم نلتق بالكونت (تزاروكي) لمجرد التجارة مع السحرة الشياطين والرحيل دون أن نلوي على شيء..

كلا..

وبطاقة وحرارة تغلبت على درجة الحرارة شديدة الانخفاض، تسللت في نشاط جمّ بدون استعمال الكلاب حتى لا يستيقظ أحد، وسرت في اتجاه التلة الأشبه بوجه عابس له أنف ناتئ مشبوب بالضباب.. كنت أشعر بضربات قلبي تتصاعد وبما يحتوش أعماقي بدوره يتصاعد وكأنه يستعد للبروز والانبثاق لكن ببطء حذر جدًا، وللحظة خُيل إليّ أنني أتلقى نداءً قويًا، جل فحواه أنني سأخترق منطقة محرمة الآن، وسأدنس أرضًا محمية في هذا التوقيت، لكنني تجاهلت التحذير واعتبرته هلوسة مضطربة بداعي التوتر..

وبدأت أصعد التل الصغير لكن زاحفًا منبطحًا، هلم يا رجل.. لا تريد أن تتكشف بسرعة! لابد أن أحصل على وقتي وأرى ما ينتظرني ويناديني ويحذرني في الوقت نفسه، هل أجرى القدر علة تجنيدي كي آتي إلى هذه البقعة الكئيبة من العالم وأقابل ما سأقابل من مجهول؟ لا أعرف. وعندما أشرف بصري على سطح التل، وقد تواريت جيدًا خلف شجيرة، رأيت على ضوء بدر تلك الليلة البارد ما لا أعرف ماهيته حتى الآن، وما لا أصدق أنني رأيته بأم عينيّ حتى الآن بلا أدنى مبالغة..

كان جواد الكونت (تزاروكي) ـ المتاع الحي الوحيد في البضائع ـ مضطربًا، يقاتل وينثر الغبار من أجل فك وثاقه المربوط جيدًا ومن ثم الفرار، ومن حوله يتغشاه حفل طقوسي فيما بدا، حيث أحاطت بالبضائع في دائرة غاية فى الاكتمال شملت معظم سطح التل، عشرة عروش ذهبية عجيبة مزججة المساند بديعة الصنعة لاحظتها عينا نحّاس قديم، عليها قعد عشرة رجال ليسوا بالرجال، ذوو عيون براقة بلا حدقات وكلما تكلموا خرجت من أفواههم شعيرات من ضوء باهت، عرفت أنهم السحرة الشياطين، وشعرت بمدى خطورة موقفي لو اكتشفوا تلصصي الآثم، ومدى فداحة أمري لو أسروني أو آذوني وآذوا رفاقي بسببي، وكان بداخل دائرة العروش دائرة أضيق لكنها واسعة من عجائز ملفوفين فيما يشبه مسوح الكهنة، كانوا يرفعون رؤوس حيوانات ورؤوس بشر تقطر دمًا، على نحو أبشع مما يفعله هنود (أمريكا) الحمر الذين يعلقون على أكواخهم جلود رءوس أعدائهم المسلوخة ـ ببشاعة ـ عن جماجمهم، الجلود كاملة بشعرها. كانوا يدورون بها مع عقارب الساعة وهم يأتون بحركات منتظمة، وداخل دائرتهم تدور دائرة أخرى منهم لكن عكس اتجاه الساعة، ولا يحملون رؤوسًا مثلهم لكنهم يترنمون بمقاطع جماعية متكررة ملحونة ومنتظمة، عجيبة الرجع، بلغة شرقية قديمة، وقد شكلت الدائرتان المتعاكستان حركات متناسقة في غاية الدقة والنظام، والسحرة يتابعونهم في اهتمام، ولا يمكنك أن تحدد استحسانهم من عدمه في رطانتهم، أما في قلب الدائرة فكانت البضائع المرغوبة، وقد جُمعت في كومة واحدة محاطة برمم الحيوانات وجثث البشر الذين جُزت رؤوسهم، أما الكفر المبين في هذا السحر الأسود فكان في حياة الرؤوس التي تقطر دمًا، وفى عيونها التي تتحرك حيّة بخوف صامت مخيف في حد ذاته!

يومها اشمأززت.. وكدت أفرغ جوفي، وحتى وأنا أقص هذا الآن أستعيد هذا الشعور المضني الممضي، فقد شعرت بأن الشيطان ذاته يحضر هذا الطقس الأسود المجدف، وتعوذت بالله مرارًا وتمددت رئتاي وانضغطتا بسرعة تفوق سرعة التنفس الطبيعية، وفي نهاية الأداء الطقسي،

والعرض المقبض المجدب الذي هبط لأحط درك، وقف كبير هؤلاء العجائز أو الكهنة في قلب الدائرة وسط البضائع، ورفع ذراعاه الناحلتان لأقصى مدى، وقد بسط كفيه المعروقتين وأنشأ يهز رأسه في عنف جنوني متسارع، والبضائع تتلاشى من تحته بما فيها الجواد الذي كف صهيله فجأة، تلاشت البضائع المقبولة كالسحر، وتدلى فكاي في بلاهة لهذا الأمر الغريب غاية الغرابة، والذي يتجاوز في قدراته كل ما وصل إليه (الدرويش) العزيز، وأي درويش من أهل الخطوة وطي الأرض، الذين يمشون على الماء ويطيرون في الهواء..

وفجأة همس الكونت (تزاروكي) في أذني:

ـ هل جننت؟

انضغطت رئتاي وشحُب وجهي وغارت مني الدماء من فرط الذعر، لكني عندما تبينت الكونت استشطت غضبًا وكدت أقتله لما سببه لي، لكني تمالكت ما بقي لي من أعصاب مدهوسة مدعوسة:

ـ كدت تقتلني لا شك.

ـ لست أنا من سيشكل لك الخطر الآن.. الشروق يقترب بسرعة وسيكتشفوننا.

ـ إن الأمر لا يعنيك، عليّ أن أفهم وأعرف ما علاقتهم بما يخالجني.

وأُبدِلت البضائع أموالاً تحت قدمي كبير الكهنة، وعندما توقف الترنم فجأة، أشار هذا الكبير ناحيتنا وهو يصيح، ففر الكونت بهلع ما بعده هلع، وقد التفت الكهنة كلهم إلينا، الكونت الذي كان منذ ساعات قلائل (سانت جيرمين) الخالد كما جاء ذكره! أما أنا فقد تجمدت تمامًا، وتحجرت عيناي على وجه كبير الكهنة، كما لو أنه مغناطيس عيون عضوي، شاعرًا أن غليانًا رهيبًا لكن غير مؤذٍ يتصاعد في أعماقي..

وأشار إليّ كبير الكهنة كي أتقدم. تهيبت الأمر قليلاً لكن نفس الهاتف الذي جاءني يحذرني من تدنيس الأرض قال لي أنني مؤمّن، ومسلح بما يداخلني من شر مستطير، فنهضت برهبة عميقة وتقدمت، واخترقت العروش، حتى وصلت للكاهن، وعيناي لا تفارق وجهه طوال الطريق، كأنما سقطت في سحره إلى الأبد.. وبالتركية سألني:

ـ هل تعرف أننا مسالمون؟

لم أدر كيف يعرفون أنني أجيد التركية أو علاقتهم بالأتراك، ولكن عينيّ التي لم تفارق وجهه فلم تسقط لحسن الحظ على السحرة الشياطين أو الجثث البشعة، واصلتا التسمر في عينيه المرسومتين بالكحل:

ـ أعرف أنكم مسالمون.

ـ هل تعرف أننا لا نريد أن نلتقي بكم ولا أن تلتقوا بنا؟

ـ أعرف أنكم لا تريدون أن تلتقوا بنا ولا أن نلتقي بكم.

ـ هل تعرف أننا نعرفك؟

ـ ....! كلا!!

ـ هل تعرف أنك تهدد وجودنا؟

ـ كلا!

ـ هل تعرف القوانين الأربعة؟

ـ كلا!

ـ هل تعرف بشأن جدك أيام المماليك؟

ـ لم أعرف عن جدي أيام المماليك سوى أنه كان جنديًا شجاعًا.

ـ إذا فيجب عليك أن تعرف بشأن جدك المحارب، قبل أن تعرف بشأن القوانين الأربعة.

و بدأ يقص عليّ بداية الشر..

وصراع جدي الدامي معهم..

* * *

كما عرفت من كبير خادمي السحرة وكما أتذكر حكيه، فقد كان جدي الشيخ (ابن النحاس) ضابطًا مصريًا، انضم لقوات المماليك كباحث ومبعوث سلطانى خاص، في حربهم ضد البرتغاليين في القرن الخامس عشر، وتسبب احتكاكه بالبرتغاليين ـ تحديدًا بساحر منهم ـ في معرفة عالم محظور، ولجه برهبة في البداية، ثم لم يتردد في سرقة إحدى تمائمه، كي يمتلك حماية سوداء لا قبل لأحد بها في آخر المطاف، لكنه لم يكتف بهذه الغنيمة الثمينة التي أرشده الساحر إليها، بل وقرر أن ينهل ما هو أكثر متحديًا خوف وشفقة الساحر، وتحذيراته من عاقبة الطمع، ومن حراس هذا العالم الغامض، وأنه لولاهم لأصبح الساحر نفسه سيد العالمين، وقام باستخدام الحماية الخاصة به لقتل الحراس، فتهدد العالم المحظور بأكمله في طريقه للاستحواذ على كل الغنائم التي يعمل مفعولها في عالمنا مفعول السحر، سحر يمد صاحبها بقدرات فريدة وخارقة في حين أنها في عالمها الأصلي مجرد أدوات بسيطة وطقوس للتبرك، فمثلاً يمكن عند حيازة أكبر عدد منها أن يكون مالكها الأرضي قادرًا على معرفة وكشف حجب الماضي، ويمكنه أن يغوص في البحار كالسمكة، فيستطيع بذلك أن يجلب كنوز بحر (السرجاس) الملقب ببحر (الظلمات)، ويمكنه أن يبرئ المرضى ولا يصيبه هو مرض قط، كما يمكنه أن يسمع أحاديث الآخرين فيما بينهم على أبعاد ومسافات غير معقولة، وغيرها من الإمكانيات اللانهائية، بالإضافة للحماية السوداء الرئيسية وهي سحق أي خطر خارجي يتهدد جسد الجد..

لكن حربه طالت وتمددت ولم يمكنه غزو العالم بمفرده، بينما استطاع سحرته أن يجمعوا أنفسهم ويمتنعوا بالتمائم والغنائم عن الجد، وكحل أخير يحفظ ما تبقى من عالمهم هربوا بالحارس الأخير الناجي وبكنوزهم، فاستشاط الجد غضبًا واستغل حمايته الوحيدة الرئيسية وهي ذلك الشر الأسود في أعماقه، للإجهاز على العالم بأكمله عندما استعصت الغنائم الرهيبة عليه، وفر بها السحرة إلى المجهول..

وبقي الجد بعدها ـ حسب مراقبيهم وخدمهم من سحرة البشر الذين يعتقدون فيهم ـ ينعي حظه العاثر، وكيف أن حمايته المدهشة جلبت عليه الوبال بدلاً من الخير، فحيثما يتهدده الخطر كانت الحماية تعمل تلقائيًا، فتُفني وتُبيد كل شيء يحيط به بما في ذلك الأبرياء، تمامًا كما حدث معي في المركب التي اتجهت بي إلى (الإسكندرية)، عندما قضى الخطر الذي يتهددني نحبه ومعه كل الأبرياء الآخرين على يد حماية غاشمة عمياء لا تمييز عندها، بقي جدي معزولاً راهبًا لا يطلب

البشر ولا يؤانسهم خوفًا عليهم من ذاته.. بقي وحيدًا شاردًا يائسًا مما جناه بطمعه، لا تقترب منه أفعى أو يمسه مفترس إلا وقد أصبح أثرًا بعد عين، وسط دوامة سوداء تفح وتزمجر وتمزق..

وفي أواخر حياته بالمحروسة خرج من عزلته بأن تقرب ـ أكثر وأكثر ـ بقدرته الجديدة من أعلى سلطة في البلاد، وهو السلطان المملوكي نفسه، فضمن ألا يفضحه العامة، بأن حاز حماية وحراسة ساكن القلعة، بعد أن غدا أحد ندماء مجلسه السلطاني اليومي، وضُرب به المثل في الاستحواذ على ثقة السلطان بطريقته الغامضة، وهو المثل الذي تناقلته الحاشية والجيش (أدهى من الشيخ ابن النحّاس). لكنه لم يستطع الاستمرار فعاد إلى وحدته الرهيبة، ويأسه الأبدي..

ومما زاد من يأسه وندمه على اتصاله بهذا العالم، أن كبير خدم السحرة زاره في فراش الموت في آخر عمره، وأخبره بأن الحماية ستنتقل إلى نسله من البكري إلى الأبكر، لأنها خالدة ومتسلطة، وأن السحرة الشياطين بقوا رغم كل شيء، وبقت أعاجيبهم وكنوزهم التي لا يصدقها عقل سرًا دفينًا بعيدًا عن البشر معهم في عالمهم الجديد. أما الساحر البرتغالي فقد جن تمامًا من فرط ما عرف عن هذا العالم المحظور، ومات حرقًا هو وأوراقه التي دوّن فيها ما يعرفه عن بوابة العالم الجديد، فمات معه السر وإن ظل يردد نبوءة قديمة يؤمن بها السحرة الشياطين، وهي أن حامل الحماية سيعود ليبيد من تبقى من جنسهم..

و قال كبير الخدم أيضًا لجدي:

ـ هذا هو القانون الأول في القوانين الأربعة التي استهنت بها، الخير والشر لا ينقضيان بموت أصحابهما ويبقيان في نسلهما، والطمع لا ينتهي وكذلك الثأر.

وكانت آخر عبارات الجد المسكين:

ـ لعنة الله على البرتغاليين والحرب، وعلى السحرة والطمع.

* * *

وفي وجوم ودون أن أرفع عينيّ عن كبير الخدم، قال والشروق ينبعث ثقيلاً مزرقًا أكثر قتامة من المعتاد:

ـ الآن عرفت القانون الأول، والثاني والثالث يتعلقان بعالمنا وحمايته، أما الرابع فهو ما يعنيك الآن.

بدأت عيناي تتحرران بتؤدة من سيطرته، ورأيت بطرف عيني الرؤوس المقطوعة كلها حولي تحملق في وجهي باهتمام مرعب للغاية، تقلصت له شفتيّ ومعدتي معًا وقد حق لهما التقلص، بينما كان السحرة الشياطين سادة العالم المحظور ينتهون من التهام الجثث التي بدت شديدة القذارة والبشاعة في غُبشة الفجر المدبر، وعيناي لا تجرؤان حتى الآن ولا تقويان على النظر إلى وجوههم المخيفة، وكبير الكهنة الخدم يواصل:

ـ يقول القانون الأخير في القوانين الأربعة: إن كشف سرنا وبعض مقادير وطقوس عالمنا، وتدنيس أرض الظلمة في غير الوقت المعلوم لدخولها، ليس له إلا عقوبة واحدة.. وهي تقديم المدنس نفسه كقربان إلى السحرة الشياطين، وحصول عينيه على حياة أبدية لكي ترى عظمة السادة، ولكي تتشرف بنيل رضاهم عن عبادتها لعروشهم، وإلا منّ عليه السحرة بشرف أقل

وعقوبة أشنع، الشرف هو حصولهم على رأسه بأنفسهم، والعقوبة التهام الرأس وإفناء روحها وعقلها وإيمانها في ذاتهم إلى الأبد.

كان انفعالي يتصاعد وذهولي يتعاظم ورهبتي تزيد، والحاجز الأخير بين الواقع والخيال يبدأ في الانهيار أمام عينيّ، ولأول مرة تجاهلت فوران عجيب للشر الأسود الذي لا ملامح له في باطني، ولشدة ذهولي واضمحلال أفكاري وانسحاق يقيني وسط طوفان الخوارق والخوف الذي أقاسيه ولا أقدر عليه ولا تقوى أذناي على سماعه فضلاً عن تصديقه، رحت أحرر بصري شيئًا فشيئًا لأتطلع إلى هؤلاء السحرة..

وراعني منظرهم، وأجفلت، وقد تيبست أطرافي..

لا يبدو أنهم رجال حقًا..

لم أر الشياطين من قبل، لكن تشبثي بذكر المغيث في قلبي وجوانحي، وثقتي العمياء منذ كنت أحيا في (الأزهر) بأن الاستعاذة تطردهم إن لم تحرقهم حرقًا، جعلني أعرف أنهم ليسوا بشياطين البتة.. على الأقل ليسوا بشياطين هذه الأرض..

كانوا ينهضون ببطء وكبرياء، ويشاركون بأنفسهم في نوع مختلف مقبض من المراسم أحاط بي لكن من أجلي أنا هذه المرة، ولقد استمر وجومي وفوران حمايتي ـ أو لنقل لعنتي ـ البطيء وتحفزها طيلة النهار، حتى جاء الفجر الثاني ومعه الباقين.. يوم كامل مر من الذهول والطقوس، الطقوس والذهول والتماوت..

يوم لا أردد فيه لهم سوى كلمة واحدة مصرة كالترنيمة، لكنها ترنيمة خاصة بي، ابتدعها عقلي المرهوب:

ـ كفرانكم لا سبحانكم!

ومع مجئ التجار نظرت لهم في ذهول بادئ الأمر وهم يرمقون العروش فقط بدهشة عظيمة، بينما يثير قلقهم نباح كلابهم المرتعب الشديد.. وكان أول من تكلم بعد دقائق طويلة من تبادل البهوت هو (محمود أفندي)، إذ صاح:

ـ يا إله السماوات.. ما خطبك يا (محفوظ)؟ ولماذا تقف بمفردك وسط هذه العروش العجيبة؟ ومن أين جئت بها؟

قلت مرتجفًا والكهنة يهمهمون من حولي، والسحرة يومئون نحوي مع كل همهة بطريقة مرعبة، وهم يدورون عكس بعضهم البعض في دائرتين، والرياح يشتد ساعدها:

ـ ألا.. ألا ترونهم؟

و أجابتني الحيرة والسلبية..

كنت بالنسبة لهم وحيدًا أرتجف على التل وسط عروش خالية فحسب، بينما أرى أنا بمفردي ذلك الهول، ويبدو أن السحرة يستعملون إحدى قدراتهم الخاصة بالإخفاء لا ريب ولا شك. صرخت مع تصاعد الفوران لمستوى غريب لم أعرفه من قبل على بطئه هذا:

ـ ابتعدوا.. ابتعدوا الآن.. إذا أردتم النجاة من السحرة الغرباء فلتهربوا كأنما تفرون من الشيطان، تمامًا كما فر الكونت (تزاروكي).

اضطربوا بشدة مع ذكر السحرة الشياطين، وابتعدوا بقلق دون حتى أن يمسوا أموالهم أو بضاعتهم، ربما لإيمانهم أنهم قد يعودون في وقت آخر من أجلها، بينما بقي المحترم (محمود أفندي) في عناد:

ـ اهرب يا (محمود أفندي).. ذلك الشر الذي أشرت لك إليه قبلاً سيطفو حالاً، اهرب أتوسل إليك قبل أن تلقى حتفك.

صعد التجار فوق عربات كلابهم التي جرتهم مبتعدة في سرعة، والتركي العنيد يردد:

ـ سنموت إن عاجلاً أو آجلاً.. ولن أخالف سيدتي (ملك جهان) أو أضحي بعلاج ابنتي.

بكيت.. سقطت عبراتي لتنسل طافية في الهواء طائرة قبل أن تمس خدي، وسط تيار الهواء القوي المتصاعد:

ـ اهرب كي ترى ابنتك.

لكنه لم يبتعد رغم شعوره بوجود أصوات مبهمة وطاقة غريبة في الجو، وتصاعدت سرعة الطقوس الرهيبة، وتحفز ما يعتري سوادي استعدادًا للتمزيق..

لكن ترى هل يمكنه أن يؤثر فيهم؟

لم يستطع جدي أن يبيدهم كلهم، إذن فسلاحه لم يكن فعًّالا مائة في المائة أمامهم..

وعندما توقفت مراسمهم الطقوسية الضالة، سألني الكاهن الأكبر بجمود:

ـ طبقًا للقانون الرابع؛ هل تقبل طواعية أن تقدم نفسك قربانًا للسادة السحرة؟

كان قوله تجسيدًا لقول خديوي خائن مستبد سيأتي فيما بعد، ليقول بشحمة لسانه:

ـ وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا.

أجبت منتفضًا:

ـ كلا.. لا ولن أعبد سوى الله الواحد الماجد.

أطلقوا خوارًا مرعبًا ومنفرًا استعدادًا للهجوم عليّ، والكاهن يقول ببرود أفعى:

ـ لقد ورثت حماية هي لنا، ولا سبيل سوى استعادتها، ولن يُمحى عالمنا ثانية على يديك.. ونحن الآن نرى وحشك يزوم ويتحفز، للانقضاض إذا ما بادرنا وهممنا بمحقك.. حقًا نراه كما يرى الحوت ضوء الشمس، وكما يرى الأطفال الملائكة!

ثم أخرج من مسوحه خنجرًا كبيرًا بالغ الحدة، كثير التعرجات، مزخرفها:

ـ خذ.. لابد أن تجتز عنقك بنفسك.. هذا فقط ما يمنع وحشك الحامي، الذي لا تستثيره إلا الأخطار الخارجية عنك، والتي لا قبل لك بها، وتؤدي حتمًا إلى هلاكك، أما إرادتك الخاصة فهي اختيارك، الذي فيه لا سلطان منه عليك.

ارتجفت شفتاي.. هاهي الفرصة التي طالما حلمت بها، ولم أجرؤ على تنفيذها، تأتيني بإلحاح، الخنجر يشي بأمنيات وأحلام، وتطهر من ذنوب، وإنهاء لجحيم أحياه، لكن العقل يعود دومًا، وغضبة الإله على المنتحرين تكرر تخويفها، يمكننا هذا، لكن ليس لنا الحق في أن نقبض أرواح أنفسنا كالمنايا:

ـ كلا.. لن تحصلوا على رأس حي جديد يعبدكم، وإن تحتم الأمر فلن يكون رأسي.. ما تفعلون إلا الثأر من جدي.. لم أر في هذا العالم من يحافظ على القوانين من أجل الآخرين، من أدراني أن روايتكم كاذبة، وأن جدي لم يكن بهذا الطمع، وأنه رأى في عالمكم ما يستحق السحق والإبادة؟

سادهم اضطراب غريب وأطلقوا صرخات حادة رفيعة جديدة، وصاح كبير الخدم والكهنة:

ـ إذن فهو شرف هجوم السادة السحرة بأنفسهم.

وبدأ الهجوم وبدأ الصراع..

و بدأ الشر..

* * *

رؤيـة

قال (أبو الربيع السائح): نِعم البلد (مصر)، يُحج منها بدينارين ويُغزى منها بدرهمين. يريد الحج في بحر القلزم، والغزو إلى (الإسكندرية) وسائر سواحل مصر.

* * *

المجرد من الوعي عار، لكني هذه المرة لم أفقد وعيي، فأغمضت عينيّ بهلع مذعور، والأصوات تشي بكل ما هو مقزز وبشع ورهيب وغير آدمي وشيطاني..

لقد تفجر بركاني الأسود عندما حاق بي الموت، وأعمل فيهم شره الشره، وانقضت مخالبه الضخمة تفرق أبدانهم، كما تفرق الفؤوس كتل طمى النيل. خرج مني بطريقة مهيبة، إذ كان في المبتدأ بداخلي، ثم تحولت حدقتاي للون الأسود تمامًا، كأنهما قدحان من الحليب استشرى فيهما حبر أسود مباغت، لم أكن أرى حدقتيّ بالطبع، لكن علمت أن هذا يحدث فيما بعد، عندما رأيته في عينا (محفوظ) الصغير، ثم رأيت هالة كضباب أسود أحاطت بعموم جسدي، تمامًا كالروح التي لا نراها، لكننا قرأنا أنها تكون محيطة بالجسد بالكامل، وليست بداخله فحسب كما يعتقد بعض العوام، وخشيت على نفسي عندما اعتقدت لوهلة أنها روحي بالفعل، وعندما تحولت لدخان أسود كثيف انطلق، شعرت بدماء الكهنة المسنين الساخنة تغمرني كالأمطار، ولكن السحرة بخوارهم الرهيب لم يصمتوا أو يضمحلوا، واستمر شيطاني الوحشي يحاربهم طيلة النهار، وأنا لا أقوى على رفع دماغي من ركوعي المرتعب، أو فتح عينيّ، وبدأت أشعر مع طول المعركة الدامية بشظايا العروش الذهبية تتحطم وتتطاير، وغرقت المنطقة في بروق مبهرة مع دخول الغروب، ومع الظلام هطلت أمطار وبرد.

غسلتني الأمطار المنهمرة من الدماء والشظايا وزادت من ارتجافي بسبب البرد والرعب معًا، اصطكت أسناني بقوة حتى كادت تختلط ببعضها أو تتحطم، بل إن بعضها أصيب بألم وخلخلة بالفعل، والأصوات الشيطانية تتحارب وتتداخل بوحشية غير بشرية أو حتى حيوانية، كانت أول مرة أحيط بخروج الشر الأسود مني رغم تشوش مشاهداتي أحيانًا، وأول مرة أظل وسط عاصفة من الصراع المخيف دون أن أصرخ بكلمة واحدة، ورويدًا رويدًا مع الجوع الشديد والبرد الرهيب والخوف الدامغ، شعرت أنني أرى ما يحدث، لكن هناك، على مبعدة عشرات العشرات من الكيلومترات..

أهو تبصّر، أم تخيّل، أم غيبوبة داهمتني؟

هل أحيا بين كابوس في المنام، وآخر في اليقظة؟

لقد رأيت الحرب!

أغرب شيء حدث لي في حياتي بدون أدنى تفسير، وكأنما صفت بصيرتي بغتة، وطفت، ورقت، وعلت، وسمت. كأنما ساح عقلي عبر سيال جوي وأثير زمني..

أرى الآن ألوية الجيوش الثلاثة غرب البحر (الأسود) في (سلسترة) و(بابا داغ) و(شوملا). إنها أحداث سابقة لكن قريبة. أوراق سير الحرب مع (إسماعيل باشا أبو جبل) قائد لواء (سلسترة) تقول: إنه في يوم ٢٣ أكتوبر الماضي، حدثت معركة عنيفة مع الروس.

لم تكتفِ الرؤية بإظهار التاريخ فقط، بل شاهدت جزءًا من تلك المعركة قرب (تورتوكاي)، كما لو أنني أحد الجنود المصريين، لكني رأيت فجأة شيئًا آخر وكأنني أحد الطوبجية ـ المدفعجية ـ بنفس اللواء، لكن يوم ٤ نوفمبر، وقد تكاثفت في السماء غيوم رمادية، بينما أسدد مدفعي تجاه فيلق روسي، يتقدم في عناد..

ثم بدأت الأحداث المستقبلية.. لقد طار هذا الطوبجي، الذي أنظر عبر عينيه إلى السماء، ليتحول إلى طائر، تمامًا كما تحوّل طين (عيسى المسيح)، رفرف بجناحيه فوق معركة بحرية ستحدث يوم ٣٠ نوفمبر عند ميناء (سينوب)، شيء ما جعلني أعرف أنها مكيدة دبرها السلطان، مضحيًا بالسفن المصرية، من أجل ضم (إنجلترة) و(فرنسا) إلى الحرب، حيث سحق الأميرال (ناخيموف) السفن التركية المصرية، فيما يشبه فخ بحري جاهز، لم يتعمد الروس نصبه، وبعد المكيدة طرت بوجه عابس في جو عابس فوق بحر هائج، لأرى (عثمان باشا قبودان) يخسر الفرقاطة (دمياط) في معركة (سينوب).

ثم شاهدت بهلع تدمير وغرق الوابور (بروانا) مع توالي سقوط عشرة سفن أخرى من سفن الدولة، أما (ناخيموف)، الجاحظ العينين، ذو النظرة المخيفة والصليب اللامع على ياقة بزته العسكرية، فقد نقل بظفر ١٢٠ أسيرًا إلى (سيباستيبول)، بعدما دمر (سينوب) ذاتها.. أرى ٨٠٠ طوبجي من لواء (شوملا)، ذهبوا إلى (طرابزون) على البحر (الأسود) المرير، لحمايتها في ١٣ يناير من العام الجديد ١٨٥٤م، بعد أن اشتبكنا مع الروس مجددًا أمام (سلسترة) في اليوم السابق، وكأنني أحيا هذا مباشرة.. وأرهق الطائر الذي أرى عبره ما يجري، لتنتقل روحي إلى قذيفة مدفع، وانطلقت القذيفة لأرى عبرها ما يحدث في (مصر) و(فرنسا) و(روسيا)! فالوالي (عباس باشا) باشة (مصر) تبرع بـ ٨٠٠٠ كيس، وتبرع نجله الوسيم (إلهامي باشا)، وكذلك (حسن باشا المنسترلي)، والموظفون بآلاف الأكياس.. وفي (باريز) العاصمة الفرنسية، عرض الإمبراطور الفرنسي (نابوليون الثالث) الوساطة لإنهاء الحرب، لكن القيصر (نيكولاي الأول) مشعل الحرب رفض في قصوره الروسية، خاصة بعد انتصارات (عمر باشا) في (رومانيا)، وقال بغيظ، ورياح صوته تكاد تطفئ الشموع من حرها ولهيبها:

ـ أشعر أن يد السلطان على خدي!

هكذا تم عقد معاهدة بين (باريز) و(لندن) في (إسطنبول) يوم ١٢ مارس، لمؤازرة الدولة.. لواء (بابا داغ) قاتلوا الروس ببسالة يوم ٢٣ مارس، وبرز الجنود المصريون عن الأتراك، وفي نفس الشهر أرسل فريق إلى (راسجراد) من لواء (شوملا)؛ لحمايتها بقيادة (سليمان باشا الأرنؤوطي)..

سينضم قائد القوات الإنجليزية الفيلد مارشال (لورد راجلان) إلى جيش الدولة، تحت القوانين العثمانية، وهو كهل أبيض رصين، أضاف بتر ذراعه الأيمن تسامحًا إلى ملامحه، بينما جنود الجنرال (سان أغنو) من الفرنسيين تهتف هتافها المعهود، ملوحين ببنادقهم الطويلة:

ـ يحيا الإمبراطور!

يرد عليهم الإنجليز ببزاتهم الحمراء:

ـ حفظ الله الملكة!

قاصدين الملكة (فيكتوريا) العظيمة طبعًا. أما في إبريل فقد وصلت نجدة ثانية من (مصر)، لكنها أُمرت بالاتجاه إلى (اليونان)؛ لقمع تمرد بولاية (تساليا)، قام به الجنرال (جاوهلا) مستغلاً حرب الدولة، والذي هاجم جزءًا من النجدة في عاصمة الولاية (يني شهر) في ٤ مايو، وكبدها خسائر، أجبرتها على البقاء طوال الحرب هناك، ورد الصاع صاعين.. حرب فرعية أخرى ليس لنا فيها ناقة ولاجمل ولا حتى ديك!

تحولْت إلى كاتب تركي له ساقان مختلفتا الطول، يكتب في سجل حربي عثمانلي بخط (الطاغوراء): (أصدرت الحضرة الشاهانية إلى الباب العالي أمرها بفرمان انضمام الأسطول العثماني بقيادة الفريق بحري (أحمد باشا)، والأسطول المصري بقيادة (حسن باشا الإسكندراني) إلى أساطيل (فرنسا) و(إنجلترة)، في البحر الأسود يوم ٧ مايو ١٨٥٤)، وقلت بلسان تركي:

ـ فلينصر الله الذات السلطانية العلية!

* * *

الآن تموجت المشاهد، وأصبحت أنظر من عيون وعقل أحد قواد المارشال (باسكيفيتش) الرهيب، وقد شننا نحن الروس، بأربعين ألف مقاتل ٣ غارات منفصلة، على حصون (سلسترة) الأمامية الثلاثة (طابية إيلانلي) و(طابية إردو) وبالذات (طابية العرب)، التي أنشأها أعداؤنا المصريون الأوغاد! يالهم من مسلمين برابرة يعتمدون على القضاء والقدر بروح جبرية غبية، لن أنسى تاريخ الباشبوزق ـ البلغار المسلمين ـ الأسود في هدم الكنائس!

ومع الغارة تحولت إلى إحدى مقذوفات ٧٢ مدفعًا ضربت (طابية العرب) بالذات يوم ٢٠ مايو، وعندما سقطت المقذوفة على الحصن، انتقلت في وهجها إلى عينيّ جندي تونسي الأصل ضمن جنود العرب، أصيب بإحدى شظايا المقذوفة، ودافع بشجاعة عن الحصن في اليوم التالي، مع تجدد الغارة، حتى سقط طربوشه، حيث هاجم الروس الحصن مع استبسال مصري شديد بقيادة (موسى باشا)، فلتحيا (تونس) و(مصر) إخوة النصر والعروبة! سنقهر إن شاء الله هؤلاء المتخلفين المتجهمين، الذين لا يعرفون عن العرب سوى (حكايات ألف ليلة وليلة)!

وعندما لقيت أنا التونسي حتفي، حل شبحي في قس روسي، واشتركت مع أقراني في تحريض ديني شديد يغلي، حيث كان ميعاد الهجوم الجديد يوم ٢٨ مايو يوافق يوم (الأحد)، فاجتاز الجنود الروس العظماء المدافعون عن الصليب خندق الحصن اللعين، وأرشدهم القادة إلى وسيلة جديدة لاختراق الحصن، ونحن نباركهم ونصلي لهم، فدخل الجنود من الفتحات المعدة للمدافع بالجبهة اليسرى؛ لمفاجأة المصريين. لقد استعان السلطان الكافر بعشرة آلاف مصري، وخمسة آلاف تونسي، ليته عكس الآية فالمصريون أشد عنادًا وحماسًا حتى من الأتراك صعاب المراس والأرنؤوط الماكرين! هذا كان واضحًا مع فشل الخطة الجديدة، فالحامية المكونة من ٤ أورط ـ كتائب ـ مصرية، و٥٠٠ أرنؤوطي ـ أو ألباني ـ بقيادة (حسين بك)، نجحت في ردنا والتغلب على المفاجأة، على نحو عجيب جدًا، كما لو أن وسط هؤلاء الحفنة البدوية الهمجية بعض من أتباع الصليب، وأبناء (المخلّص يسوع)!

هذه المرة كنت لسان ومشاعر القائد المصري (موسى باشا).. وفي منتصف ليلة ٢٩، أي اليوم التالي، قمنا بعملية رائعة ضد شراسة ودموية الروس، لقد قام الأمير (باسكيفيتش) بمحاولة ثانية

تحت قيادة باهرة، مستخدمًا ـ المجنون ـ فرقة موسيقيين تحمل الأبواق والطبول والآلات الأخرى، لكني أمرت بتكثيف طلقات المدافع وإطلاق الكور المفرقعة (القنابل)، فتراجعوا مهزومين.. لكن بعدها بربع ساعة فقط، قاموا بهجوم يائس على الجهتين الأمامية واليسرى، استمر إلى ما بعد شروق الشمس، حتى ارتدوا وسط مذبحة لم تقلل من عزمهم، لقد هددهم أميرهم الشرس بقطع تعييناتهم إذا ما فشلوا، ولقد نفذ وعيده المؤلم فبقوا نهارهم بدون طعام، ولقد تراجعوا بسرعة كبيرة، لدرجة أننا ظفرنا منهم بخمسمائة وألف قتيل، فضلاً عن الأسلحة، وعدد هائل من السيوف والآلات الموسيقية! وسألت أحد قوادي:

ـ ما خسائرنا؟

ـ فقط ٥٠ قتيلاً ومثلهم من المصابين، أما إصابات الروس التي بالآلاف، فكان من بينها الأمير (أورتشاكوف)، والكونت (أورلوف)، غير قائدين بارزين آخرين.. إصابات خطيرة ماديًا ومعنويًا.

ـ هل تعرف من الكونت (أورلوف)؟

ـ يكفي أنه كونت.. لست متيقنًا من منصبه.

ـ إنه ياور القيصر (نيكولا) ذاته.

وابتسمنا في ظفر وفخر شديدين.. وفي مجلس الحرب، الذي انتقلت إليه مباشرة في ٣٠ مايو ـ اليوم التالي ـ كأنما الرؤية تعرف المختصر المفيد، سألت (موسى باشا):

ـ ما أخبار الإمدادات يا (موسى باشا)؟ ليلة أمس فقدنا ٥٠ بطلاً جسورًا.

ـ لقد وصلت من السردار التركي (إكرام عمر باشا) بلواء (شوملا).. وهي على أتم الاستعدادات.

ـ عظيم.. سنثبت للروس الليلة أنهم مجموعة من النسوان!

دخل أحد الجنود بعد أن طرق الباب، ودفع إليّ بورقة، ثم أدى التحية العسكرية، وخرج، فرفعت بصري إليهم بعد قراءتها، وقلت بحروف مبتسمة:

ـ في هذه اللحظة الجنرال (سلفان) يتسلل إلينا بجنوده، بلا صخب هذه المرة.. سنترك (باسكيفيتش) يتلقى مفاجأة قاسية.

وأصدرت أوامري بسرعة، وعندما وصل الروس حتى الحصن ظنوا أننا لا نراهم في الظلام، فتسللوا عبر فتحات المدافع، بإصرار خنازير برية لا تتردد، هنا تفجرت في وجههم قنبلة المفاجأة بقوة المدافع، عندما هبت الأورط مضافًا إليها الإمدادات، لتذبحهم وتطردهم وتنطرهم من نفس الفتحات، بل وتعقبناهم حتى أصبنا الجنرال (سلفان) بجرح عميق مميت، عندما رآه (باسكيفيتش) شعر بالصفعة جيدًا على قفاه!

ثم أصبحت أنا المارشال (باسكيفيتش) البغيض ذاته، وسط تيار الذهول المتدفق الهادر، الذي يجعلني أكتفي بالرؤية والشعور بما عاصرته تلك الشخصيات حقيقة، ولقد شعرت بالخوف العميق كـ (محفوظ)، عندما أمرت كـ (باسكيفيتش) هاتفًا بالقادة بصرامة يوم ٢ يونيو:

ـ سنشن هجومًا عامًا على الحصن القذر، ستشارك فيه السفينة الحربية (الدانوب)، بالإضافة إلى المدفعية، لقصف (سلسترة) وحصونها، أريد أن تثبت أقدامكم ولا تهتزوا، ولو رأيتم أسودًا ونمورًا بدلاً من المصريين.

لكني لم أستطع أن أجبر أقدامهم على الثبات، وذلك عندما فاجأني المصريون بزرع ألغام تحت الأرض، جعلت جنودي يصابون بهلع رهيب، وأقدامهم تتقافز بلا نظام يمينًا ويسارًا، وبيأس صرخت فيهم وفي القادة، وأنا أشير للقسيسين كي يشتركوا معي، وأسفر الحماس أخيرًا عن قتل (موسى باشا)، فابتهجت، وتفاءلت بهذا، وأثنيت على الرجال، لكننا لم نستطع أيضًا احتلال الحصن المستعصي، كأنه مرشوش بالماء المقدس!

بدأت أعصابي تصاب بالعطب، مع عدم استطاعتي أنا المارشال (باسكيفتيش) الرهيب، الذي بلغ في ميادين الحرب شأوًا بعيدًا، احتلال حصن واحد، بسبب هؤلاء الفراعنة السمر القادمين من أرض الأهرامات الأسطورية، وواصلنا غاراتنا بلا رحمة يوم ٥ يونيو، ثم يوم ٧ بلا جدوى، وأعصابي تزداد إرهاقًا، حتى استسلمت للمرض، وللبقاء في معسكر (جيجرلي) وسط الطبيعة الرائعة، وأشجار البلوط الخلابة..

* * *

تحولت لجندي مصري صعيدي رشف من ماء خليلي (النيل)، حتى نضج ساعده الحديدي، وأكل من خبز (مصر)، حتى اشتد عوده الصلب الأصيل، وترك أرضه ومحصول القصب الشهير على موعدة، بعد تأدية الواجب الوطني أولاً، وقتال الكفار الروس في شهر (رمضان) شهر البركة والنصر إن شاء الله، وفي يوم ١٣ من نفس الشهر هاجمَنا الروس بشدة، حتى أنهم ضغطوا بكل ثقلهم على أحد السواتر، فانهار، وحاولوا التدفق كالتتار من الثغرة الناشئة، لكننا سددناها بأجسادنا، وقاتلنا باستماتة، لنحول بين اقتحامهم، بعد كل هذا الدفاع المشرف عن مدينة (سلسترة) وأهلها الصائمين، ومآذنها المرفوعة لله تدعو وتستغيث، وحسنًا فعل أحد قادتنا عندما قام بعمل كمين قرب هذا الساتر، الذي غص بقناصة اصطادوا المقتحمين، وأجبروهم على التقهقر بمصابيهم ثانية..

في يوم ٢٥ انتهى شهر (رمضان)، وفي يوم ٢٧ استعدت جيوش الحلفاء للتوجه إلى (سلسترة) المحاصرة تفريجًا لكربها في العيد، لكن في اليوم التالي انسحب (باسكيفيتش) نهائيًا شمالاً إلى (باسارابيا)، التي غنمها منا الروس عام ١٨١٢، وذلك بعد قنوطه من دحر المصريين ودخول (طابية العرب)، فابتهج أهل (سلسترة) وأيقنوا أن صيامهم قد قُبل حتمًا، أتوجد علامة قبول خير من ابتعاد أهوال الأعداء أخيرًا؟

ورأيت بعيني طائر سمان داكن سلاه الصيادون فيما رأيت، كيف أن أهل القرى قد فروا بسبب الحرب، وكان الجيش الروسي في زحفه لا يجد في القرى طحينًا أو شعيرًا أو قمحًا، فيحمل معه فوق عتاده وعدته طعامه كذلك، ولو وجد العساكر عناقيد كرز يلتهمونها بشراهة، أو مساكن خالية ينهبونها بغير كراهة، كأقل كوارث الحروب طرًا، وأبرد مصائبها شرًا..

وعندما كنت جنديًا مصريًا آخر يحادثه مراسل حربي إنجليزي، قلت مشيرًا لحصن العرب:

ـ أكلت وشربت ونمت ودخنت لفافتي وانتصرت خلف هذا السور.

فقال المراسل بإعجاب، وبتركية مكسرة:

ـ يبدو أنها كانت ليالٍ عصيبة أمام جنود القيصر الشرسين؟

ـ إن الروس الذين تقولون إنهم أقوى جيوش العالم، ما إن تدور رحى الحرب على مقربة منهم، حتى يكونوا كالنساء.. لقد ذبحناهم كالنعاج، ورؤوس القتلى منهم وآذانهم كنا نلقيها للكلاب.

دوّن المراسل كل حرف يقوله الجندي:
ـ ما الذي تتوق إليه؟
ـ كطنطاوي.. الصلاة في سيدي (أحمد البدوي).

لم يعرف المراسل السيد (البدوي)، وإن تظاهر بالفهم بلطف، وراح يلقي أسئلة أخرى على جنود من جنسيات مختلفة، شريطة أن يعرفوا التركية مثلي.. وشعرت أنني المراسل نفسه، عندما انتقلت قريحتي من الجندي إليه مع مصافحته، حيث عرفت أن حصن (طابية العرب) مبني فوق رابية لها طريق حلزوني صاعد، والرابية نفسها مليئة بالمغارات التي يختبئ بها مئات من القوة الاحتياطية الدفاعية، ولقد اشتبه الروس ذات مرة في إحدى المغارات فضربوها بآلاف القنابل، دون أن تصيب جنديًا واحدًا بأدنى أذى وذلك لخلوها، ولقد نقل المصريون ألفي قنبلة روسية لم تنفجر مما يدل على شدة السعير الذي أصلاه الروس حامية (سلسترة)، وكان المصريون لا يفرطون في شبر من الحصن، فكلما دك الروس حائطًا من السواتر بنوا ساترًا جديدًا وتحصينًا أمتن وهكذا دواليك، حتى اعتقد الروس أن التحصينات لا نهائية وراء بعضها البعض، فرغم الجحيم المستمر فقد قسم المصريون وقتهم بين الرد الناري الذي لا يرحم والبناء المستمر، وأحيانًا دفن الموتى في نفس لحظة موتهم، على حين استشرى المرض في الروس كما دلت الروائح الكريهة بخيمهم مربعة الشكل التي تركوها أثناء الفرار.. وعرفت أيضا في يوم ٧ يوليو أن السردار (إكرام عمر باشا) طرد الروس من جزر بين (روسشوك) و(جيورجيفو) على نهر (الطونة)، وذلك بعد أن انتقل من معسكر (شوملا) تحت حماية مدفعية سفينة نهرية، ورغم أنها كانت معارك متكافئة الخسائر إلا أن الروس انسحبوا فتركوا (جيورجيفو) ليلاً فاحتلتها القوات المصرية التركية في اليوم التالي ضمن معارك حرب (القرم)..

الحرب التي لم أشارك فعليًا في سوادها الأعظم، لكني رأيت تفاصيلها الآن في رؤية عجيبة..

رؤية جارفة ماحقة تركتني في صدمة عميقة مزلزلة لا نظير لها ولا شبيه..

فقط ما لم تُخبر عنه الرؤية وعرفته بعدها، أنه في ١٤ يوليو توفي الوالي (عباس باشا) في منتصف الحرب، وتولى عمه (سعيد باشا ابن محمد علي باشا) بعد صبر منه، واتجه إلى (الآستانة) ليقدم كالعادة واجب الخضوع والطاعة للسلطان (عبد المجيد) ويتناول في قبضته فرمان التولية.. الوالي (سعيد) البدين الذي كلما أصدر أمرًا يبدؤه بجملة (اقتضت مراحمنا العلية كذا..)، وكأنه شريك للرحمن الرحيم يُنزل رحمته على من يشاء ويرفعها عمن يشاء، وكان أول ما قام به مساعدة الدولة التركية في حرب (القرم)، بإرسال تجريدة جديدة بلغ حجمها قرابة ١٥ ألف جندي و٣٦ مدفعًا، بينما تتجه الحرب العالمية الدائرة وسط شتاء لم تر (أوروبة) له مثيلاً في شدته لحسم آخر معاركها في (القرم)..

(القِرَم)..

شبه الجزيرة المتدلية من شمال البحر (الأسود) غرب بحر (أزوف)، والتي تبادل التتار والعثمانيون والروس السيطرة عليها، والآن ينبغي استعادتها من قبضة الروس.. (القرم) التي انحدر منها جد (شمس الدين برقوق) صديقي وأحد أندر المماليك على الإطلاق ممن يعرفون

أصولهم، والتي ظل يحلم بزيارة عاصمتها التاريخية (مدينة الزهور) أو (بخشيساري)، وأن يفعل ذلك معي، أين أنت الآن يا ترى يا (شمس)؟

لم أكن أعرف في تلك الأثناء أن (شمس الدين) آخر المماليك والأزهري الوطني، لم يكن ممن رضخوا لتكميم الأفواه في الخوض في المسألة الشرقية، لم يكن ممن وافقوا بإذعان قهري على أن يتصدر جنود (مصر) الجيوش في مواجهة الموت بطعم روسي، وأنه ـ ذلك الثائر ـ حمّس بعض الأزهريين وعمال الطوائف للهتاف ضد الحرب، وبالمرة ضد الفساد وضد إهمال منارة (الأزهر الشريف) ودواوين التعليم، فتم حبسهم على الفور بينما وقع حكم الإعدام على واحد فقط منهم..

على صديق عمري..

عُرف أنه من أصول مماليكية فتقرر جعله كبش الفداء، ورغم أن المصريين جميعًا كرهوا التضحية بأبنائهم في حرب لا تتهدد الديار المصرية في ذاتها، ولا ناقة لهم فيها ولا جمل اللهم إلا استحسان مراحم الوالي العلية وحكمته السنية، والحصول على النياشين المجيدية الهمايونية من السلطان! إلا أن التحريض هو التحريض في عين السلطة بكل زمان ومكان، وكبش الفداء هو هو لم يعلن تذمره بعد ولن تنزاح الوصمة عنه..

هكذا قتل رجال (عباس حلمي باشا) الوطن والمملوك الأخير، فقتل الوطن (عباس حلمي باشا) وعلى يد مماليك أيضًا في قصره بـ (بنها العسل)، وشفى اغتياله غليلي شيئًا يسيرًا..

وعندما أفقت من الرؤية العجيبة الطويلة بعد صراع رهيب، قام به عني شري الأسود ضد السحرة، لا أعرف كيف بقيت عشرة أشهر هائمًا أتقدم في بطء إلى شبه جزيرة (القرم)، أحتطب كالإنسان الأول وأصطاد في عصر حجري خاص بي، لا أعي شيئًا عما مر بي وما واجهته وكيف حدث ما حدث وما الذي سيحدث!

عشرة أشهر من دوران رحى حرب مريرة، وكأنما اكتفيت بما رأيته عن بعد عن المشاركة فيها، أو كأنني احتجت لكل هذه الفترة حتى أقرر أن أعود للجيش، أو أنني لم أكن بعقل سليم كي يتخذ قرارًا من الأساس، أو أنني أولد من جديد..

عقل رأى أهوال وعاصر عجائب وغرائب، حتى رفيقي الأخير (محمود أفندي) ضحى بحياته عندما لم يسمع كلامي ويهرب، وتمزق وسط الصراع الجهنمي في أرض الظلمة اللعينة.. تمزق آخر من كان يذكرني بها.. (ملك جهان) التي رزقني الله معها بحلم حياتي الوحيد وسط كوابيس متلاحقة بلا نهاية، حلم مغزول من أيام قلائل معظمها في غيبوبة، حلم خلا من الكوابيس وانتهى بفراق تمزقت له جوانحي كل ممزق، وتمزعت له أوصالي كل تمزيع..

وكانت فترة التيه من أخصب فترات الكوابيس، ولولا وحدتي مع الجنادب والغزلان، والتهام التوت الأسود الذي يذكرني بقصة العصفور الكسيح الرقيقة المحببة، لتحولت لسفاح أو وحش بشري ذئبي لا يفكر إلا في الدم..

لولا وحدتي مع ما أراجعه من معارف أحفظها عن ظهر قلب لفقدت كياني، معارف منها ما قاله المعلم (أرسطو) عن الوحدة:

ـ كي يعيش الإنسان وحيدًا فعليه أن يكون حيوانًا أو إلهًا!

لقد أخطأت يا (أرسطو).. فأنا أكثر وحدة مما تقصد.. أكثر بكثير..

ولولا وحدتي مع النسر الأبيض لفقدت آخر خيط يربطني بآدميتي..

النسر الضئيل شاهق البياض الذي يحب البشر على نحو غريب لم أقرأ عنه من قبل. ذات صباح وسط سهول شمال البحر (الأسود)، أسقطت يمامة بآخر بارود بندقيتي قرب شجرة عالية، فهوى عليها كالجان كأنما كان يتربص بها من قبلي، فعدوت تجاهه صائحًا في حنق، فصوب بصره الثاقب تجاهي للحظة، والتقت عيناي الساخطتان بعينيه النبيلتين الحادتين اللتين امتزج سوادهما الشديد بصفارهما الذهبي وهلة، قبل أن يلتقط اليمامة في خفة ويصعد على الشجرة، حاولت قتله بدوره لكن البندقية زفرت بخواء معلنة جوعها البائس لبارود جديد، وكانت ذخيرتي قد نفدت أمس في آخر حشو لها، وفي غضب صحت به:

ـ هذا غدائي أنا.

رد عليّ بصرخة باردة لا مبالية كأنه يزجرني، وهو يقبض بحرص على الفريسة المتنازع عليها، ثم ابتعد في الهواء..

وبسوء حظ غريب لم أفلح في اصطياد شيء بالطرق البدائية وقتئذ، وكأن مهارتي في الرماية هي ما كان عوني الوحيد في حصولي على الغذاء، وفي إرهاق وجوع قعدت آخر النهار على صخرة أرقب غروب الشمس، وقد نويت أن أجعله يومًا نباتيًا رغم جهلي بمدى صلاحية ثمار المنطقة للاقتيات..

وفجأة سقطت أمامي اليمامة القتيلة.

فرفعت بصري سريعًا لأجده النسر الأبيض يفرد جناحيه العريضين وهو يحوم ببطء على ارتفاع عشرة أمتار فوقي، وللحظات لم أفهم ما يحدث ولم أستوعب الأمر، فهبط النسر أمامي على مسافة ثلاثة أمتار فحسب نافشًا جناحيه، وقبض بمخالبه على اليمامة كأنه يشير إليها وإلى أنه اضطر لالتهام نصفها تقريبًا، ثم تركها ونظر تجاهي لتلمع أشعة الغروب على حدقتيه الذهبيتين في مشهد خلاب مهيب، ثم أومأ وأطلق صرخة قوية، ثم ضرب الهواء بجناحيه المفرودين وارتفع للأعلى، وجلجلت صرخة جديدة له في الأفق كله أعادتها الجبال ورددت صداها مرارًا، قبل أن يذهب بعيدًا ويطويه السحاب.. وفي صمت تناولت اليمامة الناقصة بعد إنضاجها، وقد لاحظت أنه ترك لي الجزء المصاب بالبارود، فلم أعرف اشمئزاز هو أم مشاركة في الوجبة! وغمغمت سارحًا بكلمة واحدة:

- (رخ).

نطقت الكلمة لأتذوق نغمتها، ثم استحسنت التسمية وواصلت المضغ..

لو قصصت كل هذا في أي زمان ومكان لما صدقني أحد، الكوابيس ذات الوتيرة الواحدة، الحرب.. البرد.. الموت.. الجوع.. الشر.. السحرة.. الرؤية.. التيه..

تبدو حياة صاخبة أكثر من المحتمل..

لا تصدَّق..

لكني أكتب ما رأيت فقط، أحيانًا أكره الروائيين، فهم لا شعوريًا يعتقدون أن الكذب جبن، لهذا يكتبون رواية، ثَمة كذب مبرر هنا، وهو الكذب الذي لا محاسبة عليه، لو كنتَ روائيًا ستقرر

هزيمة جبنك من أن تكذب علانية، وذلك بالهرب إلى صفحات عدة تسوّدها بكذب غير ممقوت، بل للعجب فهو مثير للمتع في أنفس القراء، ستتغلب على جبنك هذا بشجاعة زائفة إذ إنها العار عينه!

لكني أكتب ما رأيت فقط حتى لو كان غير منطقي..

حتى طفولتي وصباي لم يكونا أكثر منطقية وهدوءًا..

في حداثتي واجهت آلامًا من نوع مختلف..

أيام الطاعون المفجعة..

اليتم..

ومؤامرات (مختار القناوي)..

اتهامي وهربي الدائمين..

شقاء الأسواق الأشبه بالسخرة..

فترة (الإسكندرية)..

لم أعرف الهناء التام الآتي بعد شبع نادر، لم أعرف المرح الكامل الذي يعقب رضا كبير..

ورغم هذا فربما كانت ذكريات الطفولة هي الشيءُ الوحيد الذي حفظ عقلي عليّ بعد عشرة الأشهر، أو أنني كنت أُعيد تسجيل أحداث حياتي حتى أُعيد التوصل إلى اللحظة الراهنة، لعلي أفهم وأعرف وأفقد خوفي وذهولي اللذين لم يفارقاني، وبالفعل عندما استعدت حداثتي بالتفصيل مستعينًا بقوة ذاكرة كبيرة ـ حتى وصلت للرؤية ولنهاية التيه ـ استوعبت ما جرى وهضمته بشكل ما رغم استحالة تصديقه إلى درجة الجنون، وتغلبت على صدمتي الرهيبة وهيامي على وجهي، وعقدت العزم بقوة إرادة على العودة للجيش وحسم كل شيء هناك في (القرم)..

عندما استعدت الماضي استعدت للحاضر والمستقبل..

فقط عندما استعدت الآتي..

* * *

ألْق

كنية الفأرة (أم خراب) ويقول (الدميري): ليس في الحيوانات أفسد من الفأر ولا أعظم منه أذى لأنه لا يبقي على حقير ولا جليل، ولا يأتي على شيء إلا أهلكه وأتلفه، ويكفيه ما يُحكى عنه في قصة سد (مأرب).

الطاعونان

قال (المسعودي): إن كل قرية من قرى (مصر) تصلح أن تكون مدينة على انفرادها.

* * *

من يمكنه نسيان (الأزبكية) وبِركتها..

لم تكن طفولتي في حارة (الأزبكية) شيئًا هينًا نائيًا عن شطآن ذاكرتي، بل بالأحرى كانت سببًا أساسيًا من أسباب عذابي، وذكريات مريرة على ما تخللها من لحيظات راحة قليلة قلة سحابات الصيف. ذكريات حُفرت حفرًا في الصندوق الخلفي من مخيلتي، والذي آن أوان فتحه؛ لعلي أعرف لماذا بدأ البدء، وعلام سار، وكيف ينتهي العمر. وآه من هذا الفتح والقص والحكي، وآه من أيام كرب وحزن، عليّ أن أعيد تجرع أهوالها، ولو على هيئة قصاصات مكتوبة، ومرسومة، في أعماق أفكاري، التي تسري فيّ كما يسري ذلك الاختراع الجهنمي المسمى كهرباء..

يبدو أنني ظللت ردحًا من الزمن أحسد ذاكرة شيخ طائفة النحّاسين الشيخ (القصبي)، الذي عمّر طويلاً حتى إنه لا يعرف عمره الحقيقي، وإن كانت ملامحه المتغضنة وأحفاد أحفاده، يشيرون إلى أنه تجاوز المائة عام بكثير، ورغم هذا فكان انتباهي ينجذب دومًا بما يقصه هذا الأمّي المهيب، من حكايات غابر الأيام، ولا أنسى مرة عندما حك الشعرة القبيحة الناتئة من أرنبة أنفه، وقال:

ـ أنت متهور كـ (علي) بك المشهور، الذي استغل حرب (تركيا) مع (الروسيا)، وأعلن استقلال (مصر)، رافضًا دفع الجزية للباب العالي، بل وأرسل قوات المماليك لفتح الشام، بعد فتح (الحجاز).

الآن لا أحسد الشيخ (القصبي) رحمه الله، لأنني أتذكر جيدًا سنواتي الأولى كأنها سنواتي الأخيرة، ورغم أنني أتذكر كل شيء عن نفسي، إلا أن أبي كان غامضًا دومًا يكتنفه جهل الأطفال، الذين لا يهتمون بمعرفة أي شيء عن آبائهم في سني عمرهم المبكرة، وذلك حتى إذا طوى الموت هؤلاء الآباء، لا يتبقى في عقولهم إلا أشباح الذكرى الباهتة، الأشبه ببخار النفس على الزجاج، إذ سرعان ما يجففه الهواء..

كل ما أعرفه أنه كان يُسمى بـ (النحّاس)، أو أنه لقب العائلة الذي التصق به، بحكم التقوّي باسم شهرة، في مهنة كهذه، وأنه كان نقيب طائفة النحّاسين. حسب النظام المعمول؛ ينتخب أعضاء كل حرفة شيخًا لهم تعينه الحكومة، ولكل شيخ من شيوخ الطوائف نقيب أو اثنان، لتنفيذ أوامره، ويلي النقيب الأسطى، ثم العريف، فالصبيان، حسب النظام المعمول. فكان أبي نقيبًا أوحد للنحّاسين، وكان حسن السمعة طيب المعشر كريم الشمائل، له من الأبناء سواي سبعة؛ أربعة صبيان وثلاث بنات. لم أعرف سر اقتنائه للكتب، فالكل كان أمِّيا، أو السواد الأعظم على الأقل في حارة (الأزبكية)، وما يحيطها من حواري (الموسكي) و(زويلة) و(القلعة) و(اليهود) و(الأزهر) و(باب الخلق) و(باب الشعرية). كان يقتصر تعليم أكثرهم معرفة على الكتاتيب والجامع الأزهر، وهم قلة..

ربما يتصل هذا السر بما كان عليه قبل التحاقه بطائفة النحّاسين، والذي لست على يقين منه، لكن ما أعرفه وأتذكره جيدًا أنه كان يقتني الكتب المتنوعة بشغف، ويجعل الصبيان منا يقرأونها، ويخفون ما تعلّموه منها عن أطفال الحارة بلا سبب واضح، فكنا نسمع ونطيع ونحفظ ما نقرأ في

سن مبكر جدًا، قبل حتى أن يفكر في إلحاقنا بالكتاتيب، وكنت بحكم كوني أصغر أبنائه الذكور الأكثر تدليلاً منه، فكان يسُر إليّ بأسرار تتعلق بمعلومات في الكتب، وبمعلومات تاريخية عدة لست أدري ما جدواها، ولماذا كان يُصر على تلقيني إياها في ذلك العمر، عندما لم أكن قد أتممت خمس سنوات خضراء من عمري بعد، مثلاً ما الذي يعنيني في التمييز بين ابن آوي وبقية الضواري؟! أو فهم بعض التركيبات الكيميائية؟! وآخر ما أوصاني به قبل الكارثة كان مكانًا قرب ميناء (بولاق) النهري، منفذ (القاهرة) التجاري على (النيل)، لابد للذهاب إليه من الوصول سباحة، وذلك حتى أخفي فيه الكتب الزائدة عن الحاجة في المنزل..

أتذكر جيدًا دارنا الأثير ذي الطابقين، والذي غادرته إلى الأبد بعد كارثة طاعون رهيب أكل ثمانين ألفًا من سكان (القاهرة) المحروسة وحدها، والتي لم تعد محروسة لهذا الحد بعد الكارثة الكبرى.. كان من حجر الآجر المصنوع في الأفران، وكان بابه الخارجي من الخشب السميك له مزلاج قوي، وقارع حديدي على هيئة كلمة (اذكر الله)، أما صحن الدار الداخلي الذي يتوسطه ذلك البئر، فكان في ركنه الأيمن المجاور للباب حظيرة كبيرة للعنزتين والدجاج والديك الشركسي ذي الريش الملون اللامع الذي يصل صياحه لآخر (الأزبكية)، وفي الركن الأبعد حماري النقل والركوب الأسود والأبيض، أما في الركنين الأيسرين فكانت تقبع الطاحونة الشهباء والفرن البلدي الرمادي..

مشربيات الدور الثاني ذات الشبكة الخشبية المعشقة والمتداخلة كانت عالية لمنع راكبي الجمال القدامى من رؤية من بالداخل من نساء، وكانت مطلية بلونين؛ طوبي وأصفر جميلين يلائمان قلل الشرب الموضوعة عليها، لكن عامة لم تكن الدار ذات رونق كبير من الخارج لكيلا تكون مطمعًا لنهب اللصوص وقت الثورات والأزمات، وهى عادة معمارية موروثة من نهايات زمن المماليك، مرورًا بزمن العثمانلية الأغبر..

على السطح كانت أمي تربي مجموعة لعينة من البط، كانت سوداء لها أعين محاطة بمساحة حمراء مرعبة، تعض وتفح بطريقة شيطانية، وتبيض بيضًا مخيفًا لونه أسمر محمر، وكنت أحيانًا ألعب على السطح مع بعض أطفال الحارة، حيث كانت منهم فتاة أهلها من الصعايدة، يسمون الواحدة من هذا النوع من البط (بِحّة) وليس (بطة)، وذلك لأن هذا البط الشرس المسمى بـ (السوداني) أيضًا يُصدر أصواتًا مبحوحة، لكني لم ألعب معها كثيرًا إذ نهرني أبي عن اللعب معها ومع كل الفتيات دون أن أفهم السبب، فلما سألت شقيقتي الكبيرة (زينب):

ـ لماذا أمرني أبي بهذا؟ إنها من الأطفال مثلنا!

أجابتني بخبث:

ـ حتى لا تتحول إلى فتاة أيها المشاكس.

ثم لعلعت ضحكتها وهي تتركني أتخيل في قلق شكلي وقد نبتت لي الضفائر، وارتديت الفساتين من فرط اللعب معها!

وفي أنحاء الدار كان يتجول متمهلاً قط أصفر جميل قبل الكارثة.. لم أكن أصدق أن القطط والهررة من الأسود، خاصة ما كانت تحكيه جارية الحاج (رفاعي) فيما بعد، لكن اتضح هذا علميًا، وقد عرفته من الكتب في النهاية، ففي إحدى قصصها وحكاياتها العجيبة ذكرت أن أهل فلك

(نوح) لما تأذوا من كثرة الجرذان والفئران، شكوا إلى سيدنا (نوح) فسأل ربه الفرج، فأوحى إليه أن يأمر الأسد فيعطس. فلما عطس خرج من ثقب أنفه الأيمن قط ذكر، ومن ثقب أنفه الأيسر قطة أنثى، فقضيا على كافة الجرذان..

أتذكر أن ميدان (الأزبكية) كان يتحول إلى بركة مياه بعد فيضان (النيل)، الذي يحل كل عام بين أغسطس وأكتوبر، على غرار بركة (الفيل) وبركة (الرطلي) وبركة (عابدين) وبركة (الناصرية)، فكانت متعة البسطاء حول وفي تلك البرك، قبل أن يتخذ الباشا ـ (محمد علي) ـ القرار بردمها، وكان من ضمن ما اتخذه من قرارات إنشاء المصانع والشونات وجلب الفلاحين من قراهم إلى (المحروسة) للعمل في مصانع الباشا، ولكن كل هذا التنظيم والإنشاءات لم يحل بيننا وبين الكارثة..

كان عام خمسة وثلاثين وثمانمائة وألف مريرًا، حلّ فيه طاعون لعين على (القاهرة)، ورغم أنني كنت في الخامسة فحسب إلا أنني لا أنسى أهوال الطاعون..

بل الطاعونين..

أما الطاعون العام فأودى بحياة الآلاف، وأوصد أبي علينا الأبواب ممتثلاً لحديث النبي صلى الله عليه وسلم، بعدم الفرار من البلدة التي يحل عليها الطاعون المهلك، وقبول قدر وأمر الله تعالى، وكنت أختلس النظر من وراء المشربية لما يحدث، رغم منعي مرارًا من التطلع للعالم الخارجي، وعندما كبرت هالني ما كنت أراه بعينيّ طفل بريئتين غير فاهمتين ولا مستعدتين لتحليل فكري كبير لما يدور أمام ناظريهما، هالني أن أمي لم تكن تذرف دمعها واصلة الليل بالنهار بسبب مرض في عينها كما أخبرني والدي، بل رعبًا وفزعًا وانهيارًا، هالني أن اختفاء أهل الحارة ـ المزدحمة دومًا ـ التدريجي، واتجاهها للخلاء التام في نهاية الأمر، وعزوف الدواب والجمال والحمير عن طرقها، لم يكن بسبب قرب حدوث فيضان كبير أعظم من كل ما سبقه ـ كما أخبرني أيضًا والدي ـ بل لاشتداد الوباء، هالني أن العربات المكدسة والمغطاة بالخرق البالية، التي كانت تمر يوميًا، والتي كانت تبرز منها معاصم وكعوب سوداء ومتقرحة، لم تكن بقايا طائفة القصّابين من الجلد والعظم الحيوانيين وخلافه، بل كانت جثثًا آدمية متعفنة..

رويدًا رويدًا كان أبي ينقل إخوتي السبعة واحدًا تلو الآخر إلى الفناء، وأحيانًا ما كان أصحاب العربات المكدسة يدخلون الفناء في صمت، وكنت أناضل وأنا أقسم لأبي أنهم أخذوا إخوتي، وأنني رأيت أذرعة وأقدام (زينب) كبرى الشقيقات و(محروس) أقصرنا و(رؤوف) أوسمنا و(فاطمة) أطولنا شعرًا و(جليلة) طيبة الطبيخ و(زكي) في طائفة الحدادين و(جمال) الأزهري؛ إخوتي، بارزة من أسفل الخرق البالية، وأنه لو نزل بنفسه إلى الفناء حيث ينامون ويستريحون كما أخبرني فلن يجدهم، كنت أقسم بشدة وأقسم بحرقة وأقسم ودموعي تطفر..

لكنه كان لا يجيبني سوى بلفت انتباهي إلى استمرار مرض عين أمي وحتمية ألا أنشغل إلا بها، وتهدأ أمي عن البكاء كلما طيبت خاطرها، تهدأ وتشرد في عينيّ وشعري الذي تمسده بعمق، لكنها كانت تقول لي دون أن أعي تمامًا المعنى المراد وقتها:

ـ اللهم لا تجعله يلحق بإخوته واجعله الوارث منا.

على أن مرض عين أمي لم يلبث أن أثر على جسدها ـ كما بدا لي وقتئذ ـ إذ ظهرت الدمامل الضخمة، والتي بدأ أبي ـ رغم تميزه بالقوة والتماسك دومًا ـ في العصبية والندب يأسًا بسببها، بل وأقدم على شيء عجيب، إذ أحضر سكينًا وشق تلك الدمامل ظنًا منه أن نزفها لمحتواها من القيح والدم، سيمنع انتشارها ونموها، واستسلمت أمي ببسالة لهذا العذاب إلا أنه سرعان ما كان الصديد يتوقف، وتبرز دمامل أقسى ملمسًا مكانها محاطة ببقع سوداء كانت أكبرها قد شملت ظهرها كله تقريبًا، وكف أبي في استسلام ورائحة أمي المريعة تتفاقم ودماملها تنتفخ، ورويدًا رويدًا منعني من الاقتراب منها، وكنت أراقب اسوداد شفتيّ أمي وتقذرهما المتصاعدين في حيرة وإشفاق، وقبل أن يبعدها أبي بيوم كان قد ازداد هذيانها، وفي اليوم التالي استيقظت صباحًا لأجد أبي فقط، وعرفت أنها لحقت بإخوتي على عربة من تلكم العربات، وبقيت مع والدي يحتضنني وأحتضنه إلى أن أمرني بعدم لمسه عندما بدأ صداعه وارتجافه يزدادان واحمرار عينيه وعطشه يتصاعدان، حتى إنني في آخر ثلاثة أيام لي معه كنت أنقل من البئر ما يقترب من عشرة أسطال من الماء لا ترويه أبدًا، ثم بدأت أعراضه تزداد حدة، حيث راح يقيء بشدة ويتسارع تنفسه ويبصق دمًا، ثم ظهرت البقع والخُرّاجات والتورمات، وانتفخ عنقه من فرط الغدد الضخمة حتى بلغ كتفيه، وأخذ يحوقل ويبسمل، ثم بدأ مرحلة الهذيان، وراح في إصراره يطلب مني أشياء غامضة على غرار ألا أستسلم عندما يصلوا لي، وأنهم لا ريب سيصلون لي! وكان آخر ما صرخ به في هذيانه:

ـ لعنة الله عليك أيها الباشا.. تأخر علينا أطباؤك.

فكان هذا أول عهدي بحقيقة ظلت بديهية بالنسبة لي، وهي أنه يجوز لعن وسب الباشا، الذي لا يزيد يدًا أو رجلاً أو مخًا عن أي رجل آخر. وكنت بعد ذلك أرى عند كل الناس أنه لا يجوز سب معالي الباشا، أو مجرد التفكير في ذلك!

كانت أيامًا ملعونة..

و سكت أبي..

و تكورت حزينًا وحيدًا إلى جواره، أقتات على جرة عسل كانت أمي تحفظها جيدًا في القش، ثم لم يعد يستجيب لنداءاتي أو يرد على أنيني، وفي اليوم التالي لصمت أبي المطبق والنهائي، أطل بشاربيه..

جرذ أسود كبير كما لو أنه أبو الجرذان أجمعين كما خيل إليّ ساعتئذ. لامع العينين كالمرايا في ضوء القمر. كان مترنحًا غير نشط يقترب بتؤدة. رحت أرمقه في حزن وهو يقترب مني بلا وجل..

ومع دنوه لمحت بقعًا قذرة بسيطة على فرائه وشعره، فأدركت أنه أصابه ما أصاب أهلي كلهم. نظر إليّ وهو يحرك فمه بتلك الحركة الدائبة، كأنه يستعطفني ويستغيث قريحتي في إيجاد حل لبلواه المؤلمة، حاولت التحدث إليه في كياسة، لكنه كان يبعد عينيه عني مرارًا متجاهلاً اهتمامي، ثم رفع يده الضئيلة ليحك بمخالبه متناهية الصغر وجهه الحزين، وفكرت فيما يمكن أن أزيل به إصاباته، وكدت أعطف عليه وأعتني به، على الأقل لن يأمرني بعدم لمسه..

هنا حدث ذلك الأمر العجيب..

لقد طرت للوراء بقوة لأرتطم ببعض الأثاث، وتُسقط ذراعي المنفلتة المتطوحة صحن النحاس الضخم، الذي كنا نفطر فيه عادة في السابق ونرص فيه الأرغفة، قبل أن أمس الجرذ، ولم أشعر بالندبة التي أصبت بها في حاجبي، فقط اعتقدت وقتها أن شيئًا ما خفيًا دفعني، لكنني حين أتذكر الآن أعرف أن شيئًا ما خرج مني فجأة هو ما تسبب في تلك الارتدادة الكبرى، هكذا التقيت بالطاعون الثاني لأول مرة..

وعندما استعدت رشدي، رأيت الجرذ وقد تمزق أو بالأصح تفتت إلى مئات الأجزاء والفتات الدموي، وحدث تشوه كبير وتخريب لكل أرجاء المنزل، كأنما هبت عليه عاصفة أسطورية أطاحت كذلك بجثة أبي ومزعتها، وخلخلت الدار من أساسها، لدرجة أنها بدأت تتداعى أمام عينيّ الحزينتين المشدوهتين؛ فجريت مسرعًا ألتقط جوال الكتب، واندفعت بخفة الصبيان إلى الحارة تدفعني غريزة البقاء الطبيعية، وقد سحبت من الفناء حمارًا؛ ملاحظًا أن الثاني قد مات جوعًا، ولحق ببقية حيوانات الفناء البائسة التي لم تجد من يعني بها، وبمجرد ابتعادي بالحمار، وكان الوقت ليلاً، تساندت حيطان الدار على بعضها دافقة فيضًا من الأتربة الكثيفة، والحمار بارز العظم يبتعد بي في لهفة خارجًا من الباب الخشبي الضخم للحارة، وكأنما لم تعد به رغبة لملازمة الموتى، أو أنه وجدها فرصة أمل لمصادفة بعض التبن الشحيح.

ومن ورائي أوصد البواب الناحل المسن الباب كأنه يودعني، لحفظ ما تبقى من ممتلكات الحارة كعادة كل ليلة. لم أكن أدري أنه آخر مرة يُغلق فيها الباب على الحارة، وأنني لن أعود هنالك أبدًا..

هكذا مدفوعًا بآخر خيوط عقلي استقامة وتماسكًا، عقلي الذي حرص أبي على تنميته لي قسرًا، وضد كل جاذبية نداهة الجهل والغفلة والسبات، خبأت الكتب في المكان السري على ضفة مرسى (بولاق)، وهمت على وجهي بحماري ساعة، وقد طفق الأخير يتشمم هنا وهناك، لعله يصادف جريدة جافة يُعيد بها فمه لجنّة المضغ والبلع، حتى التقطني درويش من دراويش الصوفية ربما، كان في طريقه إلى الجامع (الأزهر) ـ هو من طائفة مجاوري الأزهر ـ وهو يعجب من نجاتي من الطاعون الأسود، غير عالم أنني حصلت على طاعوني الخاص. أعطاني جرعة عسل من جرة كان يحتفظ بها مدفونة في جِرابه، مسدودة فوهتها بالقش الأصفر الجاف، وقال لي إنه عسل شهر (أبيب) الطيب، فلعقتها متلذذًا فرحًا، حيث كان ولا يزال العسل أفضل ما أُحب في سائر الطعام والشراب، ربما للتغلب على مذاق الحياة المر.. ومن ثم دخل بي الدرويش الحاني إلى الجامع العتيق، وبقيت هناك تحت رعايته حتى أُعلن عن انتهاء الوباء، وتقلص الجائحة، لتعود الحياة مجددًا إلى (القاهرة)، وأبدأ عملي في طائفة النحّاسين..

* * *

ألْق

قد يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الكرامات تأثير في أحوال العالم، وليس هذا من جنس السحر وإنما بالإمداد الإلهي، لأن طريقتهم ونحلتهم من آثار النبوة وتوابعها، ولهم في المدد الإلهي حظ على قدر حالهم وإيمانهم وتمسكهم بكلمة الله، وإذا اقتدر أحد منهم على أفعال الشر فلا يأتيها لأنه متقيد فيما يأتيه ويذره بالأمر الإلهي، فما لا يقع لهم فيه الإذن لا يأتونه بوجه، ومن أتاه منهم فقد عدل عن طريق الحق وربما سُلب حاله.

ذِكر صَداقات المحرُوسة

قال (القضاعي): لم يكن في الأرض أعظم من مُلك (مصر)، فإنها لو زُرعت جميعًا لوفت بخراج الدنيا بأسرها، ويوجد في (مصر) في كل شهر نوع من المأكول أو المشموم فيقال رُطَب توت، ورمان بابة، وموز هاتور، وسمك كيهك، وماء طوبة، ورميس ـ أي خروف ـ أمشير، ولبن برمهات، وورد برمودة، ونَبق بشنس، وتين بؤونة، وعسل أبيب، وعنب مسرى!

* * *

الأهواء والشهوات ليست للفقراء والحرفيين..

في (النحّاسين) وبجوار سبيل الباشا أمام منطقة مسجد (الناصر محمد بن قلاوون)، كان يحلو لي أن أسرح ببصري مليًا شاردًا متأملاً في واجهة السبيل نصف الدائرية، وفي شبابيكها المصبوبة من النحاس بأشكال زخرفية مخروطية متكررة، ويعلو كل شباك لوح رخامي بديع عليه كتابات تركية تعلوها زخارف وطرز، ويغطي كل الألواح والشبابيك رفرف خشبي محلي بنقوش مذهبة.. فلا يقطع عليّ شرودي سوى العمل كنحّاس يصقل الأواني، أو مرور العربات الكثيرة التي تحمل التراب ومواد البناء جيئة وذهابًا، مع تزايد حركة إنشاء البيوت والحواصل والوكائل والمحلات والخانات وحتى القصور، في نهضة تجارية وإنشائية وصناعية متكاملة..

في (النحّاسين) مهرت يداي في طرْق وسحب وتشكيل النحاس، ذلك المعدن الذهبي الأحمر الذي اكتشفه الإنسان منذ آلاف السنين، ويعتقد العلماء انه ظهر فى (مصر) أولاً. كان المسلمون يطلون به باطن السفن الخشبية حتى لا تتلف، ويلحمون به الحديد اقتداءً بالنبي المحارب (ذي القرنين) الذي بنى سد (يأجوج ومأجوج) من الحديد والقِطر، أي النحاس المصهور حسب المذكور والمشهور، وكان قدامى الكيماويين ينسبون النحاس لكوكب (الزهرة).. كان كل أملي أن ألمّ بكل مهن النحّاس المتممة؛ من خراطة ونشر وثقب وتسوية وصناعة القوالب، والرسم المهني الزخرفي الأمتع بالنسبة لي، حتى تصبح صنعتي بديعة وأنافس بها الدمشقيين الذين نسمع خيرًا عن خبرات سوق النحّاسين لديهم.. على أننا سبقنا الدمشقيين عندما انتشرت صناعة النحاس المزخرف والمطعم بالفضة والذهب في العصر الفاطمي، وعندما أبدع الفنان المصري في صناعة أروع الأواني والأباريق والفازات والأطباق والمعلقات، تلك المرسومة بنفائس الهندسة الإسلامية والقبطية العريقة، سواءً بالحرق أو النقش أو الدق بإبداع يدوي أصيل، وأنا أفتخر بأنني نحَّاس، ولم لا وأنا أواصل فن أجدادنا العظام لأوصله إلى أجيال لاحقة، لما لا يفخر كل حرفي بصنعته وفنه وعمل يديه وعرقه ومجهوده البنّاء والمبدع؟!

في (النحّاسين) كانت أيام ما بعد الطاعون حافلة بالأحداث، لست أدري هل تزداد الأيام أحداثًا، أم أن ذاكرتنا هي التي تحتفظ بتفاصيل أكثر؟ لكن مهما كانت إجابة السؤال، فالواقع أن ما مرّ بي من تطورات، جعلني أوقن من تسارع الحوادث بالنسبة لي على الأقل، ففي العام التالي مباشرة لطاعون (مصر المحروسة)، حلّ وباءا الكوليرا والجدري مع القادمين من الأراضي الحجازية التابعة للحكومة، لكن لم يتفشيا مثل الطاعون الأسود في (قاهرة المعز)، كما تجددت الحرب بين (تركيا) و(مصر) بعد نزعة الباشا الاستقلالية الكريمة، فيما بعد علمت أيضًا أنه في سنة سبعة وثلاثين وثمانمائة وألف أُلغيت زراعة الأفيون والحشيش، لضرر هذه الأصناف على يقظة الناس،

أما سنة تسعة وثلاثين فقد قهرت قوات (محمد علي) باشا المظفرة جيوش الدولة العثمانية الرهيبة وأساطيلها في موقعة (نزيب)، وتوفي السلطان العثماني (محمود الثاني) وخلفه ابنه السلطان (عبد المجيد الأول)، لكن انتهى الصراع الدامي وسط استحسان العامة، وذاك كان عام واحد وأربعين تقريبًا، بإعلان الباشا ولاءه لخليفة المسلمين الجديد..

في (النحّاسين) أتذكر على المستوى الشخصي ـ وبذكر صداقات المحروسة ـ ازدياد معرفتي بصبي طائفة النجّارين (مختار القناوي) من (عابدين)، وبتلميذ الأزهر الشيخ الشاب (شمس الدين برقوق) من (الناصرية)، وبالدرويش الذي اصطلح الكل على تسميته فقط بصفته (الدرويش)، من مجاوري الأزهر طبعًا.. وكان (مختار القناوي) يحذرني من صداقتي لـ (شمس الدين برقوق)، ابن أحد المماليك الفارين من مذبحة القلعة المعروفة سنة إحدى عشرة وثمانمائة وألف، وكان (شمس) يحذرني من معرفتي بالدرويش المجذوب، ومن أنني يومًا سأنجذب مثله وأفقد عقلي، وكان الدرويش يحذرني من (مختار) لشرّه الكامن وشيطنته الواضحة وغدره الدفين، لكني كنت أحب الثلاثة، فـ (شمس) وإن كان ابن مملوك إلا أنه هو نفسه ليس مملوكًا بالضبط، بل أزهريًا معتبرًا حرص على صداقتي لما رأى فيّ من نجابة ونباهة، دون أن يستطع معرفة سر كتبي كما أوصاني والدي، والتي حرصت على التزود منها بانتظام حرصي على الزاد نفسه، حتى أنتهي منها بأكملها بعد أن جرفتني الحياة بعيدًا عن دواوين الدراسة والعلم العادية، بل وبدأت في فتح مجموعة من الكتب الأصعب، المسربة والمنسوخة من مدرسة الألسن، وهي التي تخص تعلم اللغات، وبدأت بتعلم اللغة الفرنسوية..

كما أرى أن الدرويش رجل صالح كله كرامات، يعتقد أن بي سرًا لا يقوى عليه إلا المغيث! ولم يحاول مرة أن يشرح لي مقصده، وفي الماضي لم يعامل أبي درويشًا من الدراويش إلا بكل عطف وسخاء نفس وجود، وقد عاينت بنفسي كراماته وحظّه من الأولياء الصالحين المكرمين، ولم أر عليه فقدان عقل أو خبال رغم ثيابه المهلهلة وشطحات عقله ولسانه، بل قرب عجيب من الله عز وجل..

أما (مختار) الصعيدي فليس إلا ذكيًا مندفع الطموح، يحمل إمارات النبوغ ومخايل الدهاء والقيادة، وهو ينتظر أي فرصة ليثبت ذاته وقدراته، ويعجبه فيّ أنني أُخفي أكثر مما أُبدي، ويقول أنها الصفة التي تروق له بي.. في إحدى جولاتي المتبادلة معه حيث أزوره في طائفته ويزورني، قال لي وأنا عنده أراقبه يعمل:

ـ ليلة أمس لم أتوجه إلى الدار مباشرة، فقد خسف القمر؛ فعمدت إلى الصبية واشتركت معهم في الطرق على صفائح الجبن الفارغة، وقلنا الهتاف المعتاد: (يا بنات الحور سيبوا القمر يدور.. يا بنات يا حور الجنة ماتسيبوا القمر يتهنى). بعد قليل من الإزعاج والصخب ظهر أحد العسس، وأمرنا بالرحيل لأننا في شارع القلعة بالطبع، فهرول كل الصبية وبقيت أنا.

قلت له في هلع:

ـ ياللمصيبة! وماذا حدث؟

ضحك وهو ينشر قطعة من الأخشاب التي أعشق رائحة نشارتها لسبب مجهول، وقال باستهتار محاولاً إظهار قوته:

ـ لا شيء، واصلت بقية النشيد حتى ينحسر الظلام ويعود ضوء القمر (يارب إحنا عبيدك يارب.. والأمر بيدك يارب).. فضربني بسوطه المصنوع من جلد أفراس البحر كما أخبرني شيخ النجّارين الشيخ (مرتضى)، وأعتقد أنه ظنني أشكو الله منه.. انظر.

ثم كشف ظهره لأرى خطًا طوبي اللون من أثر التجمع الدموي بطول ظهره، فأجفلت فقط ليضحك هو باستمتاع أكثر على قلقي الفظيع، وقال:

ـ المهم أن القمر ظهر أخيرًا.. لكن أخبرني: هل تركت المملوك وشأنه؟

قلت بضيق لكن صبور:

ـ إن (شمس) لم ولن يكن مملوكًا لأحد، وليس ذنبًا جناه أن وُلد لمملوك، كما أن عهد المماليك انتهى تقريبًا، وهو ليس بكافر بل تلميذ في الأزهر.. أما تعرف أن (إبراهيم) باشا قام بمذبحة أخرى لمماليك الصعيد بعد مذبحة (محمد علي) باشا، حتى لم تقم لهم قائمة بعد ذلك أبدًا؟

توقف (مختار) عن الاهتمام بلوح الخشب والتفت إليّ بفضول، قائلاً بحسد:

ـ أعود لأسئلك مرارًا وتكرارًا: كيف تعرف كل هذه المعارف والمعلومات؟

مرت هنا قافلة من الأطفال تزف طفلاً يرتدي تاجًا من الريش، ويركب معكوسًا على حمار أسود يجره أحد عبيد وكالة (الجلابة)، وهم يرددون بسعادة: (يا بو الريش إن شاء الله تعيش.. يا بو الريش إن شاء الله تعيش)، فقلت له لأغير مسار الحوار:

ـ ياللجهل! يعتقدون أن وليًا صالحًا اسمه (أبو الريش) سيطيل من عمر الأطفال بهذه الزفات المتكررة.

ـ لا تبدل الحديث فأنا عنيد! لدي نفس ذكائك وأعرف كيف تتصرف عادة يا (محفوظ) وكيف تتهرب.. أكرر: من أين لك كل المعلومات والأخبار والتواريخ التي تحفظها، فلا يمسكها عليك لسانك ودومًا ما أضبطك متلفظًا بها على الرغم منك؟

ـ لو أجبتك لن تكتفي وستسألني مجددًا، وقد تعتقدني أسخر منك.

ـ جربني وأقسم لك أنني لن أسخر منك.. ألسنا أصدقاء؟

ـ سأقول لك هذا لمرة واحدة وأخيرة.. لقد تحصلت على ما أعرف من شخص واحد.. (أبو الريش) شخصيًا.

ورحلت مُخفيًا ابتسامتي التي تكاد تقفز مجلجلة كضحكة وُلدت قسرًا، وقد تركته يتساءل بالتأكيد كما أتخيل: هل ينبغي عليه ألا يكذبني مع كل الجدية التي قلت بها العبارة كي يبر بقسمه أم يمتنع عن التصديق ويكتفي بغيظه؟

في (النحّاسين) لم أكن أعرف بيتًا يؤويني، فكنت أبيت تارة في حانوت بالحي، تحت حماية ورعاية الشيخ (القصبي)، الذي يزداد هرمًا وقوة ذاكرة في نفس الوقت، فيؤويني إكرامًا لوالدي الذي كان يعمل معه في النحّاسين، وكان الحانوت صغيرًا مربع الشكل ارتفاعه سبعة أقدام وطول ضلعه أربعة أقدام يجاوره حاصل للنحاس من أكبر الحواصل[9]. الحانوت مرتفع عن الأرض بقدمين، حتى أن امتداد جزء من أرضيته خارجه كان يشكل مصطبة في الشارع يقعد عليها الأسطى مع الزبائن قبل الشراء للتفاوض والمماطلة كعادة المصريين، ولقد نوى الباشا تعكير

صفونا بإزالة تلك المصاطب من الشارع للأسف، وفي الليل كان الأسطى يُغلق عليّ المصراعين الخشبيين من الخارج والمزلاج، فأنام آمنًا على الحصير والوسادة..

وتارة كنت أبيت بين مجاوري (الأزهر) إثر تشجيع الدرويش الحنون الذي زار مساجد المحروسة الأربعمائة، حسب وصفه لتلك المساجد، والذي يفاجئني دومًا بكميات الطعام التي يُمكنه توفيرها يوميًا ولا تتوفر بنفس الكثافة في الحانوت، ولا يقول سوى أنها من عند الله المغيث، حتى إنني ذات ليلة وجدته يُحضر طبقًا صغيرًا من محشي ورق العنب بحيث يكفيه وحده، فلما رآني أخبرني بظنه أنني سأبيت الليلة في الحانوت، لكنه رغم ذلك جعلني أنتظر وغاب لحظة واحدة خارج خيمتنا، وعاد حاملاً طبقًا من البامية الويكة التى أعشقها، وبطيخة، فتعجبت وسألته:

ـ هل نسيت بقية هذا الطعام في الخارج؟

ـ كلا.. لم يكن معي منذ البداية.

ـ كيف إذن بمجرد خروجك وجدته على الباب؟ من ناوله لك؟

ـ عباد المغيث كُثُر.. من جن وإنس وملائكة.

الدراويش والصوفيون لهم دور تاريخي واجتماعي كبير في هذه النواحي من العالم، وفيما بعد وبدءًا من عام ١٨٨٠ الحافل، ستنتعش الطرق الصوفية وسيكون لمشايخهم المحظوظية لدى السلطان ذاته، الذي قربهم وأعتنى بهم لمواجهة الحركات الانفصالية المسيحية وتمرد المنظمات الأرمنية..

في ليلة جليدية الطقس أذكر جيدًا أنه عصف بنا برد، ولم يكن الغطاء الخفيف يكفي إطلاقًا لبعث الدفء، وتحرجت في الاستغاثة بالدرويش النائم بهدوء إلى جواري بلا أي أغطية يغط في نوم عميق، لكنه ما لبث أن نهض فجأة وقال لي كأنه سمع خواطري:

ـ سامحني يا (محفوظ).. نسيت أنك قد لا تتحمل مثلي.

ثم هرع إلى الخارج، وهذه المرة أسرعت خلفه لعلي أضبطه، ورأيت أن كل ما فعله أن دمدم بكلمات خاشعة لم أتبينها وسط هواء زمهرير، ثم وقف صامتًا على رأس الطريق، وبعد لحظات مر ببساطة جمل شارد يجري على غير هدى، وقد أسقط حلسه ـ برذعته ـ هنا، ووراءه صاحبه السوري يطلبه، فاستوقفه الدرويش الذي التقط الحلس، وسأله:

ـ هذا الحلس يخصك أليس كذلك؟

ـ الجمل أهم.. أرشدني إلى الجمل وخذ الحلس.

ـ ستجده محاصرًا في حارة (الحسين) التي دخلها، فبابها الآخر أُغلق الآن.

وعاد الرجل بجمله ظافرًا، وطلب من الدرويش أن يأخذ شيئًا آخر، وهو يقبّل يده بحثًا عن بركة متوقعة، لكن الدرويش رفض بصرامة ـ الأخذ والتقبيل ـ واكتفى بالبرذعة، وعاد إليّ في الخيمة الصغيرة قائلاً بسعادة عجيبة:

ـ انظر يا (محفوظ) لقد أعطانا السوري هذا الحلس الدافئ.

هكذا كنت أيأس تمامًا من إيجاد تفسير يقبله عقل لما يأتيه الدرويش من أفعال، حتى إنني لا أتحرج من دعوته بالولي الصالح.. خاصة أن هنالك من الدراويش من يأتون بأقل من هذا

وينادونهم بالأولياء..

أيضًا في مناسبة خروج المحمل الشريف الذي يتجه لـ (الحجاز) بكسوة الكعبة المشرفة وهداياها مع الحجيج منذ أيام (شجرة الدر)، قام الدرويش بموقف لن أنساه، لكنه رغم غرابته ترك فيّ أثرًا عميقًا. ككل عام صدر فرمان شريف أودع في المحكمة الشرعية باسم أمير الحج وقيمة الضرائب المتحملة للصرة الشريفة، وهكذا خرج مدفع صغير غليظ وأطلق طلقة بدء خروج المحمل من (مصر) إلى الأراضي الحجازية، ووراءه في الموكب الشريف فرقتان من الفرسان الأتراك الذين كنت أمقت صلفهم وتكبرهم ورطانتهم، ثم عدة جمال تحمل صناديق الأموال الخاصة بالحرمين، ثم جِمال كسوة الكعبة الجديدة وكسوة مقام الخليل وستارة باب التوبة، ويتخلل الموكب كالعادة فِرق الموسيقى وفِرق من ضباط الجيش لتوديع المحمل، وبعض أعضاء الطوائف ومعهم شيوخهم، وكان فيهم الشيخين (القصبي) و(مرتضى)، وأئمة المذاهب الأربعة، وطبعًا أفراد من فِرقة المغاربة، فضلاً عن جنود الحراسة المسلحين كالمتبع لاتقاء هجمات قطع الطرق من العربان، والكثير من الخدم والحشم والجمّالة والفريحية - الطبالين - والنجارين والفراشين والخيمية والسقائين، وأخيرًا مواكب الدراويش بأعلامهم فيما يقارب المائة جمل في الجملة غير الخيول والمشاة..

وفي مواكب الدراويش حدث ذلك الأمر.. فقد صرخ الدرويش فجأة وسط الموسيقى والتهليل والأناشيد وأهازيج قصيدة (البردة)، بأننا اقتربنا من الحشر وسنُحشر عرايا، وأضاف:

- هكذا!

وألحق قوله بنزع ملابسه كلها، وسار يرقص ويغني وسط الدراويش وهو عارٍ كيوم وضعته أمه، وظل هكذا حتى انتهى اليوم الأخير من ثلاثة الأيام التي يقيم فيها الموكب بسهل الحصوة شمال (المحروسة)، وعندما أنكرت عليه ما فعله لم يبد عليه أي تأثر، بل أجبرني على قراءة الفاتحة كي يصل الموكب سالمًا!

في (النحّاسين) عرفت (شمس الدين برقوق) الذي كانت تجمعني به ساعات صافيات ملهمات عديدات، حيث وجد متعته في الاستماع لمعارفي ومقارنتها بما يعرف، فكان يضيف إليّ ويأخذ مني دون أن يترك لشهوة الفضول أثرًا عليه، فلا يسألني عن مصدر علمي ومعرفتي كما فعل في المرة الأولى، بعد أن اشترطت عليه أن أتوسع معه في التباحث والتذاكر مقابل ألا يسألني عن مصدر تعليمي حفظًا لوصية أبي، بل وكان يزوّدني أحيانًا بكتب تستحق أن أضمها لمجموعتي، التي عرفت مع مرور الزمن لماذا كانت في حوزة أبي كالكنز الثمين، وكيف أنها لا تقدر بثمن بالفعل عندما كنت أقارن نفسي بـ (شمس) المتعلم النابه النابغ، الذي أنفق عليه الشيخ العظيم (رفاعة الطهطاوي) نفسه، تلميذ حضرة فضيلة الشيخ (حسن العطار) شيخ الأزهر الشريف، إيمانًا منه بموهبته النابهة وذاكرته الواسعة المطلعة طبيعية الذكاء، فأجد أنني لا أقل عنه في شيء بل إن (شمس) أحيانًا ما كان يغار مني غيرة حميدة في إطار المنافسة البريئة، عندما أسبقه في حفظ الكتب التي سلمني إياها بنفسه، لكنه وبطيبة نفس كان لا يتردد في تسليمي نسخة من كتاب هام حتى ولو لم يقرأه بعد، رغم علمه أنني سأسبقه لا محالة في فهمه وحفظه عن ظهر قلب..

إلا أن ما زاد من أواصر صداقتنا بحق، وجعلها أكثر متانة وأهمية، هو تصريحه لي بسر اعتقد أنني لن أفشيه مهما كانت بشاعته، وعندما اكتشفت أنه مجرد رفض حر أبيّ واثق الإرادة لأحوال البلاد، وتحكّم الملوك في العباد، فاجأته بآرائي الصادمة لعامة الناس عندما قلت:

ـ ما يثير حنقي أن استسلام الرعية يجعلهم رعاعًا، تصور أنهم لا يجرءون على مجرد التفكير في سبّ الباشا؟

رغمًا عنه تلفت (شمس الدين) حوله رغم أننا كنا في غرفته الخاصة في (الناصرية)، فقلت مبتسمًا:

ـ لا تقلق يا صديقي.. لن أرفع صوتي ثانية.. لكن سيأتي اليوم حتمًا الذي سأرفع فيه صوتي في كل مكان، ولو اخترقتني أسنة الرماح.

ـ وأنا سأكون معك يا (محفوظ).. هذا هو سرّي المرير.. مقتي لاستبداد الحاكم وسلبية الرعية.. إنهم لا يسبّون الباشا لأنهم تحت وطأة نزعة دينية متحكمة، مفاداها إطاعة أولي الأمر منا.. لكني كأزهري أؤكد لك أن عمرنا الذي يقترب من الخامسة عشرة، لن يحول بين فهمنا للحق والحقيقة.. ما شربناه من المجلدات والمخطوطات، تؤكد كذلك أن المفهوم الديني الصحيح لطاعة ولي الأمر، ينبغي أن يكتنفه تقويم ولي الأمر إن أصابه عوج، هذا في حالة صلاح وأهلية هذا الولي.

ـ يومًا ما يا (شمس) ستزول غمة العثمانيين وتسلط الباشا الذي يمقت العرب، رغم أننا منذ الفتح الإسلامي المبارك صرنا عربًا مسلمين، يومًا ما سنطبق مبادئ الثورة الفرنسوية العظيمة حتى لو لم تُطبق في (فرنسا) نفسها. في حقبة جديدة ربما عام ٢٠٥٢ أي بعد قرابة.. انتظر أحسبها! آه.. مائتي سنة.. ربما وقتئذ نرى (مصر) الديمقراطية العظمى التي أحلم بها.

في (النحّاسين) عرفتهم..

وفي (النحّاسين) وُلدت أولى أفكاري..

كان هذا ذكر لصداقات المحروسة فلله دَرهُّم.

* * *

9() الحاصل: أي المخزن بكلام القاهريين. (الابن)

إله الحرب

قال ابن جزي: يقول الشاعر:

لعمرك ما مصر بمصر وإنما
هي الجنّة الدنيا لمن يتبصرُ
فأولادها الولدان والحور عينها
وروضتها الفردوس والنيل كوثره

* * *

يستخرج الربيع وَرده، كما يستخرج الذاكر وِرده، ويستعد شتاء ١٨٤٨ للملمة أطراف ثوبه إيذانًا بالرحيل، وقد عانيت فيه معاناة خاصة، إذ إن الندبة التي حصلت عليها في الطاعون مع ظهور الشر الغريب من أعماقي، كانت تشتد عليّ وتؤلم حاجبي الأيمن في البرد الشديد فقط، لذا فقد أهداني (شمس الدين) العزيز طاقية صوف أصبحت من مميزات سماتي الكلية، بالإضافة إلى طول قامتي واعتدال ملامحي وهدوئي العام..

وفي مطلع مارس وبعد اضطراب حالة الباشا العقلية، صدر فرمان رسمي من الباب العالي، بتعيين ابنه الأرشد وساعده الأشد وإلـه حربه (إبراهيم) باشا والي (مكة) وحاكم الصعيد صعب المراس شديد الوطأة، وتنصيبه قائمًا على عرش (مصر)..

كان (إبراهيم ابن محمد علي) الضخم أشقر الشعر من أفضل قادة الجيوش في العالم، قاد جيوش أبيه على جواده الأبيض الضخم ذو السنابك المطعمة بحدوات ذهبية المسامير، في جزيرة العرب و(الأناضول) و(اليونان) و(السودان) و(سورية) و(فلسطين)، سحق الوهابيين وآل (سعود) الذين حاولوا السيطرة على جزيرة العرب منطلقين من عاصمتهم (الدرعية) في حملة كاملة قبل أن أولد..حملة امتدت لسنوات نزل فيها الباشا (محمد علي) نفسه (مكة) في ٦ أكتوبر ١٨١٣، ولم يُشرف (إبراهيم) على (الدرعية) إلا في ٦ إبريل ١٨١٨ حتى انتصر، ومنذ قرأت هذا التاريخ وأنا متفائل بيوم (٦ إبريل) هذا، خاصة أنني مواليد (إبريل)، وهو الشهر الذي يدرك فيه الفول ويحصد القمح في الصعيد وتظهر باكورة البامية ـ معشوقتي ـ والمشمش.

فحصل (إبراهيم باشا) على ولاية (مكة)، وحصل أبوه على لقب (خان)، الذي لم يكن يمتلكه سوى سلطان (القرم) الرصين. أخمد ثورة حرية اليونانيين في (المورة) دون أن يُفرّق بين عسكر ومدنيين في إراقة الدماء، لكن عندما طمع هو والباشا في نفوذ الأتراك في الشام، وصل جيشه الزاحف الذي لم يكن يتجاوز ٣ آلاف جندي حتى (قونية)، بعد أن فتح (سورية)، وهزم جيوش العثمانين التي كانت تبلغ ستة آلاف جندي بها، ثم زحف إلى (كوتاهية) عبر (الأناضول) مهددًا عرش السلطان (محمود الثاني) شخصيًا، وعندما دخل الأسطول المصري (قبرص) أرض النحاس، أمر السلطان شيخ الإسلام ـ أعلى سلطة قضائية ـ كي يصدر فتواه بأن الباشا عاصٍ للخليفة، ولولا مساعدة الدول الأوروبية، لكان إلـه حربه دخل (الآستانة) التي كانت في متناول الجيش المصري العنيد..

الغريب أن حملة الباشا على السلطان، جعلت (تركيا) تعقد اتفاقية دفاع مشترك مع قيصر (الروسيا) (نيكولاي الأول)، أشد أعداء الأمس واليوم أيضًا! والآن فقد الباشا رشده ولم يعد أهلاً

للولاية بعد اضطراب عقله، فتقلدها إله حربه الذي أعتقد أنه لا يصلح بدوره، فإذا كان الباشا رجل السياسة قد عمّ طغيانه كل مكان، وفاق كل تصور، ولم يشفع له إلا التقدم الصناعي والتجاري، خاصة بعد إعادة الأمن، وفتح طرق التجارة كطريق تجارة (الهند)، واتساع أرجاء البلاد الواقعة ضمن أملاكه، فماذا هو فاعل فينا رجل الحرب والدماء والقمع، رغم حكمته السياسية؟!

غير أني لم أكن أهتم لكل هذه المعامع التي تتربص بمقادير البلاد والعباد، بأكثر من اهتمامي بأحوالي الشخصية وقتئذ. دائمًا تظل رؤية الإنسان محدودة في حداثته، فلا تمتد لما هو أبعد من قريته أو بلده، حتى لو كانت هناك حرب عالمية تدور رحاها في البلد المجاور لبلده، فضلاً عن تعرضي لمشكلة طُردت على أثرها من طائفة النحّاسين العزيزة، رغم أنني كنت سأتمم هذا العام سبع سنين كنحّاس صبي، وهي المدة التي يصبح بعدها الصبي عريفًا في حفل رسمي يحضره شيخ الطائفة الذي يدعو رؤساء الطائفة - الأسطوات - وتُقرأ الفاتحة ويتم إلباسي حزامًا خاصًا بالعرفاء كما جرى العرف، وكان الشيخ (القصبي) شيخ النحّاسين يبشرني باقتراب حفل (شد الولد) الخاص بي، وأذكر أنه قال لي قبل هربي:

- البلد كلها تعمل بنظام الطوائف للحرفيين والصنّاع والعمال، والحكومة تعترف بحوالي ٣٠٠ طائفة، بالطبع كانوا زمان ٣٠ بدايةً، ولكن الآن كل مجموعة من البشر لهم طائفة، حتى اللصوص يا ولدي!

- هذا عجيب يا سيدي الشيخ.. كيف يكون لهم طائفة وشيخ طائفة؟

- ألا يجنون أموالاً؟ هكذا لابد وأن يقودهم (شيخ منصر)، وهكذا لابد أن تُحصّل منهم الضرائب.. والطوائف تحصل على حصصها من المواد الخام من الحكومة، ثم تسلمها مُصنّعة بالثمن المفروض، ورغم ما يوفره نظام الطوائف هذا من استقرار يا ولدي، إلا أنه يصبح غير طبيعي في طوائف كطوائف الشحاذين والمتصوفة والعاهرات!

- حسنًا يا شيخ (قصبي) فهمت رؤيتك، وسؤالي الأخير: متى أُصبح عريفًا؟ العريف (عبد المتعال) الذي أعمل تحت يديه مع بقية الصبية سيترقى لأنه أتمّ ٣ سنوات أنجز فيها عمله وأتقنه تمامًا، وسيصبح أسطى عما قريب.. وأنا هذا العام أكمل سبع سنين.

- قريبًا يا ولدي.. يتبقى لك أشهر قليلة، فقط تمسك بعملك ومهارتك بقوة، لأنه يصعب كثيرًا الخروج من طائفة لأخرى تبعًا للنظام المعمول به.. أنت نحّاس ابن نحّاس أصيل وماهر وستظل طوال عمرك نحَّاسا.

لكن للأسف أحدهم شعر بالغيرة من أنني سأصبح عريفًا قبله، واقتحم ليلاً الحانوت قبل أن أُغادره مع الأسطى (فتحي) والعريف (عبد المتعال)، وغافلنا سرًا قبل أن نغلقه، وكسر يد إبريق ثمين دقيق الزخارف من القبرس - أجود أنواع النحاس - كنت أعمل عليه منذ أسبوع كامل، وعندما ضبط الأسطى (فتحي) بنفسه هذا الإهمال الجسيم، لم تشفع له وساطة العريف (عبد المتعال)، وقرر أن أُسدد قيمة الإبريق المساوى بالضبط لأجري الذي كنت قد قبضته للتو، ورغم قسمي أنني لم أفعل هذه الجريمة إلا أنه رفض تصديقي واتهمني بالتخريب المتعمد، ففررت مرغمًا كي لا يسلمني للعسس، وتركت النحّاسين على كره، وفيما بعد ومتأخرًا علمت أن الفاعل كان صديقي (مختار القناوي)!

وعندما توسط لي (شمس الدين برقوق) صديق الأسطى (شلبي) بطائفة النجّارين كي أدخلها، حيث كان (شمس) وسيطًا أزهريًا بين الأسطى و(الأزهر) لإجراء إصلاحات نجارة، وبعد أن أكدت للأسطى أنني لم أدخل طائفة أخرى حتى لا يمنعني من العمل وكسب عيشي، فوجئ (مختار) بوجودي فوق رأسه، ولم ألحظ وقتها تلك الصاعقة المرتسمة في وجهه عندما رآني وعرف من الأسطى (شلبي) أنني سأكون زميله، اعتقدت أنها دهشة عادية لأنني لم أكن أتخيل أنه المتسبب في طردي من النحّاسين، وكان عليه أن يفكر في وسيلة جديدة لإبعادي بعدما بدأت أنافسه مهارةً في عمله الخاص، ورحت أنال استحسان الأسطى كصبي مطيع ونجار بارع بالفطرة..

بدأت أدرك في سن مبكر تقلبات الزمان التي لا يستقيم معها مصدر عمل ثابت، وبدلاً من قضاء أوقات طويلة مع (شمس) والدرويش و(مختار)، بدأت أرتاد الأسواق وأحاول مزاحمة العبيد في النقل والتنظيف مقابل أجر زهيد إضافي على أجر الطائفة المعقول، حتى إنهم كانوا ينبذونني في وكالة (الجلابة) الخاصة بتجارة الرقيق والعبيد لمعرفتهم بمزاحمتي هذه، وهكذا عرفت سوق (الغورية) لشيلان الكشمير والأقمشة الحريرية والأتيال الأجنبية، ومن بعده سوق (الأشرافية) الشهير للورق، بالإضافة لسوق (الحمزاوية) حيث تجار الجوخ الصارمين، وطبعًا (الجمالية) مركز تجار البن والتبغ والطباق، الذين يفخرون بأن الباشا (محمد علي) كان يتاجر في التبغ مثلهم قبل الباشوية، ويثرى منها، وسوق (السروجية) لسروج الخيل والدواب، أكثر الأسواق إرهاقًا وتعرضًا للاصطدام بالحمير البليدة والخيول العصبية، وأكثرها تعرضًا للخسائر بعد انتشار طاعون الماشية، التي نفقت بالآلاف وسط حسرة وهلع الفلاحين، أما (خان الخليلي) المكتظ بحوانيت الجواهرجية والسجاد فكنت أستبعده تمامًا، حتى لا أصادف الأسطى (فتحي)، حيث إن (خان الخليلي) أيضًا سوق النحاس الرئيسي في المحروسة..

في نفس العام وبعد أشهر قليلة، عاود المرض (إبراهيم باشا الكبير)، فمات فجأة ذلك الفاتح المقاتل الصارم، وتولى الحكم الأمير (عباس ابن طوسون باشا ابن محمد علي باشا)، أكبر الذكور حسب وراثة العرش، التي أقرت بعد فتوحات الباشا وحربه مع الدولة التركية، وفي نفس ذلك الشتاء الذي جلب للبلاد الوالي الجديد (عباس حلمي) ـ وهو اسمه المركب ـ كنت أغادر طائفة النجّارين بسبب واقعة أخرى مؤسفة دُبرت لي، بل وأغادر المحروسة كلها وأول دمعة أذرفها من أجل أرض وتراب، تسقط على كتف الدرويش وأنا أودعه مع (شمس الدين برقوق)، الذي قال لي محاولاً عدم تأجيج مشاعري:

ـ لا تحزن سنتقابل لا ريب.. ولا تنس حلمي الخاص بزيارة (القرم)، لن أزورها إلا معك.

ـ أعرف حلمك جيدًا.. ذلك بعد اكتشافك أنها موطن جدك الأصلي، وبعد قراءتنا سويًا عن عاصمتها الأسطورية القديمة (مدينة الزهور).

هنا قال الدرويش:

ـ لن تكفا عن استعراض خزعبلاتكما التاريخية، خذ يا بني.. هذا البخور واللبان لابد أن تحرقهما وأنت تدعو بالأدعية التي لقنتك إياها، وخذ كذلك هذا الحجاب الذي صنعته لك بنفسي ليقيك الشرور، حفظك المغيث.

بدت نظرة أسف في عينيّ (شمس) الأزهري الذي لا يؤمن بالخرافات، لكنه لم يشأ إفساد وداعي بالدرويش، الذي أخذت منه البخور والحجاب مبتسمًا قائلاً:

ـ سأفعل يا (درويش)، وكما قال (شمس) سنتقابل لا ريب، (الإسكندرية) ليست بعيدة.. لقد قابلت الشيخ (القصبي) سرًا، ودلني على صديقه الحاج (رفاعي) هناك، إنه لا يمكنه التوسط في الاتهام الموجه لي بين النحّاسين، لكنه ساعدني مساعدة جمّة بإرشادي لرزقي الجديد هناك.. أرض الله واسعة لكني لن أنساكما وسأعود يومًا.

لم أكن أعلم أنني لن أراهما مجددًا..

أما (مختار) فكان كريمًا جدًا معي في وداعه، إذ ساعدني على هربي وأعطاني جنيهًا كاملاً من مدخراته، لم أعرف أنه فعل هذا بسعادة ليس من قبيل الصداقة؛ بل لتخلصه مني أخيرًا، حيث كان هو أيضًا ـ كما عرفت لاحقًا ـ من دبر لي مشكلة النجّارين مع الأسطى (شلبي)..

كانت المؤامرة الجديدة هي اتهامي بسرقة كيس مالي، وكان للكيس علامة فثبتت عليّ التهمة، وبالطبع لا جدوى من محاولة الدفاع والإعلان أن أحدهم وضع الكيس في جيبي خفية، والمشكلة أن الكيس كان للأسطى (شلبي) المبرطم سريع الغضب، ولا فائدة من محاولة تبرئة نفسي فأنا مجرد صبي من الفعلة، ومما زاد الطين بلّة أن شخصًا أبلغ الأسطى (فتحي) والعريف (عبد المتعال) بمكاني، فهربت بأعجوبة على ظهر حصان لأحد اليونانيين الذي كان ناعسًا فلم يشعر بي أثب وراءه، بينما يتناهى إلى سمعي صياح الأسطى (فتحي) عن أنني هربت من النحّاسين بتهمة التخريب، فأيقنت بحكمة هروبي في الوقت المناسب فقد أقفلت من جميع الاتجاهات كلعبة (المحبوسة)، وتشبثت بمؤخرة الحصان حتى وثبت بعيدًا قرب حي (الموسكي) الراقي وأنا أفر بجلدي من الكل، وبعد توديعي لـ (مختار) قرب أحد الأسبلة عرجت على (شمس).. آخر المماليك.. وفي (الناصرية) أصرّ على مرافقتي كي أودع الدرويش في (الأزهر) كما سبق أن رويت، وبعدها ارتديت ليلاً لباسي الأسود وسبحت سرًا في الماء المظلم إلى بقعتي المعهودة قرب ميناء (بولاق)، ونزعت ذلك الحجر بجانب الضفة والتقطت الكيس الكبير من ورائه، الكيس الشمعي لحفظه من الماء والمدهون بالخل والنشادر لحفظه من الحشرات، والذي يحوي سري وكنزي من الكتب والمطبوعات في معظم المجالات، وكان آخر ما قمت به في المحروسة أن ركبت حماري القديم إلى ميناء (مصر القديمة) على بحر (النيل)، حيث دفعت أجرة المركب النيلية المتجهة إلى ثغر (الإسكندرية) عروس بحر الروم ـ الأبيض المتوسط ـ واتخذت لي ولحماري ركنًا قصيًا..

* * *

وفي ليالي السفر النيلي الطويلة كنت أأتنس بشيئين، القراءة المتعمقة الهادئة، و(النيل) العظيم الذي تعكس صفحته الرائقة ألق القمر والكواكب والنجوم، ويبدو بطميه الغزير على الجانبين كمن تأنق وارتدى أفضل حلله.. أنهيت كتب التاريخ والجغرافيا والطب والفلسفة، لم أعِ كل شيء، لكني على الأقل حفظتها كما يُحفظ القرآن، تمهيدًا لفهمها عبر الأيام والليالي، كما أنهيت أسس وقواعد اللغتين الفرنسية والتركية كذلك، أما النيل الذي كان يقدّسه المصريون القدماء، وجاء الإسلام لنعرف أنه أحد أنهر الجنة بالفعل، فقد كان يبدو أحيانًا كنهر من الألماس الأسود، والقمر يترقرق عليه ليلاً، وكنهر من الذهب المسال، وهو يتموج برقة وعذوبة، وسط شلالات من نور الشمس

الساطع، وكنت أناجيه، وأقذف من مائه المقدس بسر الحياة على وجه حماري مداعبًا، وأتبادل معه الأحاديث وأهمس له:

ـ أنت تسير مثلي يا نيل في اتجاه واحد.. تترك المحروسة فلا تراها أبدًا ثانية، حتى تلتقي ببحرك الأبيض وتصب فيه من روحك فتنعشه بعذب قطراتك.

فيأتيني صوته الرقراق من وسط تكسر موجاته الضئيلة على جانب المركب:

ـ لكنك قد تعود يا بني.. أما أنا كالزمن فلا أعود للوراء أبدًا.

ـ يا لصوتك العذب.. هل تعرف أنني كنت أسبح في بعضك عندما تفيض، فتصنع بركة (الأزبكية) أو بركة (عابدين)؟

ـ هذه أطفالي أتركها في المحروسة كي تلطف نهارها، وتسري عن أهلها، لكن ردمها قادم لا محالة.

ـ هل أوذيت كثيرًا من حكام هذه الأرض؟

ـ كدت أُصدق أن من يشرب مني لا ينسى حلاوتي، لكن نوائب الدهر جعلتني أعرف أن القادم أسوأ يا بني.. القادم أسوأ.

ثم إنني في سهري كنت أتذكر مقولة أبي الغامضة لي، التي فشلت في تفسيرها: (البشر لهم ظل واحد فقط يابني، أما نحن فلنا ظلان..فكن كالشعرة التي ينعطف حولها الضوء، فلا يجعل لها ظلاً) حكمة مدهشة ووصية غير مفهومة فشلت محاولاتي كلها في فهمها، حتى أخبرني (النيل) أن القادم أسوأ.. هكذا قُرب نهاية الرحلة حدث الأسوأ بالنسبة لي وبرز ظلي الثاني..

لقد تحرش بي بعض العربان المغاربة الأصول والركب نائم، وقد أرادوا الحصول على كتبي مقابل نصف كيس[10]، فقاومتهم بكل ما أوتيت من طاقة، وقد عزمت على أن أموت دون ترك كتب أبي بهذه البساطة بعد حفاظي عليها طوال كل تلك السنين وتزويدي لها.. لكنهم كانوا أربعة من الرجال الأقوياء، وأنا فتى لم أجاوز العشرين بعد، وقد كبلني اثنان في تلك الليلة الأخيرة قبل دخولنا محافظة (الإسكندرية)، بينما فض الآخران الكيس الشمعي القديم بوحشية، وقبضا على الكتب بشراهة بحثًا عن أموال متخيلة، فأطلقت صرخة هائلة استيقظ على أثرها باقي المسافرين، فصاح العربان على الفور:

ـ هذا السارق ذو الندبة غافلنا ونهب كتبنا، وما جزاؤه إلا جزاء اللصوص.

ومع ذكر كلمة لصوص هاج الركاب المستسلمون التاركون أمتعتهم بلا حراسة، وعبثًا لم يصدقوا أن العكس تمامًا هو الصحيح، وأنني المجني عليه ولست الجاني.. فأنا أبدو مجرد صبي من الفعلة، هكذا تقرر تقييدي وتسليمي للعسس فور الوصول، بينما حصل العربان على كنزي الأثمن، وهم يضحكون بشماتة..

كنزي الذي يحوي فيما يحوي كتاب (المجسطي) في الفلك لـ (بطليموس الإسكندراني)..

كتاب (العناصر) في علوم الرياضة لـ (إقليدس)..

القصيدة الإنجليزية (ملحمة بيوولف)..

(العجائب) الخاص برحلات (ماركو بولو) في القرون الوسطى..

مسرحية (تاجر البندقية) لـ (وليام شكسبير)..
(المأخوذات) في الفيزياء لـ (أرخميدس)..
(فن الحرب) في العسكرية والتخطيط لـ (سون تزو)..
(الفصول) في الطب للإغريقي العظيم (أبقراط)..
(الجمهورية) في السياسة لـ (أفلاطون)..
(المنطق) للفيلسوف (أرسطو) شرح (ابن رشد)..

وغيرها من الكتب والرسائل والروايات والموسوعات والمخطوطات التي حفظتها، هكذا.. يريدون الحصول عليها بهذه البساطة.. والله هذا لن يكون!

وبحركة مباغتة أفلتّ من أيدي البحارة، وانقضضت على أحد العربان وكلت له لكمة أودعتها كل الغل، وانقضضت على كتبي لأمنعهم من حيازتها وتراجعت صوب حماري، وكأنما انتظر العربان هذا بالذات مني؛ انتزع أحدهم خنجرًا من طيات ملابسه وانقض عليّ قائلاً بشراسة:

ـ هل تعتدي على أسيادك أيها الكلب الفقير.. لقد استحققت الذبح بالفعل.

و بدا أنه الموت لا محالة..

لولا أن انبث الشر من أعماقي..

لا أتذكر ما حدث، فمن شدة انبعاث الشر الأسود فقدت وعيي.. فقط آخر مشهد رأيته على سطح المركب قبل أن أوليه ظهري وأفر على حماري الذي كان الأقرب إليّ فنجا بأعجوبة، هو مشهد مجسم للموت والشر..

كانت الدماء تلطخ كل شيء وجثث البحارة المبقورين والركاب المساكين تفترش المكان، أما العربان، فقد تبقت رؤوسهم فقط، أما أجسادهم فكانت أثرًا بعد عين، وقد انساب المركب حتى وصل لوجهته عشوائيًا أثناء غيبوبتي..

كنت أبتعد عن هذا الهول ومرارتي تغرق الكون كله في نظري، حتى إنها لم تأبه للكتب ذاتها التي تمزقت شر ممزق في حمام الدم، وكأنما أغناني انتهائي من حفظها قاطبة وعدم حصولهم عليها، عن مواصلة اقتنائها..

وعندما دخل (عباس باشا) المحروسة قادمًا من (الحجاز)، كنت أدخل عروس المتوسط للقاء الحاج (رفاعي) الذي أحسن وفادتي فور علمه أنني من طرف صديقه السابق الشيخ (القصبي)، وألحقني بتجارته في العطور والزينة، وأبهجه مدى نشاطي وشطارتي الناتجة عن عملي في أسواق المحروسة وأرجاء (الغورية) وشقوق (الجمالية) وغيرها..

ومضت سنون قلائل انتشر فيها الجواسيس بين الناس حتى لا يأمن المرء جاره وصاحبه، وأغلقت المدارس ودواوين التعليم وبحّ صوت (علي مبارك) ينادي بالعلم والتعلم، انفصلت بعدها عن الحاج (رفاعي) الطيب الكريم في العمل بالعطور، كان عملاً راقيًا يجعلك تطوف (باريز) و(روما) وأشهر مدن الجمال والفن والعطور بعد أن تشم فقط أنواع الطيب، ويجعلك تتغلب على عفن هذا العهد الذي يزكم الأنوف، ببعض من روائح تأتي من حقول الجنة الخضراء، وكان من أنواع العطور ومركباتها زيت العود وزيوت الورد والياسمين والقرنفل والبنفسج، وأشباه

الراتنجات مثل العنبر والبنزوين، وكنا نستخرج العطور من الزهور والثمار بطريقة التقطير، أما الإقبال الأكبر من الزبائن، فكان على ماء (الكولونيا) اختراع القرن في مجال العطور، وتذاب العطور عادة في مادة الإيثانول الكحولية، الآن وبسبب الثورة الصناعية، فهناك تكهنات بأن العطور الصناعية قادمة، وهو ما أثار العجب في نفسي، دون أن أتخيل اختفاء وانتهاء البخور والعطور الطبيعية..

لكني تركت هذا العمل، وإن لم أترك الحاج في محل إقامتي، حيث كان قد تكرم وسمح لي بالمبيت في فناء منزله الكبير كملجأ وكنوع من الحراسة وأداء بعض الخدمة البسيطة أيضًا، وكان سبب تركي حانوت العطور بعدما استهواني الصيد في بحر (إسكندرية) بمدخراتي القليلة، وأعجبني حصولي على رزق الله مباشرة من قلب الماء المالح الذي يشعل الجروح، من على سطح مركب مشتركة كل صياد فيها له شبكته الخاصة.. رزق في بحر مفتوح بعيدًا عن شر اليابس ونقمة الحاكم، لا يحدني سوى أفق لا نهائي، ولا تؤطرني سوى سماء بلا حدود تلتقي عند الأزرق..

وكما تقول الأساطير الإغريقية، حتى دوت طبول وأبواق إله الحرب..حرب الشرق..

وانضممت للأسطول البحري..

* * *

10() جنيهان ونصف.

نـهر الذكرى

قال أبو عبد الله ابن محمد اللاواتي (ابن بطوطة): ثم وصلت إلى مدينة (مصر).. هي أم البلاد، وقرارة فرعون ذي الأوتاد، ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة، المتناهية في كثرة العمارة المتناهية بالحسن والنضارة، ومجمع الوارد والصادر، ومحل رحل الضعيف والقادر، وبها ما شئت من عالم وجاهل، وجاد وهازل، وحليم وسفيه، ووضيع ونبيه، وشريف ومشروف، ومنكر ومعروف، تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها. شبابها يجد على طول العهد، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد. قهرت قاهرتها الأمم، وتمكنت ملوكها من نواصي العرب والعجم. ولها خصوصية النيل الذي أجّل خطرها، وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها، وأرضها مسيرة شهر لمُجدّ السير. كريمة التربة، مؤنسة لذوي الغربة.

* * *

ودائع قلبي استعرضتها، وهذه كانت أيامي الأولى..

كان عليّ استعادتها في التيه بعد عشرة أشهر من حياة أقرب إلى الموت، طالت فيها لحيتي حتى صرت شخصًا آخر كوحش أو غول، وهكذا استعدت روحي وشحنت أحلامي ونفضت عني الموات واللعنات باستعادة ذكرياتي الأولى، عشرة أشهر مرت كعشرة أسابيع أواجه فيها الوحش والسبع كما يواجه الأسد جروًا صغيرًا بفضل حمايتي أو قل طاعوني، أرى فيها الكوابيس وتضنيني ليالي الصدمة العميقة، أيام تشبه بعضها وأشهر لا فارق بينها، عرفت فيها الكثير عن معنى الجرأة والشجاعة، باختصار حتى ولو كانت شجاعة زائفة قائمة على حراسة سوداء، فقد زال عني الخوف نهائيًا من السباع والوحوش والمرض وحتى الجيوش العارمة، وبكل مرة كانت الحماية السوداء تتدخل، كنت أرى ما يحدث هذه المرة، بعدما ولى زمن فقدان الوعي والضعف والجبن عن المشاهدة، كنت أرى بعيون جامدة لا ترى وآذان رهيفة لكن لا تسمع، أرى الدم والهول والرعب والدخان والدوامات السوداء الساحقة لكل شيء ما عداني..

كنت وحيدًا لكن لست منبوذًا، المنبوذ أسوأ بكثير، وهو في (قوانين مانو) الهندية نتاج الزنا والجريمة، الذي لا يجب أن يمتلك من اللباس سوى المزق التي انتزعت من جثث الموتى، ولا من الأواني سوى الخزفية المكسورة، ولا من الحلي سوى الخردة، ولا ينبغي أن يكون لهؤلاء المنبوذين احتفال قداسي سوى تعبّد العفاريت الشريرة. يجب أن يتيهوا من مكان إلى آخر باستمرار ويحرم عليهم استعمال اليد اليمنى في الكتابة، ولو كنت منبوذًا فسأكون أول من يُشعل ثورتهم.. ثورة المداسين والتعساء والشوه..

وكما رأيت في الرؤية عن وضع الحرب لأوزارها هناك في أرض أجداد (شمس الدين برقوق)، توجهت بهمتي الطاردة للبلادة، وكامل قواي العقلية وأوجها المستعادة، إلى (القريم) أو (القرم)، بالنيابة عني وعن (شمس)، الذي ما فتئ أيام المحروسة يتمنى أن نزورها معًا، ونقف على أطلال مدينة (الزهور) الحالمة القديمة، كما لو كنا أحفاد الرحالة الشهير (ابن بطوطة)..

(القرم) كانت كما قرأنا سويًا أنا و(شمس الدين) على صوت ارتشاف الشاي بالنعناع، خانية شعبها من التتار المنحدرة أسلافهم من أصول تركية وطورانية، ونشأت هذه الخانية في القرن الخامس عشر وارتبط تاريخها بالإمبراطورية العثمانية، وبلغت شأنًا عظيمًا وشأوًا بعيدًا عندما

ازدهرت ثقافتها وآدابها في القرن السادس عشر، لدرجة أنها كانت تشكل تهديدًا مباشرًا للروس عندما أشعل تتار القرم (موسكو) بالنيران في عام ١٥٧١م..

وبسبب الهجمات التتارية المتكررة على إمارة (موسكو) أعلنت (الروسيا) الحرب على الدولة التركية التي تشمل خانية (القرم) برعايتها عام ١٧٣٥ ولمدة أربع سنوات، أحرقت فيها مدينة (بخشيساري) أو مدينة (الزهور) العاصمة التتارية الأسطورية الرائعة، مدينة الفن وضحكات الحسناوات وعبق الزهور وأصالة الشرق، وفي عام ١٧٧١ تكررت الحرب ونجح الروس في طرد الأتراك من شبه الجزيرة، حتى جاء عام ١٧٨٣ الذي وقعت فيه الإمبراطورة (كاترين) مرسومًا ضم (القرم) وجزر (تامان) وإقليم (كوبان) إلى (الروسيا)، واستيطانها، لتثبيت الأقدام الروسية الخشنة في شمال البحر الأسود الكئيب..

وتأسست قلعة (سيباستيبول) الروسية التي تحولت إلى ميناء كبير وقاعدة لأسطول الإمبراطورية الروسية، أسطول استطاع هزيمة الأسطول التركي بالضربة القاضية عند محاولة العثمانيين استعادة (القرم) القرن الماضي عام ١٧٨٨ ضمن الحروب التركية الروسية المعتادة..

والآن في شهر سبتمبر ١٨٥٤ وبعد ستة وستين سنة، تبدأ جولة جديدة بين الخصمين اللذين اتحدا مرة استثنائية ونادرة فقط ضد (مصر) الباشا المرهوبة الجانب قبل أن يعودا لخصومتهما القديمة، وتتوغل الحرب في غيها لوضع نهاية حاسمة. ترى من يفوز بسهوب (القرم) هذه المرة الأتراك أم الروس؟

على أنني وقبل معرفة الإجابة واصلت استنفار ذاكرتي واستعادة حياتي وآدميتي، في طريقي إلى (القرم)، والذي وجدت فيه للغرابة جواد الكونت (سانت جيرمين)، لكن بلا أثر للرجل الغامض نفسه، والذي اختفى فجأة كما ظهر فجأة منذ ١٠ شهور، فاستعنت به لمواصلة طريقي الطويل مواصلاً ذكرياتي التي تسارعت مع تسارع وتيرة رحلتي بحصولي على الجواد..

استعدت في طريق الذكرى أحد حواراتي مع زميل الجندية والبحرية (إدريس) النوبي المصري الأصيل، وحديثه الشجي عن محبوبته سودانية الأصل (جميلة).. كان (إدريس) أروع نوبي يمكن أن تقابله في حياتك، بصوته العندليبي الذي تغار منه كل العنادل، وسمرته المائلة للون القمح تتحدى لون السنابل، وعقله الرزين الحكيم الذي يضاهي ألف عاقل..

قال لي في ذلك الحوار بينما نجمع بعض الأحبال لنصنع بها كتلاً منتظمة سهلة السحب والفك على (جويليت الصاعقة):

ـ أعرف أنك تفضل (مجاهد) لفطرته وتلقائيته، وتحب في (عبد القاسم) حبه للحياة والحرية ومقته للظلم والجور، فماذا عني يا أخي (محفوظ)؟

ـ (إدريس).. لقد رفعتك صفاتك عندي مكانًا عليًا يا صديقي، أنت شاعر والشاعر رقيق، وعذب الصوت وعذوبة الصوت من عذوبة الروح، ولا تميل للقتل والعنف رغم التجنيد وهذا يعني أنك مسالم، فكيف لا أحب مسالمًا عذب الروح رقيقًا؟

ثم رتبت حبلاً مبعثرًا جديدًا على شكل دائرة سهلة التعليق، مواصلاً:

ـ أوتدري؟ أحيانًا أنسى ما حولي عندما تغني ذاكرًا محبوبتك.. ربما لا يمكنني التعبير مثلك بالشعر عن الحب، ربما لأنني لم أحب بعد أو لعدم قدرتي البلاغية، فيعوضني شعورك أنت

الحقيقي بحبك لـ (جميلة) عن شعور مراهق ينتابني، يبدو زائفًا لكنه ينتظر فرصته في أي وقت.

ـ الحب الحقيقي يجعل من الألثغ شاعرًا طليقًا يا أخي، ولو رأيت (جميلة) والتماع عينيها وبسمة شفتيها وسمرة وجنتيها، لألقيت معلقة أو ألفية كألفية (ابن مالك)، إنها فقط روحك الوثابة لكل ما هو شاعري ولطيف ورقيق. سأعيد على أسماعك أغنيتي عنها طالما أعجبتك الكلمات.

وأنشد أغنية رائعة بصوته الملائكي البديع، الذي ينافس صوت (عبده الحامولي) بلبل الأفراح وربّ الطرب الشرقي على العموم في أيام الخديوي (إسماعيل)، والذي يجعلني أظن أن النوبيين كلهم ذوي حناجر ماسية رخيمة، وسأذكرها باللهجة العامية المصرية حتى لا تفقد معناها الطبيعي الشعبي البسيط والجميل في نفس الوقت، على أن تتخيل أنت اللحن وتكرار المقاطع.. غناني (إدريس) وقتها:

ـ (لما يجيني الليل بحضن سماك وأنام..

يا أم العيون نيلي.. ترسمني ضي حزين يشكي على ليلي..

يا أم العيون سود مرسومة بالكحلة، والقلب دنيا براح ومركبك حراس.. تخديني من حزني وتجدفي بيا، وديني لبلادي على ضفتي التانية..

أنا الطير اللي ماله حدا غير شط نيل صافي، وزقزقة عصافير في صوتك الدافي، يرجعوني صبي من غير هموم ولا حزن..

يرجعوني بهي الطلة.. يا جميلة.. يا سمرا بعيون سود، وقلبك وطن.. قلبك شوارع، ببان بيوت، وكل الأماكن مننا.. إحنا..

في ليل الغربة يا جميلة)

بعد أن شنف آذاني بعذب غنائه، كنت أشعر يومها أنني أطير..

بلا هدف أو كيفية بعينها، فقط أطير..

الآن كلما طاف بذهني شبح (ملك جهان) الرقيق تخامرني في نفس اللحظة بعضًا من كلمات (إدريس) هذه، فأدندن (أنا الطير اللي ماله حدا غير شط نيل صافي، وزقزقة عصافير في صوتك الدافي، يرجعوني صبي من غير هموم ولا حزن) فتتساقط دموع كلماتي وتسح..

بعد هذه الذكرى التي انتابتني في رحلتي وسط هواء الخريف القوي، لقيت بعض قطاع الطرق المغاوير، لكن ملاكي الحارس أو شيطاني الحارس فتك بهم بسلاسة، ولحسن الحظ كنت قد تركت جوادي يبتعد حتى لا يلتهمه الشر صدفة، ومع عودتي إلى مساري فوجئت بقرية كاملة تخرج لتشكرني على تخلصي من قطاع الطرق الذين كانوا يفرضون عليهم إتاوات باهظة، ولأول مرة شعرت بأن شري لم يكن شرًا مطلقًا عندما فتك بأولئك الأشرار، وقلت:

ـ لا يفِل الحديد إلا الحديد.. لكن هل رأيتم ما حدث؟

فأجابوني:

ـ لقد رأيناهم فقط يدخلون وراءك في الأجمة، لكننا لم نعرف أي شرك نصبته لهم، لقد قتلت المجرمين الستة بمفردك، وإن هذا لشيء عجيب نغبِطك عليه يا بطل الأبطال.

لم ينعتني أحد من قبل بهذه الصفة، ورغم أنها ليست بطولة أن تدفع عنك لعنتك أخطار الآخرين، إلا أنني أقنعت نفسي أنها مرة استثنائية لا ينبغي فيها أن أحزن عقب خروج شري وطاعوني الخاص، أو هكذا صور لي كل من غروري وفتنة شيطاني، فها هي نتيجة سوء حظ هؤلاء المجرمين لا تبدو مريرة لهذا الحد ككل مرة، لقد أصر القرويون على استضافتي ثلاثة أيام بما يليق ببطل، تاجرت فيها قليلاً لكسب مال يعوض ما فقدته لرد ما أعطانيه أصدقائي من أمانة لحظة تركي لـ (جويليت الصاعقة)، وذلك على أمل واهٍ ـ لست أعلم لم خالجني ـ أن أقابلهم يومًا. ثلاثة أيام عُدت فيها متحضرًا بعد أن قصصت شعر دماغي ولحيتي الكثيفة، وعاد جسدي لتورده بعد أطايب الطعام والاعتناء الطبي من هؤلاء الرعاة تعبيرًا عن امتنانهم بما أنجزته وكان يؤرقهم لأربعة أعوام كاملة بلا حل، وأصررت على الرحيل السريع تفاديًا لعدم نشوب أي حادث مفاجئ يعيد إخراج الشر مني، فيدمر القرية كلها ويحيل الحلم لكابوس متوقع..

وقبل دخول (القرم) مباشرة، وقد ساعدني القرويين بإعطائي وصفًا أدق للطريق إلى (القرم)، بدلاً من اعتمادي على محاذاة شاطئ البحر (الأسود) الشمالي، وكذلك ساعدوني في التنكر بملابس روسية، لحتمية مروري على مناطق مكتظة يكتنفها عسكر الروس، استعدت ذكرى أخرى تتعلق بصديق العمر وآخر المماليك (شمس الدين ابن برقوق)، ولقائه بالعلامة (رفاعة الطهطاوي)، وسط نهر الذكرى الجارف المخملي..

والجواد يتمهل بي وسط طبيعة رائعة ضربت حولي حصارًا مفاجئًا، تذكرت (شمس الدين).. الذي كان يحن لأبيه، الهارب في الصعيد من بطش الباشا وإله حربه في الماضي، ذلك البطش الذي قضى به على البقية الباقية من المماليك، بعد أن قام الفرنساويون بمعظم المهمة في معركة (إمبابة) القديمة، والتي عندما دوت فيها قذائف المدافع ورآها الناس لأول مرة في مواجهة السيوف المملوكية، صاحت الجموع:

ـ يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف!

وكان (شمس الدين) كلما زاره في (سوهاج)، يجده متكاسلاً عن الخروج لأي مكان. كان المصريون الذين يجدون سببًا للسخرية من أي شيء، ويطلقون الأسماء المستعارة على المستبدين في كل عصر تحقيرًا من شأنهم، لم يتركوا حتى الشرفاء من المماليك في حالهم على ندرتهم، ربما لسابق جبروتهم وطغيانهم، بل واستمرار بعضهم في نقاطهم الحصينة الأخيرة بالجنوب، وقد تحولت تلك النقاط والجيوب لأوكار، يأوي فيها اللصوص وقطاع الطرق، فكانوا يطلقون على الواحد منهم (عبد اللاوي)، أي لا يصلحون لأدنى شيء!

وكان من يحيا من المماليك بعد سن الخامسة والثلاثين، دون أن يُقتل في معركة، أو دفاعًا عن النفس كالعادة، يُعد محظوظًا، حتى في أيام عظمة سلطانهم في (مصر). آخر الفارين بعد اضطهاد الباشا والأتراك لهم، لم يجدوا موئلاً غير قلوب الصعايدة الطيبين، فاستقر البعض في مديريتي (أسيوط) و(سوهاج)، وقد عملوا في تجارة الرقيق المستجلب من (السودان)، والد (شمس الدين) المملوك (برقوق)، كان راضيًا بحالة الخنوع التي تسيطر عليه، خاصة أنه كان خلاصة الخلاصة من المحظوظين، إذ نجا من مذبحة القلعة، ومن المقتلة العظيمة التي أعملها الألبان والأتراك في المماليك، بل ونال رضا المصريين المسلمين الذين لم يجدوا فيه خطرًا، فلم يسلموه للقلعة حسب الأوامر، وتركوه سامحين له بالبقاء بينهم، فكان مستسلمًا لمصائر الأيام، وأقدار الزمان، إلا عندما

يحل موسم واحد بعينه لأحد الأولياء الصالحين، حينئذ يهب صحيحًا نشطًا، جامعًا كسوة شتوية وفيرة كبيرة، على غير عادة المماليك الذين يتحلون بسِمة الأخذ على العطاء، ليتصدق بها في مولد هذا الولي حتى سُميت حينها بـ (كسوة برقوق)، وتصادف أن زاره (شمس) المستبد به حنينه الجارف، في ميعاد مولد الولي منتصف شهر (أغسطس)، فرافقه إلى مكان هذا الولي الصالح بمدينة (طهطا)، ليعرف أنه الولي الشهير والقطب الرباني سيدي (جلال الدين أبو القاسم الطهطاوي)، أحد كبار العلماء سابقًا في أوائل القرن الرابع عشر فترة المماليك البحرية الغابرة، ولقد دُهش (شمس الدين) عندما وجد (طهطا) بأكملها والقرى المحيطة بها تُقيم الاحتفالات العظيمة، وحلقات الذكر، وقراءة القرآن، لمدة أسبوعين كاملين، لا ينام فيها الصغير ولا الكبير، وتُفتح فيهما منازل الشعب الطهطاوي قاطبة بكرم عربي نبطي[11] أصيل، لاستضافة زائري (أبي القاسم) بالطعام والمنام، قبل الحفاوة والترحيب الواجبين..

ويُعرف لبلدة (طهطا) فضلها العظيم أثناء حملة (نابليون الأول)، فلقد أنزل هذا الفاتح الفرنسي حملة لفتح الصعيد، فأغرق أهالي (طهطا) سفينة القيادة ببنادقهم القديمة، مما أفسد الحملة..

على أن أشد ما حرص رفيق الصبا على معرفته، هو الاستفسار عن الشيخ الأزهري العلامة (رفاعة بك رافع الطهطاوي) الذي ملأت شهرته الآفاق ـ ومازالت ـ منشئ مدرسة (الألسن) والترجمة والصحافة المصرية، مؤسس نهضة (مصر) العلمية الحديثة، وحلقة الاتصال بين الثقافتين الفرنسية والعربية، وهذا بعد تفوقه ونبوغه في البعثة العلمية الكبرى إلى (فرنسا) التي أرسلها (محمد علي باشا) سنة ١٨٢٥. وهال (شمس) ما عرفه من مدى ثراء الشيخ (رفاعة) على مستوى الصعيد كله، فظن أنه لن يتمكن من لقائه حتمًا رغم أن (رفاعة بك) كان في (طهطا) ذلك الوقت، ويئس من لقاء ذلك العالم الأزهري الكبير، الذي تلقى العلم على يديّ الشيخ الإصلاحي العظيم (حسن العطار)، لكنه فوجئ لدى عودته إلى (الأزهر)، بعقد الشيخ لندوة عامة، أمكنه حضورها، وتمكن فيها أن يسأله سؤالاً مباشرًا، خفق له قلبه من فرط الرهبة والإثارة، وهو يقف أمام تلك القامة العظيمة، قائلاً:

ـ مولانا وشيخنا وعالمنا.. أليس للوطن حق على الصغير قبل الكبير، والضعيف قبل القوى؟

في الأحوال الطبيعية كما يحدث في (أوروبة) والأمم الديمقراطية، لم يكن يشكل السؤال إلا الاستحسان وربما التصفيق، أما في ديارنا المنكوبة بحكم الفرد الذي يحتكر كل السلطات، فكان السؤال يشتمل على روح متمردة تستحق العقاب، لكن المراقبين لم ينكلوا بالفتى فورًا، بل اعتبروه مجنونًا وسيتعقل لا ريب، كما أنها المرة الأولى والفتى صغير غض، ناهيك عن أنه يخاطب الشيخ العلامة الجليل، فلا ينبغي تعكير الصفو الآن من أجل سؤال واحد متهور من الجمهور..

نعم لهذه الدرجة وأكثر كانت تدار الأمور، وكان يتم قمع الحريات، وجعل الخوض في السياسة كالمشي على الجمر، لكنهم لم يعرفوا أنها لم تكن المرة الأولى، وأن صديقي العزيز كان ثائرًا حقيقيًا، يحلم طوال الوقت بالحرية، واستحقاقات الشعب المقهور على كر العصور، وإن لم يحكم هذا الشعب نفسه بنفسه، فعلى الأقل لا يتم قمعه وتكميمه.. على أي حال تدارك العالم الأديب الشريف النسب الهمهمة البسيطة، التي مرقت في الأجواء بخفة، وأجابه بهدوء واثق، ولسان طلق بليغ:

ـ حب الوطن من الإيمان، ومن طبع الأحرار الحنين إلى الأوطان، ومولد الإنسان على الدوام محبوب، ومنشؤه مألوف له مرغوب، ولأرضك حرمة وطنها، كما لوالدتك حق لبنها، والكريم لا يجفو أرضًا بها قوابله، ولا ينسى دارًا فيها قبائله، فإني وإن ألبستني المحروسة نعمًا، ورفعت لي بين أمثالي علمًا، وكانت أم الوطن العام وولية الآلاء والأنعام، وأحبها حبًا جمًا لأنها ولية النعمى، فلازلت أتشوق إلى وطني الخصوصي وأتشوف، وأتطلع إلى أخباره السارة وأتعرف، ولا أساوي بـ (طهطا) الخصيبة سواها، في القيام بالحقوق وإكرام مثواها.

غطى الرجل بشرحه السهل ولغته الجذابة، على أي توتر قد يكون السؤال تمخضه، ونجح في براعة أن يشيح عقول رجال الوالي وجواسيسه، عن فكرة (مصر) الوطن العام المرصود، إلى فكرة (طهطا) ومدينة (القاهرة)، الأوطان الفرعية داخل الحدود، التي لا يثير حبها الريبة والقيود، وناقش عدة موضوعات دينية وأدبية أخرى مع الأزهريين والمشايخ الكبار، لكن منذ هذا اليوم أصبح (شمس الدين برقوق)، نجم الأحاديث الهامسة وسط الطلبة، الذين فهموا نواياه الوطنية، ونَجَم عن هذا فيما بعد ثقتهم فيه، وميلهم لجرأته المخلصة، وحسه الوطني الحصيف، فانصاعوا عن اقتناع لتحريضاته على الثورة، لكن ليس من أجل النهب والفساد كثورات الجياع القديمة، بل من أجل إرسال المطالب للوالي، ورفع الحق بالصوت العالي، وفيما بعد أنفق (الطهطاوي) على (شمس) ضمن من ساعدهم من الطلبة..

وكما رويت، فقد لقى (شمس) العزيز شمس الحق وشمس الوطن حتفه، بسبب وطنيته، حتى (رفاعة بك الطهطاوي) نفسه لم يسلم من بطش (عباس حلمي)، الذي غمطه حقه ونفاه إلى (السودان) مآل المغضوب عليهم في تلك الأيام الشاقة، بل وأغلق مدرسة (الألسن) منارة العلم والترجمة، ولم يعد الشيخ (رفاعة) إلى المحروسة وإلى منصبه العلمي البحت كخبير ترجمة، إلا في عهد الوالي (سعيد)..

وفي أواخر الطريق إلى (القرم) وعلى حوافها تذكرت أيضًا أيام (الإسكندرية) بين العطور المرهفة، وصيد السمك الطازج، وقصص (كاترينا) الخرافية، وكرم الحاج (رفاعي) السخي، ويود بحر (الروم) الثائر، ورسائلي إلى (النيل) الرزين ذي الطمى الغرين.. كانت أيامًا بطعم الحياة والحرية والهدوء النسبي، بعيدًا عن المحروسة المبتلاة بالقبضة الحديدية، والحكم المركزي المقيت..

وعندما دخلت (القرم) أخيرًا، توقف تلاطم نهر الذكرى الحافل وقتئذ، واقتربت أكثر وأكثر من موقع المعركة الدائرة منذ عام، ففي يوم ٢٠ سبتمبر تحديدًا من هذا العام؛ أربعة وخمسين وثمانمائة وألف، حدثت معركة نهير (ألما) بشبه جزيرة (القرم)، وفيها هاجمت قوات التحالف يقود المصريين منهم (سليمان باشا الأرنؤوطي) (منتشيكوف) وقواته، وهزمتهم بعد قتال حامٍ..

وبدأ حصار (سيباستيبول)..

فبانهيار القلعة الروسية والمرفأ القوي، ستنال قوات التحالف كعكة (القرم) بسهولة، وبالتالي تبعد (الروسيا) عن أطماعها في المنطقة لعدة عقود، وعندما وصلت مشارف (سيباستيبول)، وصكت أسماعي بقوة انفجارات قذائف البوارج، والكور المفرقعة، ودويّ البارود، استنفرت الجندي الوطني (محفوظ النحّاس)، الذي قطع عشرات الكيلومترات من أجل نصرة ورفعة بلده، حتى لو لم

يكن متأكدًا مائة بالمائة أنه يحارب في سبيل بلده الحقة، لكنه على الأقل يحارب بنية صادقة وعزيمة قوية، الجندي الذي فرق قدره بينه وبين المعركة سنة بأكملها، واجه فيها ما لم يتخيله، ولا يحب أن يقربه..

وخضت المعركة بنفس الزي الروسي، محدثًا أكبر قدر من الاضطراب وسط الصفوف الروسية، وذلك قبل أن أنكشف، داعيًا المولى عز وجل ألا أعرف بسرعة قبل إحداث أكبر كمّ من الخسائر، وقبل أن أحصل على نفس الفرصة لكن بوجه مكشوف، ووسط الصفوف المصرية هذه المرة، والغريب أنني لم أنتبه حينها لمدى القصور الأمني والعسكري الرهيب في صفوف الروس، الذين كانوا على ثقة بأن العدو التركي المصري الإنجليزي الفرنسي السرديني المشترك، لن يهاجم من الشمال إلى الدرجة التي تكفي لوضع محاذير بسيطة تكاد تكون معدومة، درجة سمحت لي بالاندساس بينهم رغم خطورة موقفي الشديدة، بل واستبدال بندقيتي الفرنسية العتيقة بأخرى روسية حديثة، لمجرد أنني ظاهريًا روسي الملبس، ولكني كنت أشعر بخاطر غريب اليقين، أنه طالما مثلت أنني أصوب تجاه الأتراك وقوات التحالف، فسيشك الروس أنني روسي مخلص، لو ظللت لا أحتك بهم كلاميًا على الأقل..

وهو ما حدث بحذافيره.. كانت المعركة تدور وسط هجوم متكرر، من قوات التحالف، على قلعة (سيباستيبول)، من البر والبحر، وكانت الحامية الروسية بقيادة الأميرال (كورنيلوف) تحتشد، وتقاتل بشراسة وهياج مدركة استراتيجية موقع القلعة الحساس بالنسبة للسيطرة الروسية على (القرم) كلها، ومن ثم البحر الأسود بأكمله، وكنت أتظاهر بالتصويب نحو أعداء الروس لكني كنت أطلق النار عليهم من سلاحهم، حتى اختبأت في خندق أرضي خالٍ متحاشيًا قائدًا روسيًا يقترب، كان يوزع الأوامر بلغته التي أجهلها، حتى مع إجادتي التامة للفرنسية، كنت لا أميز إطلاقًا الروسية، التي ترجع للّغة الآرية الأم، ولكن باغتني في الخندق الأمامي جندي مصري من طلائع المتقدمين الأشاوس، وعندما التفت بسرعة إليه شاعرًا بتوتر الشر بداخلي، ولا يقلقني إلا تحول المكان لجحيم أسود أنا مصدره، هتفت في ذهول:

ـ من؟ (مختار القناوي)؟

ها هي الذروة تقترب..

ولا يسعني إلا أن أتمنى ألا تكون مميتة..

* * *

11() النبط: قدامى العرب العاربة، سموا بهذا لمهارتهم في إنباط الماء من الأرض المجدبة، كانت عاصمتهم الشمالية (سلع) والجنوبية (الحجر)، أول ملوكهم (حارثة الأول)، وكانوا يكتبون بالآرامية لكن يتكلمون العربية، هاجروا فتفرقوا وسكنوا شمال شبه الجزيرة العربية، وشرقي (مصر). (الابن).

الحبيب والوطن

قال ابن خلدون: ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد (مصر) لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت، ومن جملتها تعليم العلم.

* * *

بنظرة أخيرة منها فوق الجواد الأبيض بردائها الأبيض قالت كلمة واحدة:

ـ إلى اللقاء يا (محفوظ).

* * *

العقول عندما تُنهك لا تتذكر، لكن آه من ذكراك أنت تحديدًا يا (مختار)..

هذا الصعيدي الجذور من أحفاد قبيلة (بني عدي) العربية في الصعيد، التي تعد قبيلة قرشية مضرية ينتسب إليها الفاروق (عمر بن الخطاب)؛ لهذا سميت في (إخميم) ونواحيها بـ (أولاد عمر). هذا الصعيدي كانت له ذكرى ومازالت تُلهب باطني بشجون ما بعدها شجون، وحنين يمتزج بالمرارة فيفيض حتى يملأ جوانح عاطفتي، التي لا تعرف هل تغفر له أم تنقم عليه أم تعفو عما سلف..

هذا الصعيدي الذي يحمل بين خطوط جبهته المحفورة من صلابة الزمن ذكاء الصعايدة وبأسهم، وأصالة العرب وسموهم، وأيضًا مكر وخبث الفلاحين الموروث مع توالي الطغاة، لا يقدر عقلي المنهك على أن ينسى يوم لقائه في ذلك الخندق الروسي القذر أثناء تقدم قوات التحالف في معركة حصار (سيباستيبول) الحاسمة والفيصل بحرب (القرم) العالمية..

للوهلة الأولى كان مكفهرًا عازمًا على القضاء عليّ أنا المحشور في لباسي الروسي المخادع، لولا أن هتفت باسمه مدهوشًا أيما اندهاش، فارتج عليه الأمر وتوقف عن إشهار بندقيته، وبدأ حاجباه ينفكان من تقطيبتهما ببطء، على أنه لم يستمر في ارتباكه طويلاً، إذ انقض عليه روسي عملاق كالدب الذي لاقيناه في (بلغار) أنا والمرحوم (محمود أفندي)، وطوقه من الخلف بعدما أطاح ببندقيته بضربة واحدة، ونظر لي بلهفة وهو يقول عبارة بالروسية، فأومأت له متظاهراً بالفهم وأنا أتحرك نحوهما مسرعًا، فابتسم العملاق شامتًا وهو يقول لـ (مختار) شيئًا ما بلهجة متشفية، فلما وصلت إليهما رفعت كعب بندقيتي عاليًا، فلم يشك الروسي في أنني سأسحق غريمنا المشترك كما بدا له، لكنني أطحت بأنفه هو فترنح لحظة والأرض تميد تحت قدميه، وتخلص منه (مختار) وهو يكيل له ضربة أخرى، ليسقط أخيرًا مغشيًا عليه كجبل (مقطم) آخر، وبسرعة جذبني (مختار) من معصمي وانطلق يعدو صائحًا:

ـ لنبتعد الآن.. المكان خطر.

وعندما تراجع بي بعيدًا عما وراء خطوط العدو، وبعيدًا عن الاحتكاك المباشر والقصف العنيف، إلى داخل خندق روسي تم تطهيره بمعرفة التحالف، استندنا إلى جدار الخندق وسألني بتعجب وهو يلهث:

ـ أأنت حقًا (محفوظ)؟ (محفوظ النحّاس)؟

احتضننته وسط ذهوله قائلاً ببهجة نادرًا ما تنتابني:

ـ نعم يا صديقي العزيز.. نعم يا (مختار) حمدًا لله أن تذكرتني.

لكني عندما تراجعت قال وهو يشيح بوجهه بعيدًا:

ـ هل حقًا مازلت صديقك؟ ربما لا تعرف أنني من دبر لك المكائد في المحروسة، وحملتهم على مطاردتك وإخراجك من طائفتي النحّاسين والنجّارين أيضًا.

ورغم صدمتي المزلزلة إلا أنني حافظت على ابتسامة مزيفة، وأنا أساله بهدوء هازئ:

ـ وهل تثير أحقاد الصبا الكراهية في الغربة؟

نظر لي في ذهول كأنما لا يصدق أي تسامح يمكن أن ينتجه هذا العالم، أو كأنما الصدق قد عفا عليه الزمن منذ أيام النبوة الأولى، وبوجه مرتبك ولهجة مستتكرة قال:

ـ أية غربة؟ نحن في أرضنا.. أرض الدولة التركية وقد اغتصبها منا الموسكو الكفرة.

تبسمت في حنان عجيب كأنه شعور أبوي غامر، وقلت له في أُنس بحت، كأننا ندخن الشبك[12] في مقهى مصري قرب وكالة الحرير، أو أمام بركة (الرطلي) القديمة، أو على أنسام بركة (الأزبكية) التي كنا نسبح فيها معًا، وليس وسط القنابل والمدافع وبارود البنادق والغدّارات[13]:

ـ هاهو (مختار) الصغير قد كبر وأصبح يتكلم في السياسة التي تحاشاها طوال عمره، حتى إنه كان يحذرني من مصادقتي لـ (شمس الدين) لفرط أحاديثه السياسية.

وبحميمية شديدة سألته بنفس ابتسامتي الأبوية الأخوية:

ـ بالمناسبة ما أخبار (شمس الدين برقوق)؟ هل التحق بمدرسة الألسن كما تمنى لينهل من علم الشيخ (رفاعة بك الطهطاوي)؟

عرف أنني كما أنا وكما كنت دومًا، مازلت (محفوظ النحّاس) صادق الود طيب السليقة، حتى وأنا أعرف لأول مرة نذالة الصديق السابقة، وأيقن أن لسان حالي يقول عن طيب خاطر: (عفا الله عما سلف).. عرف وسلّم واستسلم:

ـ عظم الله أجرك في صديقك الشيخ (شمس).. لقد كان كبش فداء لم يتردد رجال (عباس حلمي) في تحذير الوطنيين به.

وقع الخبر الثاني عليّ حينها وقعًا أسود، حيث سمعته وقتئذ لأول مرة..

كان عليّ الانتحاب أو البكاء أو الصراخ، أو حتى اعتزال البشر والصوم عن الكلام والدخول في نوبة حزن عزاءً لصديق العمر.. كان عليّ فعل أي شيء لرثاء الشيخ والمستنير والسياسي الذي قال للأعور أنت أعور في عينه ولم يرض بالصمت، وأبى إلا أن يقول كلمة حق عند سلطان جائر، والذي ثكلته إلى الأبد، كان يجب عليّ فعل أي شيء.. أي شيء.. لولا أن الحرب انتزعتني من اجترار الحزن والمرارة انتزاعًا، وألقت بي حرفيًا من مكاني عبر قذيفة روسية أطاحت بي وبفتى (عابدين) السابق وصديق الغربة حاليًا، الذي صار صديقًا حقيقيًا لكن على أسس من الصراحة هذه المرة.. وقد تلاشت الضغائن..

نزعت سترتي الروسية لتفقد جروحي، فوجدتها بسيطة ولله المنة، وأقبل خليط من الجنود الأتراك والمصريين بعد سقوط القنبلة للاطمئنان علينا، وقرّعنا أحد الضباط تقريعًا لكموننا فترة طويلة بلا

إطلاق للنار مما جعل الفرصة تسنح للخصم كي يرد هجوم الجنود، دون أن يعرف أننا كنا نتبادل حوارًا سريعًا لكنه مليء بالآلام الحادة المبرحة التي تكفي أحاديث قرية كاملة، وعندما تبين أحد الجنود وجهي صاح في ذهول:

ـ (محفوظ) المفقود.

و صرخ آخر:

ـ ماذا قلت؟ (محفوظ النحّاس)؟!!

و جاء ثالث على الصرخة يهتف في عدم تصديق:

ـ رباه!.. إنه هو.. رفيق (جويليت الصاعقة).

كانوا الثلاثة على التوالي.. (مجاهد) و(عبد القاسم) و(إدريس)!

وقال الضابط ذو رتبة ملازم أول وهو يصوب إليّ بندقيته:

ـ الخائن؟ لقد سمعت به.. نعم.. إنه الخائن.. لا أسمع من يقول رفيقًا أو صديقًا هذه.. وعقاب الخائن الموت بلا إبطاء.

وقف أمامي (مختار) ليفديني بصدره في صمت مصمم كدرع بشري مصمت رغم جروحه من القذيفة، والصدمات والنكبات تتوالى عليّ توالي السيل العرم. لم أقل بصوت متحشرج مختنق سوى:

ـ أنا خائن؟ لماذا؟

قال (إدريس) العزيز بمرارة:

ـ الصاغقول أغاسي (طاهر قبودان) أعلن رسميًا أنك خائن هارب من الواجب عندما تأخرت عن العودة قبل إقلاع (جويليت الصاعقة) من (بيكوس)، كما أنه كلفك بأمر عسكري لم تنفذه حسب عريضة اتهامه التي سلمها لأمير البحر (حسن باشا الإسكندراني)، وعليه تم اعتبارك في محكمة عسكرية غيابية من المحكوم عليهم بتهمة الخيانة العظمى، وعقوبتها في زمن الحرب الإعدام فور إيجادك، خاصة إن لم تُسلّم نفسك طواعية ليرجع بك مندوب المحكمة إلى المحروسة لتنفيذ الحكم.

أبعدت (مختار) العزيز الذي بدا وكأنما يكفّر عما اقترفه بحقي، وإن كنت في حال غير الحال لا يجعلني حتى أفكر فيه وفي أصله ومعدنه الحقيقيين، وأنا أواجه البندقية المصرية الهويّة المصوبة إلى رأسي، مستشعرًا غليان شرّي الأسود الشديد استعدادًا لدرء الموت بغباء مطلق معتاد، غير عالم أن الموت سيتخطفني ولو كنت في برج مشيد، وأخرجت من حقيبتي القماشية الصغيرة كيسي المال، وأعطيتهما لـ (إدريس) قائلاً:

ـ أولاً هذه أموالكم وقد ردت إليكم وما أنا للأمانة بمنكِر، ثانيًا القبودان كلفني بطلب عسكري لكنه لا يرقى للواجب، وليس معقولاً أن شراء مصائد الفئران واجب عسكري، وذلك لتنزيه الواجب العسكري عن السفاهات، ثالثًا (محفوظ النحّاس) لا يتأخر عن (مصر) وعن خدمة الوطن، ويعلم الله في علاه أنني ما تغيبت عن أمري أو عن إرادتي، لكني لا أضمن لمن يحاولون أذيتي أن يلقوا هم حتفهم بدلاً مني.

بدهشة عظيمة أخذ أصدقاء الجندية ورفاق البحرية مالهم الذي جنيته في القرية الروسية من التحطيب، وصاح الضابط بصوت غليظ:

ـ هل تهددنا؟ أرأيتم؟ إنه يهددني.. لاحظوا كذلك باقي لباسه الروسي وعدم ارتدائه للبذلة النظامية، إنه من عملاء الكفرة ويتحصن بهم لا ريب!

هذه المرة وقف (إدريس) المخلص أمام فوّهة الموت، وقال للضابط بحزم غير معهود:

ـ أنا واثق أن أخي (محفوظ) لم يتعمد الغياب كل هذه الشهور، وإلا فلن يعود للموت والحرب بقدميه، بل ويعيد لنا نقودنا غير منقوصة.

ـ حكم المحكمة العسكرية نافذ وإن لم يستجب سأقتله.. وسأقتل من يدافع عنه إلى جواره بتهمة التمرد على القادة.

وانضم (عبد القاسم) و(مجاهد) للنوبي الشجاع وهتف (مختار) العزيز:

ـ إذن فستقتلنا كلنا.

وأيده رفاق (جوبليت الصاعقة) الثلاثة في غضب وحماس، بينما اقترب ضابط تركي برتبة ملازم ثانٍ من الضابط المصري العنيد، هاتفًا وسط الطلقات القريبة:

ـ لا يوجد وقت لهذه المشاحنات ولا حتى لتنفيذ أوامر المحكمة، إننا في خط هجومي أمامي قوي ومنفرد، والإمدادات قادمة إذا ما بقينا وحصنّا هذه النقطة، التي لو انهارت أو تراجعنا أمام مقاومة الموسكو فسيكلف هذا حصارنا لـ (سيباستيبول) الكثير من المخاطر غير المتوقعة، ولربما تسبب هزيمة فريقنا المكون من عشرين جنديًا هذا في خسارة المعركة بأكملها.

لكن إصبع الضابط المصري المتغطرس ضغط على زناد بندقيته بوحشية مكبوتة، ليتفجر الدم من ذراع (عبد القاسم) فيشهر بندقيته في غضب دفين قديم من كل ما هو سلطوي يغص بالصلف، لكن يسرع الضابط التركي بنفسه يمسكه ويهدئ رغبته العارمة بالرد، وملازمين ثانيين آخرين يبعدان الضابط الشرس الذي اكتفى بسبة أخيرة، والتركي يقول لصديقي الثائر بصوت مرتفع، للتغلب على صوت الطلقات التى دنت بقوة، حتى أنها راحت تضرب جوانب المكان كله:

ـ يمكنك التماسك الآن أيها الجندي وسأشهد بنفسي فيما بعد ضد مخالفته للروح القتالية.. لصالحك.

وقلت أنا له بمرارة:

ـ لا بأس يا صديقي لن يذوي الصلف يومًا، ولن تضمحل الغطرسة.. لكن تبقى الحياة والأمل والوطن.. فمن أجل الأخير تماسك.. سمعت للتو مدى دقة موقف فريقنا هذا.

وبصعوبة كبيرة خفض (عبد القاسم) المصري الوطني الأصيل بندقيته، وهو يبصق جانبًا مخرجًا مع بصقته كل نقمته وغضبه، لكن غليان شري بداخلي مع إطلاق البارود المتواصل جعل الخندق يموج بشحنة شر عجيبة، بحيث لم يُظهر أحد أي نوع من الود حتى لي، كأنهم تأثروا بالشر المتدفق، فأزاح (عبد القاسم) يدي في خشونة وابتعد إلى حافة الخندق، وراح يفرغ باروده وثورته في الروس قائلاً:

ـ هيا ذوقوا بعضًا من هذا أيها الكفرة الفجرة.

وانضممنا له لا إراديًا للحفاظ على خط الهجوم..

كان وضعنا دقيقًا بالفعل كما شرح الضابط التركي، بحيث نشكل رأس مثلث من القوات المحاصرة للقلعة من جهة الشاطئ، فكان نصفنا في الماء والنصف الآخر وهو نحن العشرة في هذا الخندق، وحمم الشياطين الروس تنهمر علينا كالوابل، بحيث أصيب (إدريس) في كتفه الأيمن فلم يستطيع وضع كعب البندقية على كتفه، واكتفى بدور رامي الكور المفرقعة والقنابل من كيس قماشي كبير حرص على ألا يصيبه البارود، وإلا تحول الخندق بمن فيه لكتلة من اللهب، بينما بُتر إصبع الإبهام الأيسر لـ (مجاهد)، لكنه اكتفى بربط موضعه دون أن يطلق آهة ألم واحدة، أما (مختار) فكان يُصر على حمايتي كأنني القائد الأعلى المظفر، والوجوم الممتزج بسعادة غريبة يكسو قسماته لقربه مني مجددًا، كان بعض جنود (جوبليت الصاعقة) قد امتزجوا ببعض جنود هذه الأورطة[14] التابعة لبيادة من آلايات النجدة التي يقودها اللواء (إبراهيم شركس باشا)، وهذا ما فسر ظهورهم هنا معًا..

احتدمت المعركة واضطرمت وتصاعدت الدماء إلى رءوسنا ساخنة منفعلة، وتطاير شرر النيران حولنا من كل اتجاه، وتساقط الموتى..

موتى بعيون مفتوحة، وموتى بملامح حزينة بائسة..

إنها الحرب في أقسى وألعن أوقاتها..

إنه المَنَى الرهيب ولا شيء غيره يتهافت علينا وحولنا من كل اتجاه..

يقولون إن ملاك الموت اسمه (عزرائيل)، ويبدو أنه وأعوانه ينشطون الآن في تلك الأصقاع، لاعنين الحرب وحماقة بني الإنسان.. في الحروب تقترب الآجال من نهاياتها بطريقة جماعية، ويصبح البشر كخيل الحكومة الذي أصابته الشيخوخة والوهن، ويتحتم إنقاذه ورحمته برصاصة ساخنة أخيرة..

ووسط انفجارات القنابل ورائحة البارود ودويّ قذائف البوارج ولون الدم، رأيت (رخ)..

لثانية واحدة رأيته يحلق على مبعدة، ورأسه الأبيض ناظرًا نحوي..

وفي الثانية التالية صرخ (عبد القاسم):

ـ لماذا تنظر للأعلى؟

وقبل أن أجيبه هوت قذيفة باذخة على مقربة، فسقطنا في كل اتجاه كاللُعب، لكننا نهضنا سريعًا لنواصل الحرب والقتال والنضال، ونسيت تمامًا (رخ) الذي تتبعني بشكل ما..

أما طاعوني الخاص فكان يتململ ويثور ويفور دون خروج، لما يحيط بنا من موت يطل برأسه في كل ثانية، يثور فيكاد يجعل المدقق يلاحظ الغاز الأسود الخفيف المحيط بي كالغلالة الواقية مستعدا متحفزًا لأقصى حد، ولقد تسبب هذا الفوران ـ حسب تحليلي بعدها ـ في اجتذاب السحرة الأغراب كالنتن الذي يجذب أسراب الذباب، وكأنما حددوا موقعي كالشارد في الصحراء إذ يرى دخانًا فيحدد وجهته بثقة، وقد جاءوا للانتقام مني..

لقد اقتربت فرقة روسية كبيرة صوب موقعنا، وكما لو أن الزمن يمضي ببطء رغم غروب الشمس السريع رأيت وسطهم جنودًا ليسوا جنودًا، رأيت السحرة الشياطين العشرة..

شخصيًا..

كانوا يرتدون ثياب الروس ويحملون بنادقهم، ولكنني رأيت الهالات الدخانية وذلك الشعور الرهيب بالرعب منهم يطغى على بصيرتي فيعميها.. عشرة رجال ليسوا بالرجال، ذوو عيون بلا حدقات وكلما تكلموا برطانتهم خرجت من أفواههم شعيرات من ضوء باهت.. وبكلمات مهتزة قلت لصديق المحروسة:

ـ هل.. هل تراهم؟

ـ أتعني فرقة الأوغاد هذه التي تتقدم بوقاحة؟ سيعلّمهم (إدريس) درسًا مجانيًا قاسيًا بقنابله.

ـ بل.. من بقلبهم.. المختلفون.

ـ كلهم من نفس نوعية الكفرة العفنة.

كما توقعت.. لن يميزهم أحد سواي.. تمامًا كما لم يرهم التجار في أرض (الظلمة)، لكني لن أسمح هذه المرة بمقتل أصدقائي كما حدث مع (محمود أفندي)، ولن أسمح في نفس الوقت بقضاء الروس ومعهم السحرة على خط الهجوم هذا الذي ينتظر التدعيم، لابد وأن أحمي سير المعركة الطبيعي الذي يتحرك لصالحنا نسبيًا..

لابد أن أقي الوطن من كل الشرور..

وبسرعة فكرت واتخذت القرار ونفذت قبل أن يدرك أي أحد ما يجري..

لقد برزت من مخبأي وانطلقت أعدو في اتجاه الروس والسحرة، و(مختار) يصرخ بي في هلع:

ـ إلى أين يا معتوه؟!

وكذلك صرخ بي رفاق البحرية في ذهول من جرأة بلغت حد الحماقة في نظرهم، فصحت بهم وأنا أبتعد عن الخندق معرضًا نفسي مباشرة لمرمى النيران:

ـ ابقوا في أماكنكم.. اثبتوا ودافعوا عن النقطة الحصينة.

وتوقفت الأورطة الروسية وأشار قائدهم لهم لكيلا يطلقوا عليّ النار حتى يتبينوا أمري، وحمدت الله كثيرًا أنهم ترددوا قليلاً مع لباسي الروسي، مما سمح لي أن اتخذ موقعي في بقعة خالية بمنتصف المسافة بينهم وبين الخندق، بحيث إذا وصل غلياني لنقطة الفوران والانفجار لا يمتد بسوء لرفاقي..

وصرخت في السحرة الشياطين:

ـ أيها الطواغيت العشرة.. أنتم تريدونني أنا وليس الآخرين.

سمعت فحيحًا رهيبًا لأحدهم ملأ الكون، وأيضًا بدا أنني الوحيد الذي أسمعه، قال:

ـ لا تخشَ على الروس يا (محفوظ)، إنهم أعداؤك.. هم فقط يوفرون لنا غطاءً مناسبًا لاستسلامك.. لاجتثاثك بيدك رأسك، كي تعبدنا حية إلى الأبد.

ـ حسنًا.. لن أخشى عليهم لدرجة أن أستسلم لكم أيها الملاعين.. فليذهبوا إلى الجحيم.

قال بالعربية وبتشفٍ واضح:

ـ ربما يهونون عليك يا حفيد مدمر عالمنا، لكننا نسمع خواطرك ونعرف ماضيك ببعض تمائمنا المقدسة التي تعمل بقدراتنا الإلهية، ويمكننا أن نستعين بمن يهمك أمره عبر هذا الماضي لنجبرك على الاستسلام.. ليس هذا وحسب بل وسنعطي هدية لأصدقائنا هنا، إنهم بلا قيمة حقيقية الآن لأنهم أحياء ويحتفظون برؤوسهم، لكن بعد أن نُهلك فريقك المتخندق سيبتهجون ويتقدمون.. نعرف أنهم سيلاقون المدد ونراهم مقتولين ممزقين، لكن ستختفي الرؤوس ولن يعرف أحد أننا حينها سنكون قد ضممناهم لعبادنا.. إن أرواحهم هشة وسيبيعون إيمانهم الضعيف سريعًا.

يا إلهي..!

كان تهديدهم كبيرًا ومزدوجًا، سيساومونني على شخص ما أهتم له كي أسلم لهم روحي وقدري، ليذهب الروس إلى الجحيم رغم ألمي لمصيرهم الرهيب المنتظر الذي رأيته بعينيّ في أرض الظلمة الكئيبة، المشكلة أنه في جميع الأحوال سيطيحون بالنقطة الحصينة وفيها أفضل أصدقائي، مما سيكبد الوطن خطرًا حقيقيًا..

الوطن الذي أُكن له كل هيام، وأدخر له كل إخلاص..

الوطن الذي نموت نحن، ويبقى هو من أجل أهلنا وجيراننا وأبنائنا..

ومن بعيد تناهى إلى مسامعي صوت (إدريس) الضعيف رغم صياحه:

ـ ماذا يحدث ولماذا لم يهاجمه الموسكو؟

وكأنما كان قوله إشارة، أطلق السحرة في هيئة الروس بارودهم تجاهي، ليحثوا باقي الأورطة على أن ترشقني بنيرانها بدورها.. يبدو أن ذلك عن عمد، كي يخرج شرّي الأسود، ومن ثم يُصفّون أمرهم معه إن أمكن، وإلا العودة لإجباري على الاستسلام بيدي..

وانبث الشر..

وككل مرة برز فيها، خرج من فمي وأذني وأنفي وعينيّ وحتى من سرتي، وأحاط بي على هيئة عاصفة قرناء، دارت كدوامة أو إعصار صغير، وامتصت كل النيران المنهمرة عليّ، وجسدي يتلاشى وزنه أو أن الجاذبية أسفله هي التي تتداعى، ويرتفع عن الأرض معلقًا في الهواء على ارتفاع متر واحد بسحر شيطاني ما أمام العيون الذاهلة غير المصدقة، حتى توقف الروس من تلقاء أنفسهم عن إطلاق البارود والقذائف إما ذهولاً أو بسبب عدم جدواها، وملامحي تكاد تتلون بالأسود حسب ما نقلته مياه البحر (الأسود) الهادئة، التي أراها من هذه المسافة، وكما نقلتها من قبل صفحة خليلي (النيل)..

وافترش شرّي المساحة الخالية، والتي بلغت مائة متر مربع كاملة، وهو الحيز الذي لم يتجاوزه حارسي الشيطاني يومًا في أي من ثوراته السابقة، وهو يسدد قرنيين عملاقين ينبتان من كتلته السوداء البشعة صوب الروس والسحرة، قرنين يتمددان ببطء نحوهم كأنما ينذرانهم بالسحق والموت، بينما شلّ الرعب والبهوت كلا الفريقين.. أورطة الروس المتراجعة بتوتر ورفاقي الجنود.. مع غروب الشمس.. ولأول مرة كنت أشعر بالقوة وليس الرعب والضياع والمرارة، بعد أن هداني تفكيري لعدم إراقة دماء جديدة بسبب هذا الشر المجسم، ولكن كبير السحرة الشياطين عاجل قوتي هذه بهتافه، الذي ينثر شعيرات الضوء الغريبة:

ـ حسنًا.. الآن دور الحارس.

كان يعني الحارس الأخير..

ومن فوقهم.. ومن وسط سحابة كبيرة مرتفعة، هبط عملاق بلون الليل الذي حلّ، تراجع له الجميع أكثر وأكثر في ذعر مطلق، وحسنًا فعلوا ليفسحوا ساحة المعركة أكثر وأكثر. هبط الحارس الأخير من حراس العالم المحظور الذي جاءوا منه، والذين دحرهم جدي في عصر المماليك، ورغم أنني في حماية جهنمية لا توجد طريقة معروفة لقهرها، إلا أن مرآي لمنظر الحارس جعلني أرتجف رغم ما سبق وواجهته من أهوال أكسبتني شجاعة لا نهائية..

كان عملاقًا طوله نحو خمسة عشر مترًا، أي ضعف حجم شري الحارس أربع مرات، له جذع وهيئة شبه بشرية مفتولة العضلات، يحمل في يسراه رمحًا هائلاً، وفي يمناه منجلاً عظيمًا، له أقدام نمر ضخمة المخالب، ورأس خنزير بري مهولة حادة الأنياب بشعة الخلقة، ويزوم بصوت لا يطاق يكاد يزهق الأرواح، والمرعب أن الكل يمكنه رؤيته ورؤية شري، لكن لا يرون الأغراب الخبيثين..

واشتبك الشر الأسود معه بطريقة رهيبة، إذ بمجرد نزوله اخترق فخذه اليسرى العملاقة ونفذ من الناحية الأخرى، لينزف العملاق رمادًا براقًا سريع التكثف والتلاشي، وواصلت حمايتي اختراق جسده مرارًا بسرعة مذهلة متجهة لأعلى، وبدا أنها ستقضي عليه قبل أن يبدأ حتى في إدراك هذا، مما حدا بأحد الشياطين العشرة ليصرخ به أن يبتعد، كما خمنت من رطانته الغامضة عندما عاد الحارس إلى السماء ناثرًا رماده اللامع، في نفس الوقت الذي أطلق عليّ ساحر آخر بارودًا عاديًا، وحاول طاعوني الأسود أن يطارد الحارس المريع، لولا أن أجبره البارود على العودة لحمايتي وامتصاص النيران، كما توقعوا وأرادوا بالضبط حمايةً لحارسهم، والعودة لوضع تحفزه الذي يصوب فيه قرنيه السوداوين الدخانيين نحو السحرة الشياطين، فصاح فيّ كبيرهم بغضب متزايد:

ـ لن نضحي بحارسنا الأخير.. لكننا سنجعلك تندم على مقاومتك.

و قال آخر بوحشية:

ـ هل مازلت على موقفك؟ لن نتراجع عن تهديدنا إذا ما بدأناه، ولو تذللت لنا أخشع الذل.

وكما فعل (عبد القاسم) تمامًا احتقارًا للضابط الأهوج، بصقت كرد وحيد على قولهم، فقال ساحر آخر من الغرباء:

ـ نعلم أنك تفكر أننا عشرة، لكنك من فرط توترك أخطأت العد.

هنا لاحظت أنهم فعليًا تسعة، فما الذي يعنيه هذا الوغد؟

ما الذي يدبره لي سحرة (القرم)؟

وجاءني الرد أسرع من التساؤل، وأقسى من كل شيء..

لقد جاء الساحر العاشر بهيئة روسية، يردف على جواده آخر شخص في الكون توقعت أن يساومني عليه هؤلاء الأوغاد الحقراء..

جاء ورديفته (ملك جهان)..

بشكل ما اختطفوها بعدما حددوا مكانها من ذاكرتي لا شك..

وركعت على ركبتيّ..

كنت معلقًا فركعت على الهواء بذل وانهيار كبير..

صرخت أميرتي:

- (محفوظ)!

ترددت صرختها وسط صمت مباغت جراء الهول الدائر، كانت مرعوبة.. مأخوذة.. مضطربة.. حائرة.. خائفة.. يا ليتني كنت مت قبل أن أراها في هذه الهيئة، وياليت البحر (الأسود) قد ابتلعني، قبل أن أسبب لها هذا..

وبشماتة قال كبير السحرة من موقعه، دون أن يجرؤ على الاقتراب، حتى لا تفتك به لعنتي:

- الآن عرفت أننا جادون للغاية.. كان من الممكن أن نحضر (درويش)، أو الشيخ (القصبي).. فلدينا القدرة على جلب أي شخص، من أي مكان في العالم، في ساعة.. لكننا فضلنا عدم تعذيبك بهما، والوصول مباشرة لأهم شخص في حياتك، وكما وعدناك سنقضي على أصدقائك المخندقين في نهاية الأمر. لن تكون في عبادتنا بمفردك حتى لا تشعر بالوحدة، أما الوطن فهو ليس بهذه الأهمية التي تتخيلها.. وإذا بقيت النقطة الحصينة، سنفقد كل هذه الكمية من القتلى الروس، الذين سندفعهم للفخ الممتاز، وأنت يهمك قتل الروس أليس كذلك؟

هتفت بـ (ملك جهان) بلوعة:

- واحبيبتاه.. اصمدي وتماسكي يا قرة العين وجوهرة العمر.

هتفت من مكانها والساحر يقيدها فوق الجواد الكبير المرتفع بالنسبة لها:

- ماذا يحدث يا (محفوظ)؟ وأي سحر قد أحاق بك؟ أي سحر؟.. وما الذي سيحدث لي؟

بألم أجبتها.. بتمزق كأنما يشقني ألف نصل:

- لن يصيبك مكروه.. سأبذل ما بوسعي من أجل هذا.. لا تخيفنك هيئتي، إنها القوة التي حدثتك عنها العرّافة، لقد كنت محفوظًا كما باركتيني يا سيدتي، وصدقيني سأنبذها يومًا.. بعد أن نتزوج.

قال أحد الغرباء بفحيح ظافر:

- الآن لن تتغول طويلاً يا (محفوظ).. عليك فعل إجراء صغير جدًا تنال به الخلود، وعلى غير العادة فلن نؤذي أميرتك، بل نعدك أننا سنتركها لحال سبيلها، لكننا قد نفعل إن لم تقم بهذا الإجراء.. وهو أن ترفع سنبك بندقيتك وتذبح رقبتك، لتنتقل مباشرة إلى رحاب عبادتنا وشرف الخلود تحت أقدامنا.. سنريك عروشًا جديدة رائعة بدلاً من تلك التي حطمتها، ستظل عيناك الحية في رأسك المقطوعة تتمتع ببهائها للأبد.

رفعت سكين بندقيتي أتأمل شفرتها بانهيار شبه تام..

كنت على مشارف الموت حيًا من الألم..

على شفا حفرة من النار التي يبثها مرأى ملاكي بهذا السوء..

حفرة ستلقيني في جحيم الكفر..

في هلاك يعقبه هلاك الأهل والوطن..

اكتست عقلي ظلمات من فوقها ظلمات من الضياع..

وراح شيطاني الحارس ينكمش وينكمش ويتصاغر مع اقتراب إرادتي من تنفيذ الانتحار، الذي لا تجدي معه الحماية شيئًا..

لقد فكرت في الانتحار قبلاً لكني لم أجرؤ على تنفيذه، ولم يطاوعني عقلي..

لكنهم سيجهزون على حبيبتي الآن.. وأمام عينيّ إن لم أنصع لأمرهم القذر..

أي عذاب هذا الذي ألقاني فيه القدر؟

بل أي لعنة تتجاوز لعنة (سيزيف)، وعقاب (أطلس)، ومأساة (الجرجونات)؟

ما أنا إلا فانٍ لا يريد الخلود في هذه الأرض على الأقل، ولا يحلم سوى برفعة وطنه لمصاف الدول العظمى المفترسة، كالدولة و(إنجلترة) و(فرنسا) و(النمسا) و(الروسيا).. فتكون عظمى لكن غير مفترسة..

أي ليل بهيم يحاصر حياتك يا (محفوظ)؟ وأي انتظار أليم هذا لفجر ينبلج فلا ينبلج؟ بل أي عذاب هذا الذي يجعلك هاربًا طوال الوقت، فلا تُعزّ عزيزًا، إلا وتكشطه مقدرات المصير وتطويه قبور الفراق المرير؟

هارب إلى سراب تحسبه النجاة كالظمآن، فلا تجده سوى ضحكة الزمن ساخرة كبيرة جدًا. قاسية جدًا..

هربت من الطاعون، ثم هربت من الطوائف، ثم هربت من العسس، ثم هربت من (المحروسة)، ثم هربت من (الإسكندرية)، ثم في نظرهم من الجيش، ثم من الحبيب، ثم من الموت، ثم إلى الموت..

وعندما التقت عيناي بعين (ملك جهان) الحزينة الحائرة الخائفة، وعادت إلى التماع الشفرة، تمتمت بسؤال خطر على ذهني وسط بحار ضياعي:

ـ وهل ستفرجون عن رفاقي كذلك مثل (ملك جهان) في حال سلمتكم نفسي؟

ورغم خفوت تمتمتي المصدومة أجابني كبير السحرة بكبر وغرور:

ـ وكيف إذن نحقق هدفنا؟ لقد دنست ـ كما دنس جدك ـ أرض الظلمة وعالمنا الجديد وحق عليك تنفيذ القانون الرابع كما أخبرك كبير خدمنا، ونحن لا يمكننا مقاومة إغراء انصياع كل هذه الرؤوس الروسية لفخنا ورغباتنا وشرف عبادتنا، فكف عن هيامك السخيف بوطنك، أي وطن هذا الذي لم يقدم لك سوى المطاردات والأوبئة والفقر والسخرة والجوع؟!! وهل يكون عندك أغلى من حبيبتك؟!

وصاحت (ملك جهان)، لُبّي وروحي ونياط قلبي:

ـ ماذا سيفعلون بي يا (محفوظ)؟ أخبرني أي مصير يواجهنا؟

كانت مواجهة ومقارنة بين نصفيّ إذن..

الحبيب..

والوطن..

ويالها من مقارنة وياله من اختيار مرّ كالعلقم..

لكن التماع ضوء نيران الحرب الدائرة على شفرة سكين البندقية، وانفجار قذيفة بعيدة أو اثنتين، أعادا إليّ بصيصًا من ألق حمله سطح عقلي إلى أعماقه مخترقًا بصعوبة حجب الظلام وسدم السواد اليائس، الحائلة بين بصيرتي المسحوقة وبين الطريق الصحيح..

بصيص شحيح لمعنى واحتمال..

أما المعنى فكان من كلام سحرة (القرم)، عندما سألوني عما استفدته من سخرة الوطن؟ رغم أن ما ينوون فعله بى أبشع من السخرة، ما ينوون تحقيقه هو تكفيري وتضييع جيش الوطن.. فإذا ما كان الكفر عقابًا رهيبًا لي أنا وحدي، فضياع جيش الوطن وبالتالى الوطن، لهو ضياع لثلاثة مليون ومائتي ألف نسمة كما قدّر الباشا عدد العباد في البلاد..

أما الاحتمال فكان أن يخلفوا وعدهم المشكوك فيه، فلا يعتقون (ملك جهان) بل وينكلون بها، طالما صوّر لهم غرورهم أن يعلنوني بتنكيلهم لأصدقائي وأهلي ورفاق الجندية فور نهايتي..

وسمعت الدرويش يقول لي مبتسمًا:

- ادعُ المغيث تعد سالمًا يا (محفوظ).

و دعوت المغيث..

أغثني يا مغيث..

من سويداء قلبي أدعوك أن تفرج عني كربي، وتجلو همي، وتغفر لي ذنبي يا من تغيث المضطر إذا دعاه..

- (مصر).

نطق بها وجداني متنكرًا في هيئة لسان يحويه فم برأسي، لسان كلّفه عقلي بالتحرك ليقول:

- (ملك جهان).

لكن وجداني خذل عقلي وخدعه، والتف حوله وسحب منه الأحرف وأعاد تشكيلها، فكان الميم هو الحرف الوحيد غير المتنازع عليه، لكن الخيانة جاءت في بقية الأحرف. اختار عقلي حبيبتي وسيدتي وملاكي وروحي التي ملكت عليّ قلبي، لكن قلبي نفسه اختار وطني وأرضه وشعبه وتاريخه ومستقبله..

هذه المرة تكلم كبير الأغراب لكن بلا تحريك لسان، تكلم داخل مخي:

- ما الوطن إلا يابسة خشنة ومياه ملوثة وسماء ملبدة ورمال مغبرة.. أتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير لك؟ أتترك هذه الغادة الحسناء كستنائية الضفائر، بضة الشفتين، طرية الكفين، زبدية النهدين، رشيقة القد، خفيفة الخطو، مليحة الضحك، من أجل بعض التراب؟!

ورد عليه فؤادي الخائن.. فؤادي المنشق.. فؤادي المعتوه.. خيب ظني وأرسل نبضات فكره في مخي، موفرًا على اللسان عناءً جديدًا وشقاءً تعسًا:

- هي أيضا من تراب.

فصرخ كبير الشياطين الأغراب.. هاج وماج وثار بعدما وصل لطريق مسدود واستنفد ولم يستنفذ:

ـ إذن فعليكم بها أيتها الآلهة العشرة الأخيرة.

وككابوس يفوق كل كابوس تخيلته رفعوها عاليًا بجوادها، وبنظرة أخيرة منها فوق الجواد الأبيض بردائها الأبيض قالت كلمة واحدة:

ـ إلى اللقاء يا (محفوظ).

نظرة بها كل مشاعرها، وعين يسرى تجمعت فيها دمعة كبيرة..

وتمزق الجواد أولاً إلى ألف ألف قطعة بسرعة جهنمية، وصرخت كأن صراخي سيُسمع الكون وماوراء الكون:

ـ (ملك جهاااااااااااااااان).

ثم جرى ما جرى مما قد سبق وذكرت في الورى، من تمزق لها منهم، وتمزق لهم مني، وهروب كبيرهم على ظهر حارسهم، وقول (إدريس) و(مجاهد).

لقد أنقذت الوطن..

وقتلت (ملك جهان)..

شق موج البحر أذنى، ودوى صوت غراب غريب بعيد، يتهيأ للإقتراب من الجثث الشهية لمعدته، بينما شدّ (عبد القاسم) على يدي في حماس، وقال:

ـ لقد رأينا المعجزات هذا المساء.. واطمئن يا بطل.. سترقد روح هذه المناضلة التي ساوموك عليها راضية مستريحة.

* * *

ألْق

بسم الله الرحمن الرحيم (ٹ ٹ ڈ ڈ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڦ ڦ) **سورة (الزخرف: ٣٦)**

12() جمع (شبكة) وهى النارجيلة.
13() الغدّارارت: المسددسات. (الابن)
14() الكتيبة.

ابن كاترينا

[بداية من هنا كانت الأوراق وصحائف المذكرات مكتظة بالأخطاء والارتباك الشديدين، حتى إنني اضطررت للاستعانة بما ذكرته الصحافة القليلة والكتب الجديدة، لمعرفة ما توازى من أحداث سياسية مع ما حدث لوالدي، بينما فشلت تمامًا في فهم ما كان الوالد يكتبه أو يريد شرحه كما لو أنه قد فقد إدراكه العاقل لكل شيء، فاكتفيت بنقله كما هو فيما يعقب الأحداث السياسية والعمومية.. تلك الآتية أولاً]..

(الابن)

* * *

[الأحداث العمومية]

(إذا رعدت فيها المدافع أمطرت
كؤوس منون قصرت دونها السحب
تجرع آل الأصفر الموت أحمرا
وللبيض في مسود هاماتهم نهب)

جزء من قصيدة لـ (عبد الله باشا فكري) نظمها لانتصار الأتراك والمصريين في سيباستبول ١٨٥٥م (١٢٧٢هـ)، بعد أن شهدت أوروبا والعالم ببسالة المصريين، في حرب (الدانوب)، والدفاع عن (سلسترة)، ومعركة (أوباتوريا)..

بفكرة تكونت في نفسي، فأيام الحرب الأخيرة مرت سريعة كئيبة مميتة صاخبة، وجرت دماء كثيرة في جحور الأرانب البرية..

خسر المصريون الأميرال العظيم (حسن باشا الإسكندراني) نفسه و(محمد شنن بك) في عاصفة باردة بالبحر (الأسود) الغادر ليلة ٣٠ أكتوبر ١٨٥٤ بعد ٥ أيام من معركة (بلاكلافا)، ونهشت أسماك الأعماق جثمانيهما الطاهرين في الفرقاطتين الغارقتين (بحيرة) و(مفتاح جهاد) ـ التي كان عليها الأميرال ـ واللتين لم يكتب لهما الترميم، واستقرت عظام (حسن باشا) فوق حجاب قديم غارق كتبه درويش مصري، لربما يدفئها في قاع البحر الأسود الأسود..

وخلال حصار (سيباستيبول) العنيف تقرر احتلال (أوباتوريا) بشمال الميناء، وبدأ طرد الروس يوم ١١ فبراير المجيد من العام ١٨٥٥. وفي منتصف ذات الشهر بدأ إطلاق نيران شديد، لأن جنرالاً روسيًا اسمه (خرولف) حفر خندقًا أمام (أوباتوريا) دججه بالجنود والمدافع. ورغم انتصار الأتراك والمصريين، إلا أن المصريين خسروا أيضًا قائدهم العام (سليم باشا فتحي) والأمير الألايان (رستم بك) و(علي بك)..

تُوفي الجنرال (سان أغنو) قائد جيوش الحلفاء بالكوليرا، فحل محله الجنرال (بيليسييه)، وبلغت الخسائر في ذلك الحصار حوالى ٣٥ ألف قتيل..

وفي جبهة (القوقاز) ساند الزعيم الشيشاني (الإمام شامل) القوات العثمانية ضد الروس.

تزايد نشاط المراسلين الحربيين للمرة الأولى تقريبًا في التاريخ، فكانت حرب (القرم) العالمية أول حرب تتابعها الصحافة بهذه الكثافة، حتى إنني شبه متيقن من أن التاريخ سيخلدها إلى الأبد وستُدرّس بين التلاميذ المصريين في كل سني دراستهم. وكان من أشهر التصريحات الإعلامية قول اللورد (راجلان) قائد الإنجليز العام:

ـ عند هجوم الروس في (أوباتوريا) قابل المصريون ذلك الهجوم بثبات عجيب!

وأيد هذا القول طلب القائد الفرنسي دعمًا من الجنود المصريين تحديدًا لصلابتهم وما يقال عن قوة أبطالهم، وفي أواسط يونيو ١٨٥٥ حضر من (أوباتوريا) السردار التركي (إكرام عمر باشا) إلى (سيباستيبول) على رأس ١٥ ألف مصري وتركي، ورابط بجوار مرتفعات (أنكرمان) لمهاجمة المدينة الحصينة وميناء الأسطول الروسي الأساسي، وبعد مقتل الشيطان الروسي الجنرال (ناخيموف) أخيرًا في يونيو، انهار الروس فورًا وسقطت (سيباستيبول) بقلعتها ومينائها يوم ٨ سبتمبر بعد حصار دام عامًا كاملاً، وأرسل الجنرال (بيليسييه) إلى (أوباتوريا) الجنرال (دالونفيل) والمشير التركي (أحمد باشا) على رأس عدة فرق وسوارٍ منها بيادة مصرية، وكادت القوات تباغت فلول وأذناب الروس لولا أن انتشر ضباب كثيف مفاجئ يُعمي الأبصار، انسحب تحت ستره الروس سالمين لحسن حظهم أمام القوات الزاحفة..

ألحق الوالي (سعيد) بالقوات المصرية في حرب (القرم) منارة العلم الثانية بعد (الطهطاوي)، وهو المهندس (علي باشا مبارك)، وبقي (مبارك) في (القرم) عشرة أشهر أشرف فيها على الشئون الإدارية للقوات العثمانية..

في أواخر سبتمبر وفي ديسمبر كذلك قام المصريون بثلاث معارك، اثنتين تحت قيادة (إسماعيل باشا)، والثالثة في ديسمبر عبر قوة قوامها ثلاثة آلاف جندي انتقلوا من (أوباتوريا) صوب (طرابزون)..

أشرف (علي باشا مبارك) على إقامة مستشفى عسكرى بالجهود الذاتية لعلاج الأمراض التي تفشت بين الجنود بسبب تردي الأحوال الجوية والمعيشية، وكان جزاؤه بعد عودته إلى (المحروسة) أن تمّ إنهاء خدمته مع العديد من الضباط الآخرين!

تُوفي القيصر (نيكولاي الأول) وخلفه ابنه (ألكسندر الثاني) الذي شعر بعدم قدرة بلاده على مواصلة الصراع كما كانت مع والده، وقرر السعي للسلام خاصة بعد تحذير (النمسا) له بأن دولاً أوروبية أخرى ستدخل الحرب ضده، وذلك في حال استمرار القوات الروسية التي تخطت المليون جندي في عِتيها..

بعد أن انسحب الروس تجللهم الهزيمة وبعد أن وضعت الحرب أوزارها أخيرًا، نشر السلطان (عبد المجيد) المرسوم الهمايوني للإصلاحات، وهو الفرمان الذي أراد به السلطان كسب الرأي العام الأوروبي أثناء مفاوضات معاهدة (باريس)، وذلك بالاعتراف بحقوق الأقليات الدينية في أرجاء الإمبراطورية العثمانية ـ السبب المعلن روسيًا لاشتعال القتال ـ وإلغاء الجزية وتجنيد المسيحيين والمساواة بينهم وبين المسلمين.

وتم توقيع معاهدة (باريس) الشهيرة في ٣٠ مارس ١٨٥٦، أي بعد ٣٤ يومًا من افتتاح المؤتمر، وكانت أهم بنودها حرية الملاحة في نهر (الطونة)[15]، وإعلان الاستقلال الذاتي لولايتي (والاشيا)

و(مولدافيا)، وإعادة ميناء (سيباستيبول) لـ (الروسيا) على أن يتم إعلان حياد البحر (الأسود)، وهو الشرط الذي كان بمثابة المصيبة بالنسبة للروس الذين وجدوا أنفسهم يسحبون سفنهم الحربية إلى بحر (البلطيق)، ليصبح البحر (الأسود) بحيرة عثمانية من الناحية الفعلية..

ولأن المعاهدة في (باريس) فقد ثبتت امتيازات (فرنسا) دون غيرها في الأماكن المقدسة المسيحية..

وحصل (محفوظ النحّاس) على نيشان من ممثل السلطان لبطولته، وإن تم التمويه على أحداث (القرم) العجائبية وحفظها بخط (القرمة) السري في وثائق دار المحفوظات بالقلعة. وهو خط حروفه قصيرة مستطيلة قليلة النقط تُستعمل فيه رموز لا حصر لها ويبدو دومًا وكأن كاتبه على عجلة من أمره، ولا تُعرف نسبة اسمه إلى (القرم) من عدمها! كما تم التنبيه على الأتراك بعدم الخوض في أي شيء مما رأوه في تلك الليلة، التي ظهر فيها سحرة (القرم) في مواجهة شر (النحّاس) الأسود، أما الروس الذين شهدوا تلك الأحداث فلقوا مصرعهم بالكامل فيما عدا واحدًا نجا من إصابته، وظل يقص أسطورة عن (عفريت القرم المصري) الغامض في بلاده، دون أن يعتبره أحد أكثر من مخبول هدت أهوال الحرب عقله..

أما (طاهر قبودان) فتواترت الأنباء عن بطولته في إنقاذ أحد الجنود ووفاته متأثرًا بحريق في (جويليت الصاعقة). لكن سرت إشاعة عن أن هذا الجندي كان (عبد القاسم) وأن الاثنين حجزتهما النيران في مخزن بجوف الوابور، وعندما مدّ القبودان يده السداسية البغيضة كي ينقذه فضل أن يهرب الجندي بجلده.

أقعدت الإصابات أصدقاء (محفوظ) عن استمرار الخدمة العسكرية، وتمّ الاستغناء عن (محفوظ) ضمن عدد كبير من الجنود والضباط تم تسريحهم عقب الحرب. دومنجي الجويليت (أحمد نظمت) تم تسريحه رغم كفاءته البحرية، فعمل قبطانًا مدنيًا على مركب تجاري لتصدير القطن المصري.

و عاد (النحّاس) إلى (مصر)..

* * *

[المذكرات]

عدت إلى (الإسكندرية) وبقيت فيها عامًا قبل أن أتذكر (المحروسة)، وكان تنقلي مريرًا بين العاصمتين (مصر) و(الإسكندرية)..

في الطريق أولاً إلى عروس (المتوسط)، وبينما يتمايل سطح السفينة في دعة سمعت صياحه.. نعم لم يفارقني.. نظرت للسماء حينها وقلت له بذهولي الذي لم يفارقني بعد ضياع الأحبة:

ـ أنت مخلص حقًا لوجبة الغداء المشتركة يا (رخ)، ألست كذلك؟

وفي (عروس الثغر) شيء ما مرض.. تحطم عماده.. ذوى أو انطفأ توهجه في عقلي فصار موحشًا بعد فقدي لـ (ملك جهان).

قلت لا فانقصف المسمار تحت مطرقة الشيطان..

أمام منزل الحاج (رفاعي) الذي عُدت للإقامة فيه وسط ترحيب هائل من الحاج الرحيم، يعتقد صبيان الحارة أنني مجنون زائغ البصر شارد الفكر، قد يسيل رواله أو يبول دون أن يشعر،

وأحيانًا أتنصت عليهم وأتنبه لما يقولون لكني لا آبه لعاقبة هذا أو خطورته، أحضر الحاج (رفاعي) طبيبًا قال له ضمن ما كنت أتنصت عليه، أنني أعاني من (الماليخوليا)[16]، ورغم أنني قرأت عنها إلا أنني لم أعتقد أن الأمر يستدعي القلق، بل ظننت وقتها أن هذا من سمات الأبطال الذين يخوضون الحروب الضارية، وعليهم تحمل بعض الخسائر الجانبية..

إلا أن تذكر (ملك جهان) كان يؤلب عليّ نيراني، ويزيد من حالتي وهياجي ويذهب بعقلي الضال إلى ما وراء الجنون، ويجعلني أتساءل طوال الوقت: هل كانت (ملك جهان) خسائر جانبية؟

قال (محمود أفندي) المحترم: (أشعر حقًا أنكما ستلتقيان مجددًا، وأنك ستكون مسؤولاً عن أمنها وسلامتها).. لقد التقينا بالفعل كما خمّن الحوذي المسكين، فهل استطعت حمايتها والذود عنها بعمري؟ بل هل يمكنني حماية أي أحد من نفسي ذاتها؟

هل كان يستحق الوطن تضحيتي هذه؟

لم تفلح ليالي (الإسكندرية) ويود بحرها في تذكيري بأيام هانئة قضيتها في حواريها، وعلى وجه أمواجها، أبيع وأشتري وأصطاد وأتاجر..

وازدادت حالتي سوءًا ورحت أرى النوارس وغربان البحر تنقض علي لتلعقني وتعضني وتنقرني، وعندما يفيق عقلي المتوحش لا أرى أيًا منها، أنام على كوابيس أكل لحوم أحب البشر، وأصحو على هجوم الغربان اللعينة، فأهرب إلى الحارة ليتلقفني الفتية ويزفونني:

ـ هاهو المجنون.. إنه المجذوب.. إنه المجنون.

لكني لا أراهم مجموعة من الأطفال، بل أراهم المائة وستون جنديًا على (الجويليت الصاعقة)، وللحظات يتشكلون في هيئة النوارس، وعند أحد الدكاكين وجدت مجموعة من البيض، قذفتهم بها فصرخوا وهربوا، وصاح صاحب الدكان وهو ينقض عليّ، لكن الحاج (رفاعي) عاد من حانوت العطور والبخور، وأعطاه ثمن البيض المحطم عن طيب خاطر، وسألني في حنان لدى عودتنا:

ـ لماذا قذفتهم بالبيض يا ولدي؟ لماذا لم تحثُ عليهم التراب فحسب مثلاً؟

ـ أي تراب؟ النوارس لا تأكل إلا البيض.. صدقني.

كنت أقولها بكل اقتناع أمام نظراته المتأسفة المصدومة، وكان هو يحنو علي ليهدئ من روعي، وكان حضوره يطرد الجنود والغربان و(طاهر قبودان) و(باسكيفيتش) و(ناخيموف) والسحرة الأغراب وكل الأشرار الذين يؤرقون مضجع بالي، فكنت أسترد بعض شرودي بحضوره المغناطيسي التأثير، وكان شرودي أرحم من جنوني، والاثنان أسوأ من بعضهما البعض..

ففي شرودي كنت أعود لأرى فترة التيه، وأهوال البرد والثلج والذئاب والدببة والعقارب، أرى قطاع الطرق وفترة الهمجية التي كنت أحياها في بلاد الروس والبلغار البعيدة، أرى فراشي يتحول لتلة أرض الظلمة الرمادية الكريهة، تؤلمني ندبة حاجبي عندما أنسى الدثار، وعندما يربت (محمود أفندي) على كتفي في أبوة، أسقط وسط وحوش بحرية ضخمة الفكوك، تحوم في مياه البحر (الأسود) العميقة، فأفلت منها بأعجوبة وأعدو فارًا إلى سوق قريب، فلا أجد سوى (آيت) تشير إلى ما ورائي بصمت محذرة، فعندما ألتفت يصدمني الجوادان، أفقد حجاب (الدرويش) ومنديل (ملك جهان) مع الصدمة، وأظل صارخًا:

ـ الحجاب.. المنديل.

لكن يضيعان إلى الأبد في أغوار سحيقة ودوامات مهلكة..

إلا أن الأيام كانت تمر.. مر السحاب لكنه مرور في كل الأحوال..

ذات صباح عرجت على الصيادين رفاق الماضي السكندري، شيء ما جذبني لتذكرهم، ربما طعم السمك المقلى في عشاء الحاج (رفاعي) في الليلة الفائتة، وهناك التفوا حولى في ود كبير سائلين عن أحوالي وأخبار فترة غيابي في الحرب، وباهتمام كبير محاولاً ألا أبدو مخبولاً قلت لهم بعد رد تحيتهم:

ـ يا إخواني.. للتاريخ دورته فلا تقلقوا على (مصر).. لقد غزانا (الإسكندر) قادمًا من (اليونان) في القرن الرابع قبل الميلاد، والآن في القرن التاسع عشر غزا (محمد علي باشا) هذه البلاد، فسخر الله لنا من جاء منهم كي يغزوهم باسمنا، وكما كان بحر (الروم) بحيرة رومانية بالقرن الأول قبل الميلاد، فقد يصبح بمشيئة الله بحيرة عثمانية في القرن العشرين، إن استعادت (تركيا) مجدها وبأسها.. أما لو سبقتها (مصر) فسيكون بحيرة مصرية عظيمة في القرن العشرين أو حتى الواحد والعشرين!

بهتوا..

قال أحدهم متحسرًا:

ـ ضاع عقل الشاب.

و ضرب آخر كفًا بكف:

ـ مسحت الحرب دماغه.

و اكتفى ثالث بقوله:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.

كان جزءًا من مخي يقول لي: إنهم مجموعة من الغافلين الذين لا يدرون من أمرهم شيئًا، شأنهم شأن آلاف المصريين البسطاء الذين لا يفقهون في السياسة والتاريخ وأمور الحكم الكبرى. بينما جزء آخر يقول: وماذا لو كانوا على حق؟ لماذا أنظر للأمور من منظوري فقط؟ ألا يكون عند الآخرين رؤية الصواب؟ هل ينبغي أن أستجدي عطفهم قبل أن ينصرفوا عني، وذلك بتأييدهم في كمونهم وخنوعهم واستسلامهم؟

إنهم يمشون.. إنهم يرحلون عني.. بدوت أقل شأنًا عما كنت بذي قبل..

أو أنني لم أكن أملك شأنًا من قبل..

تركوني وحيدًا أمام البحر فقعدت أنظر لزبده كيف يتلاشى ببساطة، كما تلاشى احترامي ببساطة أيضًا منذ ثوان..

كيف كان كبيرًا عرمرمًا وانتهى إلى لا شيء وذهب جفاءً..

تألق ضوء الشمس على المياه فغمغت:

ـ هل يا ترى عدت حقًا للنور يا رجل؟

حيثما كنت كانت أرض الظلمة.. كانت (موسكو) التي تعني (الظلام)، وكانت (أوروبة) المشتقة من (إيرب) الفينيقة وتعني غروب الشمس..

وحيثما كنت كان الدم والموت والحروب والشر واللعنات والتيه والهمجية..

هنا الأرض الطيبة الخضراء، أرض القطن الأبيض والقمح الذهبي، سماء الشمس الضاحكة والبدر المنير، هنا أهلي وقومي ودفء ربات البيوت أمام الأفران، في الطوائف والفلاحين والصناع، هنا نيل العسل ماؤه الجنّة..

سرى خدر رائع في مشاعري..

استلقيت على الرمال أتنفس اليود المبهج وأراقب قطع السحب القطنية طويلة التيلة، ونسمات غربيات تمس وجهي وتنزلق على صدري في رقة منعشة، قادمة من سماء زرقاء أكثر مما تكون الزرقة..

نظرت إلى جواري أتخيلها..

كانت ممددة كحورية خرافية منتظرة تخيلي، متوقعة حنيني، متجهزة كيفما يكون التجهيز لتذكري، تحمل ابتسامة حالمة وتنظر إلى عينيّ، كأنما تنظر إلى الأفق.. كأنما لا تراني..

حاولت عناقها فاختفت..

حاولتِ إنقاذي أنا يا (ملك جهان) فاختفيتِ أنتِ..

دسست يدى في جلبابي وأخرجت منديلها الوردي.. نعم.. لايزال معي..

لايزال يمتلك رائحتها المسكرة..

هذه المرة لم تهج جوانحي، ولم يثُر عقلى المكدود المتيم، نظرت إلى نفسى مليًا في ذهول فتعجبت مما وصل به حالي.. لا أعرف هل أنا الآن في قمة جنوني أم في قمة عقلي. لكن غضب غريب استبد بى مما اعتراني. من هيئة رثة إلى ثياب بالية إلى لحية مشعثة، وعدت إلى دار الحاج (رفاعي) في حزم جعل الصبية يتوقفون في حذر مرتاب عن زفة كل يوم، ويتركوني وشأني أمُرّ في سلام.. للغضب مزية جديدة.. إنه يطرد عشوائية الحزن..

وهناك وجدتها..

كانت (ملك جهان) ترقد صامتة أمام المشربية تحيك ثوبًا، وتبدو شاردة ملائكية لا تنظر في اتجاه بعينه حتى لا تنظر إلى الإبرة، فاقتربت منها وأمسكت يدها قائلاً بلهجة معتذرة:

ـ آسف يا عزيزتي.. لم أُعرك انتباهي وظللت أحيا كالثور الهائج دون أدنى مراعاة لمشاعرك!

قالت بسعادة طمأنتني:

ـ لا بأس يا (محفوظ).. كنت أسمع ثوراتك في الفناء فتركتك تنفث عن غضبك وعما حاق بك في الحرب، الآن أنت في غاية التعقل والهدوء فيما يبدو.

تنفست الصعداء ولثمت يدها الرقيقة:

ـ من الآن فصاعدًا لن أستسلم لشرودي السخيف أو انفعالاتي الخرقاء، وبمجرد عودة الحاج (رفاعي) سأخبره بقراري.. أنتِ تريدينني كما أريدك. أليس كذلك؟

ـ خجلي يمنعني من إجابتك يا (محفوظ) لكنك ترى سعادتي في وجهي.

تبسمت شفتاي لأول مرة تقريبًا منذ أشهر، محاولة صنع تجعيدات في ركنيهما الأملسين من ندرة التبسم، وعندما عاد الحاج من الحانوت قلت له في حزم:

ـ لقد قررت الأرتباط بأجمل فتيات الأرض.

وقالت (ملك جهان) الحبيبة:

ـ (محفوظ) تقدّم لي بالفعل.

شقت البهجة وجه الحاج (رفاعي)، الذي احتضنني في قوة هاتفًا:

ـ مبارك عليكما يا ولدي.. نعم الاختيار ونعم الزيجة إن شاء الله.

تم الزواج ببساطة وسرعة ومرت أيامي هانئة مع (ملك جهان) كما تخيلتها تمامًا في أحلام اليقظة. أصلحت شأني وعدت للعمل في الحانوت لأكسب من عمل يدي، أثمر حبنا الهادر السعيد عن (محفوظ) الصغير كما أصرت هي على تسميته، وجعلت تحكي له قصصها الخرافية التي تتميز بها..

كنت أغني لها أغنية (إدريس) العزيز، وقد وجدت لها وجهة أنثوية أخيرًا: (أنا الطير اللي ماله حدا غير شط نيل صافي، وزقزقة عصافير في صوتك الدافي..

يرجعوني صبي من غير هموم ولا حزن) فكانت تزداد عشقًا لي، تخشى عليّ من النسيم وتحبني حد العبادة..

وجلل العشق أيامنا الجميلة السريعة، لا يحيرني سوى نظرتها الشاردة..

عادة تمر أيام الرضا وراحة ذات صدري بسرعة تمنيت كثيرًا أن تقل هذه المرة، لكن قانون لعنتي الخاصة أبى إلا أن تعود الكرّة ويعود الشقاء، وتنتهي سعادة سريرتي المؤقتة..

هذه المرة أفقت من الحلم الجديد على كابوس رهيب..

أعلم أن طبيعة حياتي هي سلسلة لا تنفصم من الكوابيس، لكن هذه المرة أجبرني الكابوس على أن أفر فرارًا..

أعلم أيضًا أن حياتي سلسلة من الفرار المتواصل، إلا أنني هذه المرة كنت أهرب من زوجتي!

لقد استيقظت من كابوس المنام اليومي على كابوس بأرض الواقع، وهذا عندما التفتُّ ذلك الفجر لأتطلع إلى آية الجمال الملائكي المتمثلة في وجه محبوبتي، كي أغسل عينيّ من أثر النوم وأثر الكابوس بهذه الفتنة، لأفاجأ بوجه (كاترينا) جارية الحاج (رفاعي) غافيًا هانئًا على ذات الوسادة..

كانت جميلة.. بل أجمل فتيات (الإسكندرية)، ولم يؤثر كف بصرها عليّ في السابق كي يؤثر عليّ حاليًا، بالواقع لا يؤثر في أي أحد ويتمناها أي رجل، خاصة وأنه نَجَمَ عن حادث وليس خَلقيًا جِبليًا بحيث لا يصبح نسلها من ذوي العيون العمياء. لكن مشكلتي أنني لم أجد محبوبتي الحقيقية (ملك جهان)، فاعتراني فزع وصرخت:

ـ أين (ملك جهان)؟ أنتِ لستِ (ملك جهان)!

استيقظت المسكينة مفزوعة من فزعي واحتضنت ابننا، ونظرت تجاه صوتي قائلة:

ـ من تعني يا حبيبي؟ أنا (كاترينا).. زوجتك.. أهو كابوس؟

ـ نعم.. إنه لكابوس شنيع.. أعرف من تكونين، لكنني لم أتزوجك أنتِ، لقد تزوجت (ملك جهان).

بكت بكاءً حارًا وهي تقول:

ـ هل عدت إلى الهذيان؟ لقد تصورت أنك تعقلت وأنك أحببتني.

هتفت بها في غلظة وقسوة:

ـ وما ذنبي أنا أنك امرأة أخرى؟!

صرخت بانهيار لينفجر الطفل في البكاء:

ـ وما ذنب حبي أنا لك، وما جريرة هذا الطفل؟

تراجعت في صدمة كبرى..

أي ذنب مرير جنيته هذه المرة؟ بل أي خطيئة أتجرع؟

كيف صور لى عقلي أنني أتزوج بـ (ملك جهان) التي رأيتها تموت بعينيّ؟

هل وصل بي الجنون لهذه المرحلة؟

وأي حياة تُرجى من مجنون غير مسؤول مثلي؟

وفي اللحظة التالية تحولت لشخص بائس محترق عندما أخذت الطفل الذي فُطم لتوه، وغادرت الغرفة وسط نحيب معذب مأساوي لـ (كاترينا) الكفيفة التي عرفْتُ سر نظرتها الشاردة دائمًا..

لقد كتب عليّ أن كل من يعرفني ينال نصيبه من اللعنة، وإن لم أره يتألم في اليقظة، ألتهمه بأسناني على الرغم مني في كوابيس المنام..

ومن ورائي سمعت الحاج (رفاعي) يدخل الغرفة، و(كاترينا) الجميلة تحلّفه باستماتة ألا يطاردني أو يغضب مني، وبينما أرحل من المنزل كله سمعت صراخهما الأخير:

ـ هذا الوغد.. أبعد كل ما فعلته من أجله يختطف وليدك وترجينني ألا أستعيد الطفل على الأقل؟!

ـ أقسم بالله أن أنتحر إن حاولت معاقبته يا سيدي.. فلا يساوى حبي له أي شيء في هذه الدنيا.. أي شيء.

وعضضت شفتي بألم حتى أدميتها.. وعضت عليّ روحي حتى أدمتني.

لقد ماتت (ملك جهان).. ماتت.. ماتت.. ماتت..

طاردني العار وأنا أبتعد بعيدًا بعيدًا متجهًا إلى (المحروسة)، عارٍ ممن ضحت بطفلها من أجل حبها. ذلك الحب الذي أهدرته أنا في لحظة واحدة بمجرد أن استيقَّظت على حقيقة غير الحقيقة. حب كان قمينًا بتحويلي إلى أسعد أهل الأرض..

كان..

وفي المركب قابلت خليلي وناجيته:

ـ أي حال تركتك عليه يا خليل؟ وأي حال وصلت له؟

بصوته العميق الرصين الذي أعرفه منذ طفولتي أجاب:

ـ دعك من حالي وانظر إلى نفسك.. انظر إلى ما حل بصدرك؟

نظرت إلى صدري قبل أن أفهم متأخرًا ما يعنيه:

ـ أتعني قلبي المهترئ؟ أتشتريه بكيس واحد؟ بل بنصف كيس، ما رأيك؟ إنه الآن لا يساوي أي شيء كما لابد وأن خمنت أيها النيل النبيل.

ـ بل يساوي.. وابنك الذي تحمله على ذراعيك يؤكد هذا.

نظرت إلى (محفوظ) الصغير.. قطعة اللحم الحمراء النائمة في نعيم عجيب. كأنما انتقلت إلى الجنة تغفو هنالك بعيدًا عن خرائب الأُرضين والقلوب:

ـ ابني؟ أي مصير ينتظره يا ترى؟ أُصاب بالرعب من هول السؤال وحده.

ـ بالحب وحده تستقيم الحياة.. حب الربّ وحب الوطن وحب البشر.

ـ لقد أصابني الحب بكل منغصات يمكنك تخيلها.. أحببت فتاة فتمزقَت وتمزق معها قلبي وعقلي، وأحبتني فتاة فتمزقْت وتمزق معي قلبها وعقلها.. أحببت الوطن فتلبستني اللعنات وقضيت أسود أيام حياتي في الحرب والبحر والتيه.

صاح القبودان:

ـ زيدوا من همتكم إننا ضد التيار.

وقال النيل:

ـ إذا كنت ضد التيار فلا مناص من زيادة الهمّة.

ـ ربما كنتَ على حق.. ربما كنتَ على حق.

شيء ما تسلل رويدًا رويدًا إلى قلبي جعلني أبكي بصمت، وواضعًا (محفوظ) الصغير أمامي بالضبط قمت أصلي..

حبًا لربي..

من أجله وليس من أجلي..

خُيّل إليّ الدرويش وهو يقرأ عليّ:

ـ (ومن يَعشُ عن ذكر الرحمن نُقَيض له شيطانًا فهو له قرين).[17]

وعندما سجدت كانت رأس الطفل تحت وجهي، وفي السجدة الأخيرة تذكرت أن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فدعوت الله مخلصًا أن ينجيني، هنا فتح الطفل عينيه ببطء صامت تحت وجهي الساجد، ورمقني بتلك النظرة الغريبة التي ذكرتني بلحظة ميلاده عندما وُلد صامتًا، لا يبكي ككل المواليد..

لم أفهم ما اعتراني، لكني شعرت بأن كل شيء على ما يرام منذ تلك اللحظة في حياتي..

زالت عني ذنوب سوداء مدلهمة وخواطر داهمة مستطيرة وشر مظلم مفزع، وصفَت نفسي المعتلة المصابة. عندما فرغت من الصلاة ضحك الطفل في مرح، وعندما دخلت (المحروسة)، بدأت أيام الاطمئنان والعقل بهجوم..

نعم.. كانت أيام العقل وعودة الرشد، لكنها بدأت بهجوم من قاطع طريق مخمور في طريق زراعي جانبي..

أشار لي كأنه يعاني، وضعت الطفل على الحشائش الطويلة واقتربت منه سائلاً إياه عما يريد، هنا باغتني بخنجر طويل، قائلاً بصوت غليظ من أثر السُكْر الشديد:

ـ أعطني مالك.

ـ أحذرك أن تبتعد قبل أن يحدث لك ما لا يُحمد عقباه.

هنا قرر الهجوم فجريت بعيدًا عن الطفل حتى لا يدمره شري الأسود، وشجعه فراري على مطاردتي، كالكلب الذي تجري أمامه فيتجاسر عليك.. فررت وكل لحظات هروبي السابقة تتبدى لي مجتمعة، كأن ذاكرتي أصابها هياج عجيب..

وعندما هوى على صدري بخنجره.. جرحني، ولم ينطلق شري اللعين..

للمرة الأولى..

جرحني خنجره جرحًا بسيطًا مقارنة بجروح الحروب على الأقل، وتوقفت في ذهول، وتوقف هو في توتر منتظرًا رد فعلي، وأنا أغمغم غير مصدق:

ـ لم أشعر به يمور ويغلي ويفور من الأساس!

هز رأسه محاولاً أن يفيق من ثمله، حتى يفهم على الأقل إذا ما كنت أخبره أي شيء عن المال المطلوب، ولكن هزة دماغه جعلت الدماء تغور منها فترنح بشدة، وأنا أصرخ في سعادة رهيبة متذوقًا الدم البارز ببطء من جرح صدري:

ـ لم يخرج.. لقد فهمت أيها (النيل) ما حل بصدري.. لقد ذهبت اللعنة.

ثم قمت بأغرب إجراء كان يتوقع الثمل حدوثه أو يتوقعه أي أحد في الواقع، لقد اتجهت نحوه فألقى الخنجر بخوف ظنًا منه أنني سأهاجمه وأكيل له اللكمات معاقبًا، وقبلته في سعادة جنونية صارخًا:

ـ لقد شُفيت.. لقد شُفيت.

وبصعوبة تخلص مني الثمل، وفرّ هاربًا من أحضاني قائلاً ببعض التركيز:

ـ إنه.. مجنون.

لكن العاصفة هدأت من انفعالي..

كثيرًا..

عاصفة سوداء قرناء كانت حمايتي طيلة حياتي انبعثت في قوة وغضب وثورة، وفتكت بأحد ثعابين الحقل..

من (محفوظ) الصغير وسط الحشائش انبعثت لتدافع عنه..

من عائلها الجديد.. هاجت وقاتلت وحرست وأتمت واجبها وقامت به خير قيام، بل إنني لولا معرفتي بالمساحة التي تعمل فيها، والتي توقعت أن تحيط بي في دائرة أنا مركزها، لفتكت بي ضمن تلك المساحة بلا رحمة، دون اكتراث لكوني أبا هذا العائل..

من الطفل البريء الضئيل الذي لا حول له ولا قوة خرجت، وأعلنت بعنفوان أنها انتقلت إلى نسل عائلة (النحّاس) وحفيدها الجديد الأحدث، وقالت لي في رسالة واضحة أن المولى عز وجل قد استجاب لدعائك الذي طلبت فيه أن يزيح عنك غمتك، لكنك نسيت أن تضمّن ذلك الدعاء إزاحة الغمّة كذلك عن طفلك، ربما لأن هذا الطفل الذي اختطفته ليس من حقك وحدك، وربما لأنك عذبت أمه وحطمت قلبها الكبير الكسير..

حسنًا يا ابن (كاترينا)..

لم تستبد بي السعادة الجنونية على ما يبدو، لقد خففت العاصفة السوداء من انفعالي كثيرًا..

كثيرًا جدًا..

* * *

15() نهر (الدانوب) شرق (أوروبة).

16() الماليخوليا أو السوداء Mélancholie: **يُعرّف (ابن سينا) الداء بقوله: "الماليخوليا تغير الظنون والفكر عن المجرى الطبيعي إلى الفساد والخوف، والرداءة لمزاج سوداوي يوحش روح الدماغ من داخله ويفزعه بظلمته كما توحش وتفزع الظلمة الخارجية". ويؤكد (الرازي): "ويعرض لهم من التخيلات أشياء عجيبة متعفنة، حتى إن أحدهم ظن أنه قد صار خروفا، وآخر ظن أنه ديك، وبعضهم يحب الموت وبعضهم يهرب منه". واستعمل العرب طرقاً علاجية مختلفة، من أهمها المعالجة بالموسيقى، فهم كانوا قد سبقوا أوروبة في علاج الأمراض النفسية التي كان أقرانهم فيها يربطون المرضى المساكين بالأغلال الحديدية ويضعونهم في غياهب الأقبية اعتقادًا منهم بأنهم ممسوسين من الشياطين والأرواح الشريرة، حتى جاء الطبيب فيليب بينيل** PhilippePinel **(**1745 - 1826**م) فحرر هؤلاء المساكين بعد الثورة الفرنساوية الكبرى، وأنشأ المصريون مارستان (قلاوون) لعلاج المجانين من الجنسين بمنتهى الإنسانية. أما (ابن الجزار) فهو يعتقد أن الماليخوليا اختلاط لداء العشق، وهو ما أعتقده أنا شخصيًا قد حدث للوالد بعد ما جرى بينه والأميرة (ملك جهان). (الابن)**

17() الآية السادسة والثلاثون من سورة (الزُخرف).

بالنرد

يقول (كعب الأحبار): إن الله عندما خلق الدنيا جعل لكل شيء شيئًا، فقال الشقاء أنا لاحق بالبادية، وقالت الصحة وأنا معك.. وقالت الشجاعة أنا لاحقة بالشام، فقالت الفتنة وأنا معك، وقال الخصب أنا لاحق بـ (مصر)، فقال الذل وأنا معك. (المقريزي)

* * *

خالصة من حُمر النعم، أصبحت الحياة دور كبير في لعبة (طاولة)..

لم يشفع إتمام الوالي (محمد سعيد) متقلب الأهواء لخط السكة الحديدي بين (المحروسة) و(الإسكندرية) في عدم تخلف البلاد في عهده، ولم يحل بناؤه لبلدته (بور سعيد)، أو حتى نشر التمدن وإنشاء الأنتيكخانة ـ دار الآثار المصرية ـ بينه وبين ثورة مديرية (الفيوم) عليه وعلى الذلّ، فأخمدها بالقوة، بل وثورة النسوة عليه، لإجبار كل من يتم السادسة عشرة فقط من عمره على الالتحاق بالجيش، ربما كانت له حسنة عندما قال:

ـ إني أود أن أعرف ما هى العروق والشرايين التركية والشركسية فيّ لأفتحها، فأتخلص من آخر نقطة من هذا الدم الممقوت!

على أن الوالي مات بدمه الممقوت حسب تعبيره هو نفسه، بعد حياة محبة للهزل والمجون، حياة أُبيدت فيها الكتبخانة، التي كان (محمد علي باشا) يجمع فيها الكتب، حياة بدأ فيها التدخل الأجنبي في الاقتصاد المصري.. وتدهورت فيها جل أمور البلاد، والعلم امتنع والجهل والذلّ سادا، وكما هو في الأخبار معلوم وللقاصي والداني مفهوم، كان الحال شديدًا في أيام (سعيدا)..

غير أنه في عام ١٨٦٢ الأسود الذي غاب فيه عني ولدي خائضًا غمار حرب عبثية إجرامية أخرى، منتقلاً من سودان (مصر) إلى أقصى الغرب، بدا في الأفق المظلم تغيير استثنائي، بعدما توارى (سعيد) عن عالم الوجود..

نسيت الناس بسرعة عجيبة حرب الشرق الشهيرة بحرب (القرم) رغم الضحايا، فالغالبية تحيط بهم الأميّة كالطير الذي يحيط بأفراخه، فلا يقرأون الصحف النادرة وسيلة نقل الأخبار عن العالم الخارجي، حتى إنني تساءلت عن الزمن المستقبلي الخيالي الذي سيعرف الناس فيه أخبار أي حدث جلل فور وقوعه، لكنني ما لبثت أن تساءلت عن الفارق، إذ يبدو أن الاستسلام قد حل بجسد الشعب، وقد انشغل بكدحه اليومي في جني رزقه القليل، عن أي شيء آخر.. لهذا حسدت شعوب الدول الأوروبية الكبرى، حيث يتوافر لهم على الأقل أمن غذائي لا يجعلهم جزعون دومًا بحثًا عن الطعام، هكذا يتفرغون لنهضة بلادهم وتعميرها وإيجاد المخترعات الحديثة، وذلك كجهاز البرق مثلاً..أم تراهم يتعمدون ـ حكّامنا ـ حصر اهتماماتنا في البحث عن الطعام، كدجاج مغلوب على أمره ينتظر جوال الحَب؟

في هذا الصباح قابلني واحد من هذه الشعوب السعيدة. كان من رعايا (النمسا) ويجيد بعض العربية. ألح عليّ كي أكون دليله إلى صحراء (الجيزة) مقابل مبلغ طيب، والسبب لأنني عاملته بمنتهى الأمانة عندما رددت له مبلغًا زائدًا، بعد أن ابتاع مني إبريقًا نحاسيًا بديعًا مسبوكًا صنعته يدويًا بنفسي.. فلقد عدت للنحّاسين وسأقص الكيفية لاحقًا..

كان الإبريق بحاجة لـ (ألتونجي) محترف ـ ألتون كلمة تركية تعني نحاس ـ لأنه صُنع بتنزيل الفضة عليه، وهي طريقة لها أسرارها، لأنها تحتاج لمهارة عالية توصلت إليها منذ زمن، هكذا فقد النمساوي الشاحب صوابه مع النتيجة النهائية المبهرة..

وهكذا أيضًا استسلمت له، خاصة بعدما اتفق معي على مبلغ يوازي ما يمكن أن أكسبه في يوم كامل، واستأجرنا عربة العم (شندويلي)، التي يجرها جواد قوي، إلى أهرامات (الجيزة)، وهناك تركني عند الهرم الأكبر، وانطلق مبتهجًا في جولة على ظهر الجواد وحده، متخيلاً نفسه فارسًا مصريًا قديمًا. وبينما يتسلق العم (شندويلي) الهرم في سعادة، استرخيت أنا في ظلّه الضخم فوق العربة، أفكر في هذا البناء العملاق أكبر أبنية الدنيا، والذي بقي مع آثار القدماء قائمًا مهيبًا حتى الآن، يأتي إليه الناس من كل حدب وصوب، خاصة بعد كشف الحملة الفرنسية لحجر (رشيد)، الذي فسر لنا لغة الأقدمين ونقوشهم وتاريخ حضارتهم الموغل في القدم..

أي قوة هذه اكتسبها الأقدمون لتصميم شيء كهذا؟ أهي قوة السحر؟

أم قوة تمائم من عالم مندثر ربما؟

وامتلأت نفسي بالفخر للحظات لامتلاكنا شيئًا كهذا، لكن وكعادتي في التفكير بلا توقف، تساءلت عن فضلنا في وجود هذه الأهرام فلم أجد أي فضل، وإنما هي شيء تركه لنا جدودنا، كما لو أنها رسالة يعبرون فيها عن خلود علومهم الغامضة وقوتهم المبهرة، رسالة حملت آخر مكنون أرواحهم وأساليب تفكيرهم وخلاصة ذاتهم، بل إنه يقال إن (إدريس) النبي بالفعل حفظ العلوم في الأهرامات والمسلات لتأمينها من الطوفان، أما لو كنا جديرين بالانتساب لهؤلاء العظام، لجاريناهم في حضارتهم المجيدة وعلومهم التليدة، لكن المثل الشائع يقول تعليقًا (العين بصيرة واليد قصيرة)، وياله من تعليق قاس..

فكيف نبني شيئًا كهذا؟ هل بالسُخرة كسخرة شركة ترعة (السويس)؟ أم برقيق وعبيد نصطادهم كالأرانب من أفريقيا؟ أم بمدارس مقفلة وعلماء غلت أيديهم وجهل وفقر مدقعين؟

بخديوي فاسد، وفتوحات متناقصة، وتجسس ولصوصية، أم بجندية أصبحت مظهرية أكثر منها جندية عمل عقب الحرب؟ لم يعد لدينا ما نقوله في تلك الأيام السود، سوى أنشودة الأطفال عند كسوف القمر (يارب إحنا عبيدك يارب.. والأمر بيدك يارب).. فقط..

سرعان ما استبعدت فكرة إمكانية إنشاء صرح كهذا، حتى ولو بعد ألف عام، كما سبق واستبعدت إمكانية أن نكون أمة ديمقراطية مزدهرة في المستقبل المنظور، وكما استبعدت أيضًا أن يختار المصريون قريبًا حاكمًا لهم كما اختاروا يومًا (محمد علي)..

أخبرني (مختار) ذات مرة أن عندهم في الصعيد ما هو أعجب من الأهرام، وهي البرابي التي نسميها المسلات، وهي من غرابتها نقل منها الخواجات اثنتين، واحدة في الزمن القديم إلى (رومة)، وأخرى حديثًا إلى (باريز)..

في استرخائي تذكرت ـ وما المعرفة إلا ذكرى ـ وراجعت ما جرى هنا في موقعة (الأهرام) الشهيرة ١٧٩٨، عندما انتصر (نابليون) حسب التاريخ على جيوش المماليك، ثم قضاء (كليبر) بعده على جيش الأتراك في (عين شمس)، رويدًا رويدًا ومع الهواء المنعش الجاف تسلل الغفو إلى

عينيّ، ثم دنا النوم كوحش أسطورى لم يترك عينًا إلا التهم يقظتها، وابتلع استيعابها وانتباهها ابتلاعًا..

* * *

هو ذا أبي يرقد جثمانه على فراشه مفتوح العينين، مسلمًا الروح إلى بارئه، ورغم ذلك صدر منه صوت عميق، دون أن تتمّ شفتاه عن أدنى حركة:

ـ اذهب يا ولدي.. ولا تتوقف حتى لو رأيت ذات الرداء الذهبي.

قلت في طاعة جامدة:

ـ سمعًا وطاعة يا أبي.

كنت أتوق لمعرفة تفسير كلمته الأبدية في ذهني: (البشر لهم ظل واحد فقط يابني، أما نحن فلنا ظلين..فكن كالشعرة التي ينعطف حولها الضوء فلا يجعل لها ظلاً)، كما يتوق الغصن الجاف لبعض الماء يرويه ويعيده للحياة، لكن إرادة فوق إرادتي عملت على أن أستدير.. فلم أجد جدار دارنا، ووجدت بدلاً منه، ومن وراء حوافه المحطمة، لوحة فنية عملاقة وبديعة، لأفق مهول وسهول ووديان وجبال. الأراضي امتلأت بالجبال البنية والرمال الصفراء والعشب الأخضر، والسماء افترشها ضوء الشمس الذهبي الرائع، على أن العشب كان يتحرك تداعبه نسمات الهواء، فقط لأعلم علم اليقين أنها ليست لوحة عادية؛ فتقدمت في ثقة واخترقت اللوحة التي ليست بلوحة، لأجدني أسير فوق العشب..

ومن وادٍ جانبي برز فجأة الموسكو تتقدمهم فرقهم الموسيقية النظامية، وعندما لمحوني تصايحوا وأشاروا نحوي في مقت غليظ شرير، فجريت مسرعًا وهم يطاردونني حتى تلقفني الدرويش وهم على أثري، وغاص بى في مغارة معماة، قائلاً بارتياح:

ـ نحمد المغيث.. لقد أنقذتك يا (محفوظ) يا ولدي.

حاولت شكره لكنه وضع إصبعه على شفيته في صرامة، فاحتبست الكلمات في حلقي وانقطع صوتي، وأشار هو إلى الطرف الآخر من المغارة الذي كان يأتي منه ضوء شحيح، ثم انهمك في التسبحة على سبحته الضخمة المتدلية حول عنقه حتى ركبتيه، فابتعدت بعد أن صوبت نحوه ابتسامة امتنان أخيرة، وهناك وجدت مخرجًا آخر للمغارة فخرجت منه لأجدني في منتصف جبل، هبطت منه ببطء حذر حتى لا أسقط، ثم تناهى إلى مسامعي صوت زحف فرفعت دماغي لأعلى الجبل، لأرى فرقًا من قطاع الطرق ولصوص القوافل تنهب خيولها الأرض نهبًا تجاهي، فاستنفرت طاقتي لإخراج شيطاني الحارس، فبرز مني على هيئة هيكل عظمي أسود دخاني المادة، وقف أمامي وقال بصوت أقرب لصوت شيخ هرم من فرط تقدمه في السن:

ـ هذا فراق بيني وبينك قد بلغت من لدنك عذرًا!

فعرفت أنه لن ينقذني، فهششته فتبخر وعاد يغوص في جسدي، واعتمدت على سرعتي لأنجو فسقطت وتدحرجت بلا ألم حتى سفح الجبل، نظرت خلفي فلم أجدهم فعرفت أنني هربت بشكل ما، وأمامي وجدت سهولاً جميلة فمشيت فيها وقد اكتنفتني بهجة داخلية غريبة لم أحسها في حياتي من قبل، حتى إنني لأول مرة رأيتني وسمعتني أغني من فمي هذا غناءً، نعم لأول مرة رأيتني وسمعتني أغني من فمي هذا غناءً، حتى إن (النيل) الحبيب سألني:

ـ أراك وأسمعك تغني من فمك هذا غناءً؟

ـ أي نعم يا خليلي.. أفعل.

غنيت (كادني الهوى) لمطرب الشرق (عبده الحامولي)، وغنيت لمنافسه (محمد عثمان)، وأغاني أخرى للشيخ (يوسف المنيلاوي) والمطرب الشاب (سلامة حجازي)، حتى ظهرت فجأة..

(ملك جهان)..

كانت تمتطي جوادًا أبيض مطهمًا مرتدية ثوبًا ذهبيًا، لا نظير له ولا شبيه، ومن ورائها على جواد آخر رمادي الشعر وصيفتها (آيت)، ولم يسعني الوقت كي أتبادل معها كلمة واحدة، هي فقط مدت يدها نحوي كأنها تريدني، لكن السحرة الشياطين ظهروا بكهانهم وعبيدهم متجهين نحوي، ودوت نصيحة أبي في عقلي كي أبتعد مهما حدث فور أن أراها.. فور أن أرى ضي العين ونور القلب..

تحيرت وارتبكت فلم أجر، ولم أقف، حتى أنقذني (رخ)، وهجم على أعدائي ناقرًا رؤوسهم ومبيدهم عن آخرهم، وعندما التفتّ لمحبوبتي، سقطت في هوة عميقة سوداء بلا قرار، صارخًا باسمها.. باسمها وحدها..

* * *

فتحت عينيّ مذعورًا لأكتشف أنني نمت كعادتي في الأماكن المفتوحة منذ صباي، وتذكرت آخر ما كنت أفكر فيه.. آه! إنه (نابليون).. ها هو النمساوي العائد إليّ مبتهجًا كما لو كان (نابليون)، خاصة بجواده وقصره وملامحه الأوروبية، لكنني استبعدت الخاطر المضحك مع انتهاء الجولة، وناديت على العم (شندويلي) كي يهبط من فوق الهرم بعدما انقضى النهار، والحلم يدق مخيلتي بوهن، ليحثها على تذكره فلا تنساه..

وعندما عدت للنحّاسين عرجت على الشيخ (القصبي) العزيز، والذي أصر على أن أشرب معه الشاي بالنعناع الأخضر، أثناء لعب لعبة (الطاولة)، ولم ينسَ القهوجي أن يعيد الثناء على صنعتي، وهو يمسك النارجيلة النحاسية الجديدة، التي صنعتها له منذ أيام قلائل. الواقع أن هناك أشياء أخرى صنعتها في هذا المقهى، مثل هذا العازقي، الذي هو وعاء يعلق في ثلاث سلاسل، لحمل بكرج القهوة على الفحم المشتعل، وحتى الفحم يوضع في منقد من صنعي، مصمم من النحاس المبيض بالقصدير، وهذا المنقد يمكن استخدامه كمجمرة أيام الجُمع، لحرق البخور.. لكن سرعان ما يذوب البخور الذكي، وسط رائحة دخان البوري، الذي هو عبارة عن دخان التمباك مخلوطًا بالعسل الأسود، لذا يُطلق عليه التجار (المعسل)، وهو عندي أفضل من دخان الجراك بجزيرة العرب، الذي يتكون من الزيوت والفواكه العفنة!

ورغم أنه أصبح من المعمرين، إلا أنه مازال يتذكر مساعدته لي عند هربي إلى (الإسكندرية) قديمًا، ومازال يتجاذب معي أطراف الحديث حول الأحداث العمومية في البلاد، منذ عهد (محمد علي) وحتى الآن، مرورًا بمقدم البرنس (إسماعيل) إلى سدة الحكم في البلاد، قال لي الشيخ (القصبي) وهو يقذف النرد في حنكة، بأصابعه التي لواها السن وغضن جلدها الناعم:

ـ بالعام ١٨٢٠ أي منذ واحد وستين سنة، كان (إسماعيل) هذا على رأس حملة حربية في (السودان)، التي أصبحت تحت الحكم المصري حتى (كردفان)، صدقني كان الجنود مرتعبين من

أكلة لحوم البشر في أفريقيا السمراء، حتى اكتشفوا أننا الذين كنا بمثابة الوحوش بالنسبة لهؤلاء السود المساكين، وهذا عندما حولناهم لرقيق وأنشأنا لهم وكالة (الجلابة).. دو يك.. يا للحظ السيء! فعلاً دو يك..

لو تحولت (مصر) لنرد كبير، فأقصى طموحها يتوقف عند أول رقمين فقط، اليك والدو أو الواحد والاثنين.. ولا نقترب مطلقًا من الأهداف والأرقام الكبرى، لا نعرف الخمسة والستة، لا نعرف الشيش بيش!

بعد عودتي للمحروسة وعندما بحثت عن حياتي القديمة، التي لا تشبه الحياة بعد فقداني لطيب الذكر (شمس الدين ابن برقوق)، بحثت أولاً عن الدرويش الجوال فلم أجد له أثرًا. البعض قال إنه ذات ليلة من أيامه الأخيرة، التي كان يدّعي فيها أنه ينتقل إلى (مكة) يوميًا ويعود طائرًا، قرر ألا يعود من الأراضي المقدسة، وأن يظل طوال عمره هناك، ولا يبرحها إلا إلى (القدس الشريف)، والبعض الآخر يؤكد أنه ضلّ طريقه ببساطة فلم يُعرف له أثر. آخرون يقولون إنه لا يموت إلا قبل يوم القيامة بقليل، وأنه اتخذ هيئة أخرى حتى لا يشك فيه أحد. تارة يقولون إنه فقد طريقه في صحراء (سيناء) عندما رافق المحمل الشريف، وتارة يتحدثون عن أنه سيعود ليحل بركاته وعليهم تجهيز مرقده وضريحه استعدادًا لاستقبال زائري هذا الولي الصالح من أولياء الله..

أخبرني الشيخ (قصبي) أن الأسطى (فتحي) ضعفت ذاكرته وبصره معًا، فلا يتذكرني حتى وما كان من أمري معه، والأسطى (شلبي) في طائفة النجّارين أصيب بالسلّ ومات في الدير، أما العريف (عبد العال) فلقد تم تجنيده ولقى نحبه في الحرب..

(مختار) تراجع شعر رأسه وارتفعت أمامه بطن عظيمة. لشد ما تغير شكله في سنوات قليلة، وقد اتخذ له حانوت نجارة مناسب بعد أن أصبح أسطى..

وبسهولة استعدت وضعي في النحّاسين مع المساندة الأزلية للشيخ (القصبي) شيخ الطائفة، وتم تنصيبي أسطى وإن لم أحفل كثيرًا بهذا، بل وكان معظم عملي عندما أكون جوالاً بين القرى، وليس في النحّاسين وسط صبياني أصنع قدرًا أو صحنًا أو ركوة قهوة..

شيء ما كان يجعلني حرًا متحررًا، وأنا أجول في عدة أماكن كنسري الأبيض، ولا أظل ماكثًا في مكان ثابت، وذلك رغم مرافقة (محفوظ) الصغير لي ـ قبل سفره وهو مازال طفلاً ـ والذي كنت أحرص على أمنه وأمانه عبر خبرة تجريبية طويلة مع تلك اللعنة، فلم تخرج أبدًا منه أمام إنسان ولم يفجع الصغير مسببًا الموت للأبرياء كما حدث معي، بل وفى جولات صحراوية بعيدة عن العمران كنت أعرضه لتدريبات عجيبة، بهدف تعليمه السيطرة على شره الأبدي، كأن أطلق عليه النار من تلك الغدارة الروسية التي احتفظت بها سرًا، أو أعرضه لأذى لا يصدقه عقل إنسان سَويّ أو أب حنون طبيعي، حتى وصلت معه لنتيجة مذهلة عندما استطاع السيطرة على اللعنة والتحكم فيها، تلك اللعنة التي بمجرد انتقالها لابني الوحيد انتهت تلك الكوابيس المقيتة التي كانت تأتيني يوميًا في منامي، والحمد لله لم تكن تداهم ولدي كذلك حتى مع حصوله على الحماية..

ـ (إسماعيل) هذا كنا نقول في أيامه (قد يعيد مجد جده)، وذلك لما بدر منه، لكن أيامه انتهت بانتكاسة أكبر مما انتهت عليه أيام جده.

قالها الشيخ (القصبي) وهو يرص أقراص (الطاولة) مجددًا، بعد أن فاز عليّ كعادته، مبتدئًا جولة جديدة على رائحة القهوة التي أدخلها إلى (مصر) الصوفية، وعلى نغمات ربابة وقصص أحد رواة السيرة الظاهرية، وإن كنت أعشق بشكل شخصي سيرة (عنترة العبسي)..

والواقع أن (إسماعيل باشا) حفيد (محمد علي)، الذي حكم البلاد مبتدئًا جولة جديدة بدوره، في العام الثالث والستين من هذا القرن، منهيًا أيام (عباس) و(سعيد) المُرّة، ومحاولاً بجدية السير بسيرة جده الكبير، خاض عدة حروب لاخضاع الثورات في البلاد التي يحتلها الأتراك، مثل حملة (العسير)، لإخضاع ثورة بلاد العرب، طبقًا لتعليمات السلطان (عبد العزيز)، وحملة (كريت)، وحملة (البلقان) الضارية، فضلاً عن حملات (السودان)، وحملتي (الحبشة) المشؤمتين..

كما قام بتغييرات هامة شكلاً ومضمونًا.. فمن ناحية الشكل استقدم المهندس الذي بنى (باريز)، ليجعل (المحروسة) قطعة من (أوروبة)، ببناء عشرات القصور والسرايات فيها وفي (الإسكندرية)، وأنشأ الكباري ككوبرى (قصر النيل) ذي الأسدين البديعين عند كل رأس، وأعاد إلى الحياة العلمية بعض روحها المهدرة، بإنشاء مدارس (المبتديان) والمساحة والهندسة والتجارة ومدرسة البنات، كما طوّر مطبعة بولاق والصحف عامة، كتأسيس جريدة (الأهرام)، بادئًا نهضة ثقافية عربية شاملة تحاكي نهضتي (بغداد) و(قرطبة) قديمًا..

أما من ناحية الجوهر وعلى أرض الواقع فلقد استلهم شيئًا من فتوحات الماضي التي تعطلت، وأتمّ فتح (السودان) إلى ما بعد خط الاستواء، الذي يروجون عنه أن البيض يُسلق هناك على أشعة الشمس، وذلك في محاولة منه لجعل (النيل) العظيم كله مصريًا، وفي عام ١٨٧٥ امتد سلطان حكومته على ساحل بحر (القلزم)[18] الغربي عامة، بل وتجاوزه حتى المحيط (الهندي) بالأراضي الصومالية، وهو نفس العام الذي حارب فيه المصريون الزنج والأحباش لأول مرة في العصر الحديث حربًا عجيبة، كما فتح ترعة (السويس) العالمية، التي اختصرت طريق التجارة القديم من حول (إفريقيا)، بعد أن كلّفت الشعب المصري منذ البداية حتى احتفالات افتتاحها الأسطورية ضحايا بلا عدد، فضلاً عن نيف وسبعة عشر مليونًا من الجنيهات، وأدخل التلغرافات خاصة مع الثورة الصناعية التي تشتعل في (أوروبا) ومنها إلى العالم المتحضر، وأبطل الرقيق والعبيد، وأنشأ مجلس نواب، فكافأه الله تعالى بحرب بين الأمريكتين الشمالية والجنوبية، زادت من سعر القطن المصري بشدة، مما جلب الرخاء لفترة..

لكن زادت الديون على التوازي، والتى استدانها من المصارف الأوروبية بسبب بذخه، ووصلت إلى ٩١ مليون جنيه، وهو رقم خرافي وكارثي لا تعيه العقول، رغم تعسف وزارة المالية في تحصيل الأموال وجبايتها بالقسوة، إلى حد تجريد الفلاحين من مخزوناتهم الغذائية، مما سمح بتدخل الأوروبيين في شئوننا، بحجة حماية أموالهم ودَينهم، الذي لا ينتهي أو ينقص بل يتمدد كالسيل. كما حلّت الماسونية[19] في عهده، فحماها وضم إليها ابنه (توفيق)، وسعى لدى (الآستانة) لجعل وراثة عرش (مصر) منحصرة في أولاده هو، وأعاد السُخرة والتجنيد العشوائي للشباب والمراهقين؛ فعاقبه الله بثورات في (السودان)، وبخلعه، عندما ضغطت (إنجلترة) و(فرنسا) أكبر دائنين على الباب العالي مع تزايد ديونهما، وتولى في حياته وأثناء إقامته مضطرًا في قصره على (البوسفور)، ابنه (محمد توفيق باشا)..

ولم يكن من بصيص ضوء أمام الغزو المالي بالامتياز الأجنبي، سوى الصحوة الوطنية، وخلق الرأي العام المصري، على أيدي رجال عظماء خلفوا (الطهطاوي) و(علي مبارك)، كـ (جمال الدين الأفغاني) والشيخ (محمد عبده)، اللذين واجها الرجعية الدينية، وأذكيا الروح الوطنية، وجعلا الناس تفكر لأول مرة في السياسة، وتكوّن الآراء والآراء المضادة، وذلك في جدل كان جديدًا على المجتمع المصري، الذي استسلم طويلاً لاستبداد الحكّام وتحكمهم في شأنهم العمومي والخاص..

في سنة ١٨٧٦ اخترعوا شيئًا عجيبًا أفضل من مصلحة البوستة، وهو جهاز يمكنك من خلاله أن تحادث رجلاً في مكان بعيد جدًا، بحيث لا يمكن أن يسمعك أو تسمعه بدونه، حتى لو صرختما بأعلى صوتيكما، ويقال إن الصوت ينتقل من خلاله عبر أسلاك نحاسية، ويبدو أنه أكثر أهمية من جهاز (الفاكس) الذي اخترعه أحد الإسكتلنديين قبل الحرب، مما يُثبت أن العلم الحديث لا يقل أهمية عن العلم الشرعي، الذي لا نعرف سواه في بلادنا..

وكانت فيضانات خليلي القديم (النيل) في كل سِني مُلك (إسماعيل) المخلوع تقريبًا، قد خرجت عن طور المألوف؛ وأخذت تارة تقل عن المطلوب قلة محرقة أدت إلى الغلاء الشديد كما حدث عام ١٨٧٧، حيث انتشر الخراب والموت، وأدى هذا لاستفاقة المصريين وبدء حرية الفكر والصحافة الحرّة في ذات العام؛ وطورًا في السنة التالية مباشرة، تزيد عليه زيادة فاحشة، حتى بلغ السيل الزبى حقًا وحرفيًا، وفاض مغرقًا المساكن والمزروعات، فضلاً عن هجوم الكوليرا وطاعون الماشية، والمجاعات ـ خاصة في الصعيد ـ وقد فتكت بالشيوخ والأطفال، وذلك بالتوازي مع جباية الأوروبيين القاسية للضرائب، مما جعل الحياة لا تُحتمل، فنشأت المعارضة في الصحف على الأقل..

ـ هذه المرة قضيت عليك خشب!

قالها بابتسامة جذلة كشفت عن فم خاوٍ من الأسنان، قاصدًا بمصطلح خشب هزيمتي دون أن أنجح في النجاة بقرص واحد، بينما استطاع هو نقل كل أقراصه السوداء بمهارة معتادة، فوق الطاولة المطعمة بالأصداف.. وأعادتني كلمته إلى أيام الخديوي (توفيق)، بينما نرص الأقراص للعب دور جديد، وإلى عام خلع (إسماعيل باشا) ـ الذي بدأ عهد الخديوية ـ وتولي (محمد توفيق باشا) في ١٨٧٩، حيث تأكدت أن (توفيق باشا) سحق الأمل في قلوبنا، وأنهى كل بُشرى بمستقبل زاهٍ، وهزم حلاوة الحياة ذاتها.. خشب..

فعلى سبيل المثال لا الحصر، وفي الشتاء الثاني لذات عام توليه، حيث أن لكل عام شتائين، في أوله شهري يناير وفبراير، وفي آخره شهري نوفمبر وديسمبر، أغلق (توفيق) غير الموفق جريدة (مصر الفتاة)، صوت الحق والعدل لشباب الوطن التابعة لجمعية (اتحاد فتيان مصر)، ولم يوضح رجاله السبب إلا بعبارة موجزة في جريدة (الوقائع) تقول: (أُغلقت لنشرها مقالات وأخبارًا عدتها الحكومة مهيجة للخواطر والأفكار)! لكن نضال الشباب يساعدهم ولدي الميمون ـ كما أخبرني ذات مرة ـ في تلك المنظمة السرية لم يتوقف، وبرزت فيهم كفاءات شابة وطنية، تجعل جلّ همها الانتصاف من الظالمين، مثل ذلك الفتى المدعو بـ (عبد الله النديم)، فهم أبناء هذا الوادي، الذين يرومون حفظ الحقوق الوطنية، وتنبيه الغافل من الأمة المصرية..

وعندما أنهينا اللعب على انتصار مظفر للشيخ (قصبي) الطيب وهزيمة منكرة لي، كما سبق وأن هزمتني الحياة بلعبة نرد عشوائية، توجهت كي أستعد لبدء إحدى جولاتي لتبييض النحاس، تاركًا (محفوظ) الصغير الذي أصبح شابًا كبيرًا الآن، في دراسته الحقوق بمدرسة (الإدارة والألسن) باطمئنان، عقب استطاعة الابن السيطرة على قواه الدفاعية المهولة وترويضها تمامًا، بعدما خاض صراعه الخاص الذي فاق ما واجهته، وفى بلاد أبعد مما زرت، ونحوها يممت وجهي وسافرت. غادرت شطر محل (شمس الدين) ـ رحمه الله ـ الذي اشتريته منذ سنوات، للإقامة فيه بـ (الناصرية) مع ولدي، والالتفات لعملي كنحّاس..

النحاس في بلادنا هو المادة الأساسية في تجهيز العروس، وكلما كان نحاسها أكبر وأكثر كلما دلّ هذا على ارتفاع شأنها، وعلو مكانتها، وعزة جاهها.. وفى بلاد بحر (الغزال) السودانية مثلاً تُعتبر أساور النحاس الرائجة هناك بديلاً للعملة، هي والخرز الملون، لهذا يُعتبر النحّاس حِرفيًا ذا قيمة مهمة لا غنى عنه، هكذا لا يدهشني إقبال النساء أبابيل وزرافات، كى يعطينني نحاسهن في تلك الأرض الفضاء بقرية (الحماديين) من أعمال (الشرقية)، أثناء تجولي الشهري بالأقاليم، لأنهن نساء كل القرى المجاورة وليس تلك القرية فقط، وقد عرفن بمقدمي فتوافدن بنحاسهن القديم الذي علاه اخضرار الزرنيخ، أو (الجنزرة) كما نسميها بسبب القدم، وتركوا أكوام النحاس الذي مرّ عليه عام أو اثنان كى أبيضها بالنار، وأعيدها كالجديدة أو أفضل، وفي الليل أشعلت النار مع الصبي (محمد).. تلك النار التي ستظل أيامًا ليلاً ونهارًا، تدفئني ليلاً وتحرقني نهارًا، وتجدد النحاس، تؤانسني ليلاً وتضيء لي بصيرتي، وتعاقبني نهارًا عما اقترفته في الأيام غير الخالية، في العراء وبعيدًا عن أعين البشر القليلة، كان يجاورني في الوحدة (رخ) العزيز، ذلك النسر الناصع الذي اتخذني صديقًا، وكنت أحيانًا أحاول استنطاقه بينما أبيّض النحاس، كنت أقول له أمام خوف الصبي منه:

ـ هل أنت روح الدرويش؟ ليتني أطوف معك السموات السبع.. حرًا.

فكان يكتفي بنظراته الحادة الثاقبة الصامِتة، ولا يتخلى عني مطلقًا إلا للصيد، أو إذا ما اكتشف جثة في جوف الصحراء القريبة، وكنت أغني أغنية (إدريس) العزيز الذي تزوج (جميلة) واستقر في (النوبة)، ويراسلني بالبوستة كل بضعة أشهر، أثناء تسخين النحاس:

ـ (لما يجيني الليل بحضن سماك وأنام..

يا أم العيون نيلي.. ترسمني ضي حزين يشكي على ليلي..

يا أم العيون سود مرسومة بالكحلة، والقلب دنيا براح ومركبك حراس.. تخديني من حزني وتجدفي بيا، وديني لبلادي على ضفتي التانية..

أنا الطير اللي ماله حدا غير شط نيل صافي، وزقزقة عصافير في صوتك الدافي، يرجعوني صبي من غير هموم ولا حزن..

يرجعوني بهي الطلة.. يا جميلة.. يا سمرا بعيون سود، وقلبك وطن.. قلبك شوارع، ببان بيوت، وكل الأماكن مننا.. إحنا..

في ليل الغربة يا جميلة).

أغني ليس لـ (جميلة)، لكن لـ (ملك جهان) الجميلة بصفتها، متمنيًا أن تسمعني روحها الخالدة.. يسخن النحاس على غنائي حتى يصير أحمر اللون قادرًا، فأضع الصحن الضخم الملتهب أرضًا، وأضع فيه النشادر والرمل الحجري، ثم بقدميّ العاريتين أقف فوق المواد لأمسح بها سطح الصحن الساخن جدًا. فيما يشبه الرقص لكنه رقص على الجمر. أعتقد أن روح (ملك جهان) قد عفت عني بينما تلتهب قدماي، عفت عني والنار تُطهرني وتُذهب عني الرجس والشرور، تمامًا كما ستطهرنا النار على الصراط..

أدور بجسدي يمنةً ويسرةً سريعًا قبل أن يبرد الإناء النحاسي، وأنا أذيب النشادر والرمل بباطن قدمي، ليلتحم مع النحاس.. بينما روحي كلها تذوب مع الأيام لتلتحم بمستقبل مجهول، مستقبل وطن تشكله نيران متأججة، ما بين فتنة وفساد ودول كبرى مفترسة، دول لم تعد ترى في (مصر) تلك الإمبراطورية التي يُخشى بأسها، بل ما هي إلا كما قال (نوبار باشا) رجل الدولة الأرمني العظيم، عَظْمَة ثمينة كبيرة يراقبها كلبان شرهان إنجليزي وفرنسي، فلا ينقضان خوفًا من أحدهما الآخر، وأثناء ذلك يتسلل نمل يوناني ويهودي فينهشون العظمة ليسمنوا منها..

أو ما هي ـ كما قال هو أيضًا ـ إلا: عصفور (أموال الفلاحين) على شجرة انقض عليه باز (الحكومة) ونسر (دائنيها) ليتقاتلا عليه، والجمهور يفكر أي الكاسرين سيفوز به ولا يتفكر في مدى تعاسة حظ العصفور ذاته..

وعندما أنهيت القطعة نظفتها بخرقة نظيفة وبالرمل النبكي، ثم بالماء، قريبًا بعد أن توضع تحت أشعة الشمس لتجف، ستعود جديدة كيوم ولدتها أفران وقوالب النحّاسين، فلما نحيتها جانبًا ناولني الصبي القطعة الجديدة، لأواصل الرقص على النار، على جمر فراق الأحبة، على سعير حرب مرت ووطن مريض، رقص بداخله حزن، وحزن في باطنه سعادة، ورضا بقضاء الله على أي حال..

في آخر أيام الجولة، صادفتني امرأة من (النَّوَر)[20]، كانت من النسوة التي تبيض عندي، قبل رحيلها كنت لاحظت انتماءها من ملابسها الفضفاضة، وحُليها الكثير، وأقراطها الفضية الضخمة. استوقفتها، فعادت وانحنت لتضع ما على رأسها من نحاس، ثم قعدت وأخرجت الودع، وسألتني إن كنت أريد قراءة طالعي، ابتسمت لفطنتها وهززت دماغي، وهي نظرت إليّ وقالت بعد أن رمت الودع، وعبثت بالرمل أسفله:

ـ أيامك الخالية قليلة، ومعظم سنواتك عليلة، تطلعاتك جليلة، وثمرتك أصيلة، ولا تستريح إلا بعدما يموت لك ظلاً ظليلا.

ـ أي ظل؟

ـ ظلك أنت.

ثم لملمت حاجياتها وابتعدت ولم تعقّب، واكتفت بما قمت به من عمل دون أن تحصل على قرش، ورحت أتساءل عما تعنيه ضاربة الودع بالظل، قلقت في البداية إذ اعتقدت أنه الموت رحيل الظل ذاك، لكن جائتني فكرة أخرى. أله علاقة بعبارة أبي الغامضة (فكن كالشعرة التي ينعطف حولها الضوء فلا يجعل لها ظلاً)؟! لماذا تتركني العرّافة في حيرة على حيرتي؟ العامة يجعلون تسميتهم (نَوَر) سبة وصفة بذيئة تتعلق بالهمجية، رغم أن (نَوَر) من نور..

وتمر الأيام الساهرة، وتنتهي الجولة في القرى، فأعود للقاهرة..

عندما أعود بعد جولة كهذه وجيوبي مليئة بالمال، أمكث في الحانوت أراقب عمل الصبية من حولي، بينما أنقش زخارف ونقوش على إناء نحاسي جديد شكلته بنفسي، حتى لا تفقد يدي مهارتها، أو على إبريق صغير أندلسي الطراز مما يُعجب رعايا الدول الأجنبية، الذين يعتقدون أن النحاسيات وأوانيها ستنقرض يومًا ما، وأضحك أنا ملء في من سخفهم وضحالة نبؤاتهم العجيبة المبنية على اختراعات ومواد منتشرة في أوروبة، هم لا يعلمون أننا لا نتخلى عن عاداتنا وتقاليدنا وذوقنا وفنوننا وزخارفنا، لا نتخلى عن أصلنا وحرفنا.. ياللهم من بلهاء!

أستريح مكتفيًا بنقوش بسيطة، وتعليمات عديدة، وقصص كثيرة. كان الصبي (محمد) عندما يرى (رخ) ينتفض خياله، فيسارع بنشر إشاعات أسطورية عن عوالم غير بشرية أعرفها، وكان أطفال الحي يصرون على أن أقص لهم القصص. كنت أحيانًا أقص ذات قصص (كاترينا) الخرافية، الأشبه بأحداث (ألف ليلة وليلة). وأحيانًا أقص عليهم أسطورة الجندي المصري الذي لاقى الأهوال، وينسج عنه الأهالي في سهول (القوقاز) وأصقاع (الروسيا) الحكايات الغريبة والمشوقة. أقص فلا يكتفون، ويستحثونني طالبين الاستزادة، أقص فلا يسأمون أو يملون أو يتضجرون. أقص حكاية مغامراته مع السحرة الأغراب، الأكثر إثارة من مغامرات (السندباد) البحري، وحكاية محبوبة ذلك المصري، التي تفوق حكاية (بدر البدور). أقص شجاعته في حروب مخيفة، وفي رحلات بحرية مريعة، وفي غابات باردة وحشية ارتادها ذات شتاء، فيطربون، ويجحظون في ذهول مفعم، وانبهار ما بعده انبهار، ويضحكون في نشوة كثيرة..

فقط لا أخبرهم بأمر بسيط.. أن هذا الجندي ما هو إلا ذلك النحّاس الكهل الذي يقعدون أرضًا أمامه، بينما يدق بإزميله الدقيق حافرًا رسوماته الزخرفية البديعة..

ما هو إلا مصري يحمل اسم عائلته، واسم حرفته في نفس الوقت..

اسم (النحّاس)..

(محفوظ النحاس)

(المحروسة) - ١٨٨١م

* * *

بهذا ينتهي كل ما وجدته في أوراق أبي ومذكراته، قبل اشتداد المرض به، وقد أضفت عليه بعض الأساليب الأدبية والأخبار الضرورية، مقسمًا إياه لفصول، ومتبعًا نفس ترتيب ذكره للأحداث. والآن تكاد تلك الأوراق والمدونات، التي كانت آخر ما كتبه أبي، لتبقيه على صلة بتعليمه الخاص وقراءاته المتميزة، تتآكل بالكامل، بفعل عوامل الزمن وبفعل الظروف التي مرت بها، وتماشيًا مع نيته في عدم ترك ما واجهه، لتطويه الأيام، دون تعريف وإخبار، وتماشيًا ربما مع ديدن عائلة (النحّاس) - الذي يبدو أنه وراثي - فلقد وجدت أنه لزام عليّ أن أدوّن ما واجهته بدوري، رغم عدم ميلي للكتابة مثل والدي المصري العظيم (محفوظ النحّاس) ذو الحس الأدبى الواضح، سأدون قصتي أنا ربما لأنها بشكل ما تشبه ما واجهه جدي البعيد وأبي، أو ربما لأن ما مرّ بي، ربما يفوق ما حدث للرجلين مجتمعين، خاصة مع عودة الساحر الأخير بقوى كبرى للانتقام، وتعرض أبي لتلك المفاجأة المذهلة، وهو ما أصررت على ألا يُنشر إلا بعد وفاتي، تاركًا

إياه مع صديق عزيز، ومحامٍ شاب مثلي من مدرسة الحقوق.. وسيظهر في الوقت المناسب إن شاء الله..

الابن (محفوظ محفوظ النحّاس)

18() القلزم: البحر الأحمر. (الابن)

19() الماسونية: أو «البناؤون» حسب معناها الحرفي وفي الإنجليزية يسمون Freemasons أي «البناؤون الأحرار»، وهي عبارة عن منظمة أخوية عالمية يتشارك أفرادها عقائد وأفكارًا واحدة فيما يخص الأخلاق والميتافيزيقيا وتفسير الكون والحياة والإيمان بخالق إلهي. تتصف هذه المنظمة بالسرية والغموض وبالذات في شعائرها في بدايات تأسيسها، مما جعلها محط كثير من الأخبار والشائعات بأن هذه المنظمة بسعة انتشارها وتمكنها من الوصول إلى معظم الحكومات العالمية القوية هي من تملك زمام قيادة العالم، لذلك يتهم البعض الماسونية بأنها «من محاربي الفكر الديني» و»ناشري الفكر العلماني». (الابن)

20() النَوَر: هم الغجر، وهم رحالة يلاحقون الموالد، ويتعاملون مع القردة والثعابين. (الابن)